العصر العباسي الأول

دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي

الدكتور
عبد العزيز الدوري

دار الطليعة - بيروت

العصر العباسي الأول

الدكتور عبد العزيز الدوري

العصر العباسي الأول

دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت ـ لبنان
ص. ب ١١١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ٣٠٩٤٧٠ ـ ٩٦١١

الطبعة الأولى
منشورات دار المعلمين العالية ـ بغداد ١٩٤٥
الطبعة الثانية
حزيران (يونيو) ١٩٨٨
الطبعة الثالثة
شباط (فبراير) ١٩٩٧

وأول العلم بكل غائب الظنون. والظنون إنما تقع في القلوب بالدلائل. فكلما زاد الدليل قوي الظن حتى ينتهي إلى غاية تزول معها الشكوك عن القلوب. وذلك لكثرة الدلائل ولترادفها.

الجاحظ

مقدمة

بينما قطع البحث التاريخي أشواطاً بعيدة في الغرب واتجهت عناية مؤرخيه إلى نواحيه المختلفة من مالية واجتماعية وثقافية فضلاً عن النواحي السياسية فإن مؤرخ تاريخ الاسلام لا يجد بين يديه إلا معلومات مرتبكة (غالباً) قليلة لا تفي بالمراد. فما كتب في تاريخه السياسي لا يرضي وتاريخه الاقتصادي مهمل لحد الآن وأما تاريخ الحضارة فمازال في بدئه.

فعسى أن تسد هذه المحاضرات (وهي مما ألقي على طلاب السنة الثالثة في دار المعلمين العالية) بعض الفراغ في التاريخين المالي والسياسي للعصر العباسي الأول.

أما رسالة هذه المحاضرات فهي تعويد طلابنا على طريقة البحث العلمي في مجابهة معضلات التاريخ ولا ننكر أن هذه المحاضرات لم تف هذا الموضوع حقه إذ أنها نتاج بحث أعد في أثناء السنة الدراسية، وإذا ما سمحت لنا الأيام فسنعيد كتابتها على وجه أدق وأوفى والله الموفق للرشاد.

عبد العزيز الدوري

بغداد/ ١٤ شباط سنة ١٩٤٤.

الفصل الأول

الدعوة العباسية

نشأت الدولة العباسية على أثر دعاية واسعة النطاق دامت حوالي ثلث قرن فضمت إلى صفوفها كل من عادى الأمويين وتركت آثاراً هامة في نفوس المسلمين (من غير العرب) وخاصة الفرس. ولكي نفهم هذه الدعوة علينا أن ندرس أوضاع الأماكن التي انتشرت فيها من الناحيتين المالية والاجتماعية. هذا بالاضافة الى دراسة نشوئها وأساليبها ومبادئها التي بشرت بها. وللقارىء مجمل ما أريد بحثه:

أولاً: مهد الدعوة. العراق وخراسان.

(١) الحالة الاجتماعية للموالي.

(٢) الوضع المالي في العراق وخراسان.

أ ـ مساوىء الأمويين العامة.

ب ـ المساوىء في العراق.

جـ ـ المساوىء في خراسان.

(٣) الحالة المعنوية ـ

أ ـ في العراق.

ب ـ في خراسان.

ثانياً: الدعوة العباسية.

(١) مقدمة عن:

أ ـ الدعوة العلوية وتطورها حتى أبي هاشم.

ب ـ اتصال الدعوة العلوية بالدعوة العباسية.

(٢) نمو الدعوة العباسية:

أ ـ مراكزها.

ب ـ أساليب الدعاية في:

الدور السلمي السري بين ١٠٠ هـ ـ ١٢٧ هـ.
الدور المسلح العلني بين ١٢٨ هـ ـ ١٣٢ هـ.
جـ ـ الآراء التي استفادت منها الدعوة.

انتشرت الدعوة العباسية بالدرجة الأولى بين الموالي (المسلمين من غير العرب) في العراق وخراسان إذ أسرعوا فانضموا إليها رغبة في التخلص من أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية السيئة كما انضم بعضهم لتحقيق آراء كانوا يدينون بها.

١ ـ الحالة الاجتماعية للموالي(١)

تغلب العرب على الفرس والروم بسرعة فارتفعت نفسياتهم، وتملكهم الشعور بالسيادة. وأخذوا يشعرون أن العربي خلق ليسود وخلق غيره ليخدم ونظروا إلى العناصر الأخرى نظرة السيد الى المسود. وتتمثل نظرتهم في قول أحدهم عن الموالي «يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا».

واعتقدوا أنهم هم الأشراف وأن غيرهم لا حسب لهم حتى بعد إسلامهم إلا بعد أن يلتحقوا ببعض القبائل العربية على أن يكونوا موالي لتلك القبائل(٢). وربما كان من المفيد أن نتذكر أن كلمة «مولى» تعني «العبد» أيضاً.

ولم يحتقروا الموالي لجنسيتهم فقط بل احتقروهم لمهنهم، فالعرب يحترفون السياسة والحرب، بينما يشتغل الموالي بالمهن اليدوية (على الأغلب) كالزراعة والصناعة.

ولم يستخدموا الموالي إلا في الأعمال الكتابية وفي الجباية وهم يحتقرونها، وأبعدوهم عن الوظائف النبيلة، فلما ولي سعيد بن جبير القضاء بالكوفة، ضج الناس وقالوا «لا يصلح للقضاء إلا عربي»(٣).

وكانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة، حتى أن المختار بن عبيد الثقفي صديق الموالي أوصى ابن الأشتر عندما أرسله لمحاربة عبيدالله بن زياد «أن عامة جندك هؤلاء الحمراء (الموالي) وأن الحرب إن ضرستهم هربوا، فاحمل العرب على متون الخيل وارجل الحمراء أمامهم»(٤).

وأبوا أن يقاسمهم الموالي ثمرات البلاد المفتوحة، فحرموهم من العطاء، ومنحوهم

---

(١) انظر في هذا: جرجي زيدان ـ التمدن الإسلامي ـ ج ٤ (القاهرة ١٩١٨). ص ٥٥ وما بعدها؛ وأحمد أمين ـ ضحى الإسلام ج ١ (القاهرة ١٩٣٤) ص ١٧ وما بعدها.
(٢) Hitti- History of the Arabs (London 1934) p. 27
(٣) المبرد ـ الكامل. ج ٢ ص ٤٣٩.
(٤) شرحه ج ٢ ص ٤٠٥ ـ ٦

بعض الشيء من الغنائم أو الفيء. فيذكر الطبري أن أهل الكوفة سخطوا على المختار وأنه «لم يكن فيما أحدث المختار عليهم شيء هو أعظم من أن جعل للموالي من الفيء نصيباً»(١). وكيف يشاركونهم في الفيء (وارد البلاد المفتوحة) وهم يعتبرون البلاد المفتوحة وأهلها كأملاك يتصرفون بها؟ يتضح هذا في قول الكوفيين للمختار: «**عمدت إلى موالينا وهم فيء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فاعتقنا رقابهم** نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر، فلم ترض بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا!»(٢) وتظهر هذه النظرة في قول (شريك): «أهل السواد أرقاء»(٣) وقول عمرو بن سعيد والي الكوفة: «السواد بستان قريش»(٤).

وكان الموالي محتقرين في المجتمع، فلا يخاطبهم العرب بالكنية وكانوا يقولون «لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى»(٥). ولما بنى الحجاج مدينة واسط نفى النبط منها وكتب الى عامله على البصرة «إذا أتاك كتابي فانف من قبلك من النبط فإنهم مفسدة للدين والدنيا»(٦) ومنع العرب التزاوج مع الموالي، فجلد والي المدينة مولى تزوج من بني سليم وفرق بينه وبين زوجته وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه(٧).

وقد امتد احتقارهم إلى أولاد الاماء، ويسمون ابن الأمة الهجين «لأنه معيب»(٨). ويقول ابن عبد ربه «وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الامآء وقالوا لا تصلح لهم العرب»(٩). واحتج الخليفة هشام على زيد بن علي (ر) عند طلبه الخلافة قائلاً: «بلغني أنك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة»(١٠). حتى أن محمداً ذا النفس الزكية افتخر على المنصور قائلاً «إني لست من أولاد الطلقاء ولا اعرقت فيّ الاماء ولا حضنتني أمهات الأولاد»(١١).

ولذلك سخط الموالي على الأمويين. ويقول المبرد «إن جلة الموالي أنفت من هذا

---

(١) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك (القاهرة ـ المطبعة الحسينية) ج ٧ ص ١١٦، ابن الأثير الكامل في التاريخ (القاهرة ١٣٠٣هـ) ج ٤ ص ٩٠.
(٢) الطبري ج ٧ ص ١١٦.
(٣) الطبري ـ إختلاف الفقهاء (بإعتناء شخت) ليدن ١٩٣٣ ص ٢٢٥.
(٤) انظر: زيدان ـ التمدن الإسلامي ج ٢ ص ١٩.
(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ١٦٠.
(٦) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٢١٨.
(٧) الاغاني ٤ ص ١٥٠.
(٨) ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٥.
(٩) ابن عبد ربه العقد الفريد.
(١٠) انظر زيدان ج ٤ ص ٥٧
(١١) الطبري ج ٩ ص ١٠

البيت لأنه حطهم ووضعهم ورأى الاساءة إليهم غير محسوبة عيباً»[1].

وكانت هذه النظرة سائدة في الأوساط الرسمية، وبين القبائل والاعراب. أما الأوساط العلمية والدينية فكانت تنظر إليهم بعين المساواة.

٢ ـ الأوضاع المالية:

كانت الضرائب التي فرضها عمر بن الخطاب (ر) على البلاد المفتوحة معتدلة بالنسبة لما كانت عليه قبل الفتح الاسلامي[2]. ولكن الأمويين كانوا بحاجة إلى الأموال الكثيرة لاصطناع الأحزاب ولتهدئة الثورات، ولسد حاجات البلاط وللفتوحات فأدى ذلك بهم إلى زيادة الضرائب وجمعها بمختلف الطرق، فنتج عن هذا الاتجاه مساوىء عامة وأخرى تختص بمناطق معينة.

أ ـ فمن المساوىء العامة: **زيادة كمية الجزية والخراج**. فمثال الزيادة في الجزية ما أضيف على أهل الجزيرة (القسم الشمالي من العراق) حيث كانت جزيتهم ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً في العام لكل رجل. فلم يرض عبد الملك بن مروان بذلك وبعث إلى عامله فأحصى الجماجم واعتبر الناس كلهم عمالاً بأيديهم وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وادمه وكسوته وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل فرد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعاً وجعلهم طبقة واحدة[3].

وأمثلة الزيادة في الخراج كثيرة منها ما يرويه المقريزي من أن عبيدالله بن الحبحاب صاحب خراج مصر «كتب (سنة ١٠٦ هـ).. إلى هشام بأن أرض مصر تحتمل الزيادة فزاد في كل دينار قيراطاً»[4]. ويروي الجهشياري أن عامل مصر قال لسليمان بن عبد الملك «يا أمير المؤمنين إني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت فإن رأيت أن ترفق بها وترفه عنها وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معايشها فافعل، فإنه يستدرك ذلك في العام المقبل» فأجاب سليمان «هبلتك أمك. احلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم والنجا»[5]. وفي سنة ١٠٤ هـ في خلافة يزيد بن عبد الملك «اشتد أيضاً أسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج على النصارى وأوقع بهم وأخذ أموالهم ووسم أيدي الرهبان»[6]

---

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٧٣.

(٢) انظر: بتلر ـ فتوح العرب لمصر (تعريب محمد فريد ابو حديد) القاهرة ١٩٣٣ ص ٣٩٣ ـ ٤.

(٣) أبو يوسف: الخراج (طبعة بولاق) ص ٢٣ ـ ٤

(٤) الكندي: الولاة والقضاة باعتناء كيست ص ٧٣، المقريزي الخطط (القاهرة ١٣٢٦) ج ٤ ص ٣٩٤.

(٥) الجهشياري ـ الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٣٨) ص ٥١ ـ ٥٢.

(٦) المقريزي ج ٤ ص ٣٩٥.

وفي خلافة هشام بن عبد الملك «تشدد» العامل «على النصارى وزاد في الخراج»[1].

واتبع الأمويون **طرقاً سيئة في الجباية**. فكانوا يستعملون العنف والاهانة في جباية الجزية التي اعتبروها رمز الذل والصغار واجحفوا أحياناً في تقدير الخراج كما في فارس حيث «كان عمال بني أمية يخرصون الثمار على أهلها أي يحزرون مقدارها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به فيأخذونها قرفاً على قيمتهم التي قدروها»[2].

وأخذوا الجزية والخراج ممن لا تجب عليهم. ففرضوا الجزية على الرهبان كما فعل عبد العزيز بن مروان بمصر. يقول المقريزي «أمر (عبد العزيز) باحصاء الرهبان فاحصوا وأخذت منهم الجزية عن كل راهب وهي أول جزية أخذت من الرهبان»[3] وأخذوا الجزية والخراج من المغلوبين حتى بعد إسلامهم، كما فعل الحجاج مع الموالي في العراق[4]. وكانت الحال كذلك في خراسان كما يظهر من شكوى خراساني إلى عمر بن عبد العزيز «يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد اسلموا من أهل الذمة يؤدون الخراج»[5]. ويروي الجهشياري أن يزيد بن أسلم والي أفريقية ليزيد بن عبد الملك أراد اتباع طريقة الحجاج مع أهل أفريقية فقتلوه[6].

وفرض الأمويون **ضرائب اضافية**، كالرسوم على الصناعات والحرف[7]، وضرائب على من يتزوج أو يكتب عرضاً[8]. وأرجعوا الضرائب الساسانية التي تسمى «هدايا النوروز والمهرجان»، فيذكر الجهشياري أن معاوية «طالب أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان، ففعلوا ذلك فبلغ عشرة آلاف ألف درهم...»[9] وصار العمال يأخذون في الخراج دراهم وزنها أكثر من أربعة عشر قيراطاً (وهي الدراهم الشرعية التي قررها عمر ابن الخطاب) فكان ذلك يزيد زيادة فاحشة في الضرائب التي يدفعها الأهالي[10].

وربما كانت الضرائب الاضافية، كما يقول بندلي جوزي أشد وطأة من الخراج

---

(١) شرحه ج ٤ ص ٢٩٥.

(٢) انظر زيدان ـ تاريخ التمدن الإسلامي ج ٢ (القاهرة ١٩٠٣) ص ٢٢.

(٣) المقريزي ج ٤ ص ٣٩٤.

(٤) الطبري ج ٨ ص ٣٥، انظر Well hausen: The Arab Kingdom and its Fall (Calcutta) pp. 279-80، ابن الاثير ج ٤ ص ١٧٩.

(٥) الطبري ج ٨ ص ١٣٤، ابن الأثير ج ٥ ص ١٩.

(٦) الجهشياري ص ٥٧.

(٧) بندلي جوزي ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ٤٢.

(٨) الطبري ج ٨ ص ١٢٩، إبن الاثير ج ٥ ص ٢٣.

(٩) الجهشياري ص ٢٤.

(١٠) الطبري ج ٨ ص ١٢٩، اليعقوبي (النجف ١٩٣٩) ج ٢ ص ١٩٤، فان فلوتن ـ السيادة العربية (تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم) القاهرة ١٩٣٤ ص ٢٩.

والجزية لأنها لم تكن محدودة ولا مستندة إلى قاعدة مقبولة بل كان مقدارها يتوقف على رغبة العمال[١].

واتخذ العمال ولاياتهم وسيلة للاثراء. فاعترف والي خراسان ليزيد بأن قد حصل له عشرون مليوناً من الدراهم فسوّغه إياها[٢]. وبدل أن يتخذ الخلفاء تدابير لمحاسبة الولاة ومنعهم من الظلم نجدهم يقاسمونهم في فوائدهم في الأموال التي جمعوها بتلك الطرق الباطلة، وهذا معناه رضى الخلفاء بسوء تصرف العمال مع أهل البلاد بالاضافة إلى أنه دليل على أن بعضهم كان يهمه مصالح الخزينة المركزية بالدرجة الأولى[٣].

ب ـ أما في العراق:

فقد أسندت الجباية إلى الموالي والدهاقين (رؤساء القرى)[٤] لأنهم «أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة» من غيرهم كما قال عبيدالله بن زياد[٥]. كما أن الدهاقين سارعوا إلى اعتناق الاسلام وصاروا حلفاء العرب فحافظوا على نفوذهم وجمعوا ثروات طائلة، فوقع ثقل الضرائب على الطبقة العامة. يقول ابن قتيبة، «ولم أرفي الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصباً للعرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى»[٦].

وقد فرض العرب على أهل الذمة (غير المسلمين في الدولة الاسلامية) في العراق ضريبتين هما الجزية والخراج، وعند إسلام الذمي يعفى من الاثنين[٧]. فلما دخل كثير من الذميين في الاسلام عن عقيدة أو عن رغبة في الخلاص من الضرائب، أصبحت الدولة مهددة بأزمة مالية. فحاول الحجاج انقاذ مالية الدولة بأن فرض الجزية والخراج على من أسلم، وأرجع الفلاحين النازحين إلى المدن إلى قراهم لئلا تبور المزارع[٨]. فضج الموالي من سياسة الحجاج لأنها كانت تنافي مبادىء الاسلام ولم يكترث الوالي للأمر. واستمر هذا الوضع حتى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ) فوضع حلاً يتفق والاسلام ويحفظ للخزينة حقوقها ذلك بأن أعفى من أسلم من الجزية، ولكنه اعتبر الخراج ايجاراً لأرض الخراج التي هي ملك مشترك للمسلمين ويترتب على زارع هذه الأرض أن يدفعه سواء أكان

---

(١) بندلي جوزي ص ٤٢

(٢) الجهشياري ص ٢٩.

(٣) انظر فان فلوتن ص ٢٨ ـ ٣٣.

(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٩.

(٥) جرجي زيدان ـ التمدن الإسلامي ج ٢ ص ٢٣.

(٦) رسائل البلغاء ـ جمع محمد كرد علي (القاهرة ١٩١٣) ص ٢٧٠.

(٧) انظر يحيى بن آدم القرشي ـ الخراج (القاهرة ١٣٤٧) ص ٣٩، ابو عبيد القاسم بن سلام ـ الأموال (القاهرة ١٣٥٢) ص ٧٨ و ص ٩٣، فلهاوزن ص ٢٧٦.

(٨) الطبري ج ٨ ص ٣٥، إبن الأثير ج ٤ ص ١٧٩.

مسلماً أم ذمياً[١]. كما ألغى عمر الضرائب الاضافية كهدايا النوروز والمهرجان، وضرائب الزواج و «أجور الضرابين» و «أجور البيوت» ورسوم العرائض[٢].

ولكن اصلاحات عمر انتهت بوفاته إذ أمر خلفه بنقضها بأن كتب إلى عماله «أما بعد فإن عمر كان مغروراً.. فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى اخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا»[٣]. وكانت نتيجة هذه السياسة في العراق أن رجع الضغط على دافعي الضرائب وأرجعت الضرائب الاضافية[٤].

ثم دفعت كثرة الضرائب الملاكين الصغار إلى أن يحتموا بالملاكين الكبار من العرب أو برجال الدولة، فكانت الأرض تسجل باسم الحامي ويدفع مالكها الحقيقي له جزاءاً من الحاصل لقاء حمايته من عبث العمال[٥]، وهذا هو (الالجاء). ففي ولاية الحجاج الجأ عدد كبير من الملاكين أراضيهم الى مسلمة بن عبد الملك[٦] ولكن تسجيل الأرض باسم شخص ثان كان يفقد الملاك الأصلي أرضه في كثير من الأحيان.

ج ـ وفي خراسان:

ووجدت في خراسان ضريبة واحدة كانت تدفع نقداً، إذ سبق لأمراء خراسان أن عقدوا معاهدات مع العرب الفاتحين تعهدوا فيها أن يدفعوا لهم جزية سنوية معينة واشترك الدهاقين (النبلاء المحليون) وعمال الدولة في جباية الضريبة فاتفقت مصالحهما على حساب الرعية[٧] ويقول بارتولد BARTHOLD «رضيت الدهاقين في العصور الاسلامية الأولى في إيران بزوال خطورتهم السياسية نظير ما نالوا من الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية»[٨] فكان الوضع في خراسان كما قال أعجمي لعربي «الشريف من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم»[٩].

وكانت الضرائب توزع على رؤوس الأهلين لا على مساحة الأرض، إذ لو فرضت على

---

(١) انظر يحيى بن آدم رقم ٣٤، رقم ٥٠ ورقم ١٩٣.

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٢٩.

(٣) كرد علي ـ الإدارة الإسلامية في عز العرب (القاهرة ١٩٣٤) ص ١١٤.

(٤) اليعقوبي ج ٣ ص ٥٥.

(٥) الجهشياري ص ١١٨.

(٦) قدامة بن جعفر الكاتب ـ الخراج (باعتناء دي خويه ليدن ١٨٨٩) ص ٢٤١.

(٧) فان فلوتن ص ٤٨ ـ ٥٠.

(٨) بارتولد: الحضارة الإسلامية (تعريب حمزة طاهر) ص ٦٥.

(٩) رسائل البلغاء ص ٢٧٠.

الأرض لوقع أكثرها على الدهاقين[١]. وهكذا استغل الدهاقين موقفهم للترفيه عن أنفسهم وللضغط على الرعية.

وبما أن اعتناق الاسلام يعفي من الضريبة، كان انتشاره يتعارض مع مصلحة الدولة المالية من جهة، ومع مصلحة الدهاقين المادية ونفوذهم المعنوي[٢] من الجهة الأخرى ففرض الأمويون الضريبة على من أسلم كما أنهم حرموا من دخل الجيش من الموالي من العطاء. فكان ذلك مدعاة لتذمر الخراسانيين.

فلما بويع عمر بن عبد العزيز بالخلافة حاول وضع حد لهذه المساوىء فأعفى المسلمين من الجزية وأعطي الموالي المقاتلة مثل العرب[٣]. فزاد انتشار الاسلام. ولكن يزيد بن عبد الملك نقض هذه السياسة وزاد في الضرائب كي يسد النقص الذي سببه سلفه[٤].

وقامت محاولة أخرى لاصلاح الوضع الاقتصادي في خلافة هشام حيث وعد واليه أشرس بن عبدالله السلامي (٧٢٧ ـ ٩م) بإعفاء من أسلم من ما وراء النهر من الجزية. فنجحت دعوته لدرجة بعيدة، فرعب الوالي لأن «في الخراج قوة للمسلمين» كما قال، وتذمر الدهاقين لأنهم «لا يودون نشر دين فيه روح المساواة» كما يقول بارتولد فقال لعماله «خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه منه. فأعادوا الجزية على من أسلم»[٥]، فقامت ثورة عامة في تلك البلاد استمرت حتى ولاية نصر بن سيار ولا ننسى ما كان للدهاقين من يد في عرقلة ما قام به الأمويون من محاولات اصلاحية[٦].

وأخيراً حاول نصر بن سيار (٧٣٨ ـ ٧٥٨م) تنظيم الضرائب في خراسان بطريقة عادلة، فقرر اعفاء المسلمين من الجزية ولم يجد صعوبة في ذلك إذ وجد ثلاثين ألف مسلم يدفعون الجزية وثمانين ألف رجل من المشركين رفعت عنهم جزيتهم ففرض عليهم الجزية وأعفى المسلمين. ثم قسم خراسان الى مناطق ضرائب وفرض على كل منطقة كمية معينة تجبى على الأرض مهما كان مالكها[٧]. وقد أغضبت تدابير نصر هذه الدهاقين بالاضافة الى أنها جاءت متأخرة.

---

(١) G. H. Sadighi-Les Mouvements Réligieux Iranians (paris) 1938 p. 5. وانظر الطبري ج ٨ ص ١٩٦،وفان فلوتن ص ٥٠

(٢) انظر فان فلوتن ص ٤٨ ـ ٩.

(٣) الطبري ج ٨ ص ١٣٤ وص ١٣٩ واليعقوبي ج ٢ ص ٤٥

(٤) انظر فان فلوتن ص ٥١.

(٥) الطبري ج ٨ ص ١٩٦ ـ ٧، إبن الأثير ج ٥ ص ٥٤ و Barthold- Turkestan down to the Mongol Invasion (G. M. S. 1928) p. 189-90.

(٦) انظر فان فلوتن ص ٥٥ و Sadighi, o. c. p. 48

(٧) الطبري ج ٩ ص ٢٦٨ وفلهاوزن ص ٤٧٨ ـ ٤٨١.

٣ ـ الحالة المعنوية

أ ـ كانت الكوفة مهد الدعـوة العباسيـة، وكانت شبـه بوتقـة صهرت فيهـا كثير من الثقافات القديمة كما انتشرت فيها بعض الديانات القديمة كاليهودية والزردشيه والمانوية وبعض العقائد البابلية. وأدى وجود هذه الديانات إلى تسرب بعض الآراء الغريبة الى غير العرب من سكانها كمبدأ تقديس الملوك وبعض المبادىء الغـريبة كمبـدأ تناسـخ الأرواح والحلول، فلا غرابة إذن من انتشار بعض عناصر الغلو في الدعوة العباسية.

هذا بالاضافة إلى أن سخط موالي الكوفة كان شديداً على السياسة الأموية.

كما أن القبائل العراقية كرهت أن ترى السواد يستغله الأمويون وسعت لاستـرجاع حقها فيه وكانت تميل للعلويين وترى فيهم منذ مقتل علي (ر) رمز سلطتها المفقودة. ولكن عرب العراق لم يعترفوا للموالي بالمساواة، وكان عددهم كبيراً جداً بالنسبة للموالي. ولعلنا ندرك من ميول العرب العلوية في الكوفة، ومن احتقارهم للموالي أن الكوفة ما كانت تصلح لأن تكون مهداً رئيسياً للدعوة.

ب ـ أمـا خـراسـان. فكـان فيهـا من أسلم رغبـة في الاســلام، ومن أسلم طمعـاً بـالامتيازات، ومن حـافظ على دينـه الأصلي. وكان كـل من هذه الجمـاعات سـاخطاً على الأمويين فأولاها حقدت عليهم لاهمالهم مبادىء الاسلام، والثانية خاب ظنهـا بالمسـاواة، والثالثة كانت تنتظر الفرصة لتنقذ دينها(١)

ولم ينتشر الاسلام بصورة متساوية في ايران، فكان انتشاره في الغرب قوياً أما في طبرستان والديلم فيكاد يكون معدوماً، وأما في خراسان فانتشر في المدن الكبيـرة. ولكن الديانات الفارسية بقيت منتشرة في القرى، فساعد ذلك على انتشار بعض الآراء القديمـة غير الاسلامية في التناسـخ والحلول. ووجدت الى جـانب هذه بعض المـذاهب الفارسيـة القديمة التي لم تتخل عن عقائدها، ولم تقبل الدين الاسلامي بل سلكت طريقاً وسطاً حافظ على الأسس الفارسية واقتبس شيئاً من الاسلام كما هو الحال مع (الخرمية)(٢).

ووجدت في خراسان بوادر روح قومية فارسية تضيق بحكم العرب وتعتبره نوعاً من عجائب القدر وتسعى للخلاص منه بكل وسيلة. إلا أن وجود تباين في المصالح بين طبقات الشعب الايراني، وعدم وجود شعور عام، واقتصار الثقافة على طائفة صغيرة نسبياً يحملنا على الاعتقاد بأن الحركة القومية كانت محدودة. وقد فكر الطامحون بارجـاع مجد ايـران ولكنهم وجدوا أن محاولة الانفصال عن العرب مبـاشرة ضـرب من الحمق لأن ذلك يوحـد

---

(١) انظر Sadighi. قدم هذا الكتاب كرسالة للدكتوراه لجامعة باريس، وطبع منه مائة نسخة فقط، وقد ظفرت قبل عدة سنين بواحدة [اهداها المؤلف لصديقي الدكتور لويس استاذ التاريخ الإسلامي بجامعة لندن] واخذت ملاحظاتي آنئذ ولذا فيؤسفني أن لا أستطيع إعطاء رقم الصحائف دائماً.

(٢) Sadighi, o. c. p. 48 ff.

العرب ضدهم، وعليه فخير طريقة هي أن يؤيدوا بني هاشم، فإذا ما انتقلت السيادة الى هؤلاء بمساعدتهم فستصبح السلطة في أيديهم، وعند ذاك يحققون نواياهم الأصلية[١].

وكانت غاية الخراسانيين الأولى التخلص من ظلم الأمويين، ولا يهمهم أكان الامام عباسياً أم علوياً، وقد ظهر هذا من تأييدهم للعباسيين حين استأثر هؤلاء بالسلطة.

ولم تكن الدعوة العلوية قوية في خراسان، فكانت تلك البلاد صالحة لأن تكون حقلاً خصباً للدعوة الجديدة.

وكان عدد العرب قليلاً نسبياً في خراسان، فيقدرهم ڤلهاوزن بمائتي ألف[٢] ولم يحصروا أنفسهم في المراكز العسكرية، بل امتلكوا الضياع في الأرياف واختلطوا بأهل البلاد وتزوجوا الايرانيات واقتبسوا العوائد الايرانية، وصار بعضهم يشعر بشيء مشترك مع الأهالي[٣].

ولكن عدم اعتراف العرب للموالي بالمساواة كان الحجر الأساسي في النزاع، كما أن انتشار الاسلام، وهو دين المساواة، أثار روح التذمر. هذا مع العلم بأن العرب هم أول من نظم وآثار الموالي. ففي سنة ١١٦ هـ ثار الحارث بن سريج المرجئي في بلاد ما وراء النهر يدعو الى «الكتاب والسنة»[٤] وإلى حفظ العهود مع أهل الذمة، وإلى إعفاء المسلمين من الجزية ورفع الظلم عنهم ومن ثم أراد أن تكون الخلافة بالانتخاب، وكانت رايته سوداء. فانضم إليه بعض رؤساء الأزد وتميم وبعض الدهاقين وكثير من الموالي. وانتهت حركته بمقتله سنة ١٢٨ هـ (٧٤٦م) بعد ان هزت الموالي وكان لها أثر في نجاح الدعوة العباسية فيما بعد [٥].

وقد أظهر العباسيون تفضيلاً لخراسان على العراق كمسرح للدعوة ويتضح سبب ذلك من الكلمة التي تنسب إلى محمد بن علي والتي قالها لدعاته حين وجههم إلى خراسان. وسواء أصحت تلك الكلمة أم لم تصح فهي توضح لنا وضع مختلف الامصار بالاضافة الى أنها تعرض أمامنا برنامج الدعوة. قال محمد بن علي «أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية (نسبة إلى الخليفة عثمان (ر) تدين بالكف (عن الاشتراك في النزاع على الخلافة) وتقول كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة واعراب كاعلاج ومسلمون في اخلاق النصارى، وأما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة راسخة وجهلاً متراكماً، وأما مكة

---

(١) شرحه، ضحى الإسلام ج ١ ص ٣١.

(٢) فلهاوزن ص ٤٩٣.

(٣) فلهاوزن ص ٤٩٣ ـ ٨

(٤) الطبري ج ٨ ص ٥١٩

(٥) شرحه ج ٨ ص ٥١٩ ـ ٢١، وبارتولد ـ تركستان ص ١٩٠ ـ ٣، و Sadighi، وفان فلوتن ص ٦٠ وما بعدها.

والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك **العدد الكثير والجلد الظاهر** وهناك **صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل** وهم جند لهم ابدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب (يشير **إلى** شجاعتهم) وأصوات هائلة **ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة** (إشارة الى التذمر) وبعد فإني أتفاءل الى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق (اشارة الى النبوءات التي ترمز الى خراسان)»[١].

الدعــوة

١ ـ كانت لفظة شيعة تعني الاتباع والأنصار ثم صارت تطلق بصورة خاصة على أتباع العلويين[٢]. ويقول الأشعري «قيل لهم الشيعة لأنهم شايعوا علياً رضوان الله عليه ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله»[٣] وكان حزبهم من أقوى الأحزاب المناوئة للأمويين وأكثرها نفوذاً، ولذلك تسترت باسمه بعض العناصر الغريبة عنه وعن الاسلام قاصدة تحقيق غاياتها من وراء ذلك الستار.

وهكذا دخل تحت اسم الشيعة جماعتان: **الشيعة المعتدلون** وكانوا يختلفون عن بقية المسلمين بقولهم إن الإمامة بالنص لا بالاختيار وأنها في آل علي[٤]، ثم **الغلاة** وهؤلاء جاءوا بآراء غريبة عن الإسلام[٥].

والذي أراه أن حركة الغلو كانت استمراراً لحركات دينية ظهرت في ايران وانتشرت في العراق قبل الاسلام كما أنها استمرار الآراء الدينية القديمة من مجوسية وبوذية وبابلية عند أناس أسلموا لأغراض خاصة، فكسوا آراءهم الحقيقية بثوب إسلامي[٦]. وهي تمثل سخط الطبقات المثقلة اجتماعياً ومالياً من جهة، ورد فعل الديانات التي غمرها الاسلام من جهة أخرى[٧].

---

(١) الهمداني ـ كتاب البلدان (ليدن ١٣٠٢) ص ٣١٥.
(٢) انظر محمد حسين الزين الشيعة في التاريخ (مطبعة العرفان ـ صيدا ١٩٣٨) ص ١٦.
(٣) الأشعري ـ مقالات الإسلاميين وإختلاف المصلين (باعتناء ريتر، إستانبول ١٩٢٩) ج ١ ص ٥.
(٤) اصول الكافي للكليني (طبع حجر) ص ١٠١، الشهرستاني ـ نهاية الإقدام في علم الكلام (باعتناء جيوم، اكسفورد ـ ١٩٣٤) ص ٤٨٤ ـ ٧.
(٥) انظر الأشعري ـ مقالات ج ١ ص ٥، الزين ـ الشيعة في التاريخ ص ١٦٧ وما بعدها.
(٦) انظر فان فلوتن ص ٨٤ ـ ٥، و Browne: A Literary History of Persia Vol. I (Cambridge 1929) pp. 311-3.
(٧) انظر Welhausen, O. C. P. 504 وفان فلوتن ص ٨٣ ـ ٤.

ويتفق الغلاة جميعاً في الحلول والتناسخ[١]، وأولهم السبئية أتباع عبدالله بن سبأ[٢] وهم في رأي سيف بن عمر أصل البلاء في الاسلام[٣]، ومنهم تشعبت أصناف الغلاة[٤].

وقد بنى السبئية آراءهم على فكرة تجسد الألوهية، فزعموا أن جزءاً الهيـاً حلّ في علي، وقالوا «بتناسخ الجزء الألهي في الأئمة بعد علي»[٥]. وقد لا يظهر ذلك الجزء الإلّهي دائماً في العالم بل يجوز أن يعـود إلى مقره السمـاوي حتى يتجسد في شخص آخـر[٦]. يتضح هنا أثر الاعتقادات القديمة، ويرى الشهرستـاني أن هذه الآراء مأخوذة من المزدكية والهند البرهمية والفلاسفة والصابئة[٧].

وقد كان موطن السبئية الكوفة وحواليها، وأكثرهم من الموالي ولكن بينهم قليـلاً من العرب[٨]. وبانت أهميتهم التاريخية لأول مـرة في حركـة المختار (٦٤هـ ـ ٦٧ هـ) (وان كانوا مـوجودينَ قبـل ذلك). فالمختـار استمال المـوالي وتقرب منهم ومن بينهم السبئية، والظاهر أنه اطلع على بعض مبادئهم[٩]. ولم تمت السبئية في الكوفة مع المختار بل عاشت في الطبقات الواطئة، وكان بين أتباعها من له معرفة جيدة بأساليب الدعاية السرية[١٠].

وكنتيجـة لحركـة المختار ظهـرت الكيسانيـة، وهي في مبادئهـا الأساسيـة متصلة بالسبئية. وتغلو الكيسانية في اعتقادها بإحاطة الأئمة بالعلوم الإلّهية، فتذهب إلى أن محمد ابن الحنفية قد أحاط بالعلوم كلها[١١] «ويجمعهم القول بأن الدين طاعة رجل» حتى قال بعضهم أن طاعة ذلك الرجل تبطل ضرورة التمسك بقواعد الاسلام[١٢] ويقـول الأشعري «وأبطلوا جميعاً الاجتهاد في الأحكام»[١٣].

ومن الكيسانية تفرعت الهاشمية القائلون بانتقال الامامة من محمـد بن الحنفية الى ابنه أبي هاشم (عبدالله)[١٤]. إذ أن محمداً أطلع ابنه على أسرار العلوم والحكم، وعلمـه

---

(١) الشهرستاني ـ الملل والنحل (طبع حجر) ص ١٠١.

(٢) فخر الدين الرازي ـ إعتقادات فرق المسلمين والمشركين (القاهرة ـ ١٩٣٨) ص ٥٧.

(٣) wellhausen, O. C. p. 502.

(٤) الشهرستاني ـ الملل والنحل ص ١٠٠.

(٥) شرحه ص ١٠٠ ـ ١٠١.

(٦) فان فلوتن ص ٧٩.

(٧) الملل والنحل ص ١٠١.

(٨) انظر wellhausen O. C. pp. 501—3

(٩) انظر الشهرستاني ص ٨٣.

(١٠) wellhausen O. C. p. 504 انظر عن السبيئة: الزين ـ الشيعة في التاريخ ص ١٦٧ ـ ٩

(١١) فان فلوتن ص ٨٠.

(١٢) الشهرستاني ص ٨٢ ـ ٣.

(١٣) الاشعري ـ مقالات ج ١ ص ١٧.

(١٤) شرحه ج ١ ص ٢٠، البغدادي ـ الفرق بين الفرق (القاهرة ١٩١٠) ص ٢٨.

التأويل وعلم الباطن. ويذكر الشهرستاني ان الهاشمية قالوا «إن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً. والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الانساني، وهو العلم الذي استأثر علي (ع) به ابنه محمد بن الحنفية وهو أفضى ذلك السر إلى ابنه أبي هاشم، وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقاً»[١]. وقد ساعد تطرف الهاشمية في التأويل على تسرب كثير من الآراء غير الاسلامية اليهم، وعلى دخول كل من أسلم لطمع أو لخوف دون فهم الدين الاسلامي في صفوفهم[٢].

وقد تورع الأئمة من ادعاءات المغالين وتبرأوا منهم كما فعل علي (ر) ومحمد بن الحنفية[٣]. ولكن أبا هاشم كان طموحاً فحاول الاستفادة من هذه الآراء. ويعتقد فان فلوتن أنه أول من نظم الدعوة وشجع شعور التقديس للامام والآراء المتعلقة بالتأويل[٤]. ويذكر ابن عبد ربه أنه قام «بأمر الشيعة» وأنهم كانوا يأتونه و «يقوم بأمرهم ويؤدون إليه الخراج»[٥].

ويجمع عدد من المصادر على أن أبا هاشم وفد إلى سليمان بن عبد الملك، وأن الخليفة خاف من طموحه فأقعد له في طريق رجوعه من سمّه، فلما شعر بدنو أجله عرج على الحميمة مقر محمد بن علي فأوصى له، و «دفع إليه كتبه وصرف الشيعة نحوه.. وسلم اليه كتاب الدعاة»[٦]. وكانت وفاة أبي هاشم سنة ٩٨ هـ.

ويظهر أن علي بن عبدالله بن العباس جاء إلى دمشق في خلافة عبد الملك ليسكن فيها، واشتهر بتقواه، ولكنه كان طموحاً يسعى لنيل الخلافة[٧]، فأساء الوليد معاملته، ولذلك انتقل سنة ٩٥ الى الحميمة[٨]، وتوفي سنة ١١٨ هـ ولكن محمد بن علي كان الشخصية القوية في بني العباس حتى في حياة والده، ويضيف فلهاوزن أن أبا هاشم انتقل إلى الحميمة وهناك تحالف مع العباسيين وعند وفاته أوصى لمحمد بن علي[٩]. ويؤكد فان فلوتن على أهمية الوصية، ولكن فلهاوزن لا يقتنع بصحتها ويعتقد أنها حسب روايتها ضعيفة ولا

---

(١) الشهرستاني ص ٨٥.
(٢) فان فلوتن ص ٨٢ ـ ٩.
(٣) شرحه ص ٩٠ ـ ١، محمد حسين الزين ص ١٦٨.
(٤) فان فلوتن ص ٤٤ ـ ٥
(٥) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد (القاهرة ١٩١٣) ج ٣ ص ١٩٤.
(٦) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان (القاهرة ١٣١٠) ج ص ١ ٤٥٤ ـ ٥، انظر ايضاً: اليعقوبي ج ٣ ص ١٤٠ ـ والعقد الفريد ج ٣ ص ١٩٥ والاربلي: خلاصة التبر المسبوك (١٨٨٥) ص ١١.
(٧) انظر، المقدسي ـ البدء والتاريخ (باعتناء هوار) ج ١ (باريس ١٨٩٩) ص ٥٧.
(٨) الطبري.
(٩) wellhausen, O. C. pp. 501-3

بد أنها حصلت في وقت سابق لوجود شهود كثيرين عليها(١). وعلى كل فيمكننا أن نجزم بأن أبا هاشم توفي «ولا عقب له»(٢). وبان التفاهم بينه وبين محمد بن علي جعل الهاشمية ينضمون إلى محمد ويكونون نواة الدعوة العباسية(٣). يقول الرازي: «وهم (أي الهاشمية) يقولون أنه مات وأوصى بالخلافة إلى محمد بن علي بن عبدالله بن العباس»(٤).

٢ ـ الدعوة العباسية حتى مجيء إبراهيم الامام وارسال أبي مسلم إلى خراسان:

كان محمد بن علي المنظم الأول للدعوة العباسية. يقول الدينوري عنه «وهو أول من قام بالأمر وبث دعاته في الآفاق»(٥) وظل يسكن في الحميمة ولكنه جعل الكوفة مركز دعوته.

ويظهر أن خلافة عمر بن عبد العزيز كانت فرصة لنشاط اعداء الأمويين ولبدء الدعوة. فابن عبد ربه واليعقوبي والطبري والدينوري وابن خلكان يجعلون سنة مائة هجرية السنة التي بدأ فيها محمد بن علي أعماله. وها نحن أولاء نحمل أخبار الدعوة كما وردت في الطبري إذ جاء فيه:

في سنة ١٠٠ هـ أرسل محمد بن علي ميسرة الى الكوفة فأوفد ميسرة ثلاثة من الكوفيين الى خراسان لبث الدعوة. وهناك انتخب احد الدعاة إثني عشر نقيباً وسبعين تابعاً، فأرسل اليهم محمد بن علي إرشادات مكتوبة. [لكن تتمة المائة سنة، وذكر إثني عشر نقيباً وسبعين تابعاً تثير الشك(٦). كما ان الروايات المتأخرة في الطبري تبين ان الأمر لم ينظم بهذا الشكل. ثم إن عدم اتساق الروايات تقوي الشكوك، فيذكر الطبري ج ٩ ص ٩٨ أن محمد بن علي أرسل رسولاً واحداً الى خراسان سنة ١٠٢ أو سنة ١٠٣ وبعد أن تبعه سبعون انتخب إثني عشر نقيباً من بينهم. وهناك اختلاف في أسماء النقباء على روايات متعددة في الطبري. ثم إن نجاح الدعوة المحدود يشكك في ضرورة تنظيم مثل هذا]. (انظر الطبري ج ٨ ص ١٣٥ ـ ٦، ص ١٦٧).

وفي سنة ١٠٢ أرسل ميسرة دعاته الى خراسان من العراق، فوشى بهم إلى أمير خراسان (سعيد خذينة) لأعمالهم المريبة فادعوا أنهم تجار. وشفع لهم بعض الخراسانيين

---

(١) Ibid, p. 503

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٥٤ ـ ٥.

(٣) انظر اليعقوبي ج ٣ ص ٤٠ ـ ٤١.

(٤) فخر الدين الرازي ـ فرق ص ٦٣، انظر البغدادي ـ الفرق بين الفرق ص ٢٨

(٥) الدينوري ـ الأخبار الطوال (بإعتناء جرجاس ليدن ١٨٨٨م) ص ٣٥٩.

(٦) انظر Wellhausen, O. C. P. 506 ويذكر المقدسي (ج ١ ص ٥٩) ان أول من استجاب الدعوة أربعة نفر من الكوفة، فأمرهم ببث الدعوة فيها فلما كثر اتباعه أمر ببث الدعوة في خراسان ثم يذكر أن دعاة بكير بن ماهان في خراسان إختاروا اثني عشر نقيباً فقط، بينما يذكر اليعقوبي (ج ٣ ص ٥٠) ان دعاة محمد بن علي «غرسوا غرساً» في خراسان، ولا يشير إلى اية تنظيمات.

وأغلبهم من ربيعة واليمن فأطلق سراحهم. (ج ٨ ص ١٦٧).

وفي سنة ١٠٥ انضم بكير بن ماهان للدعوة. وقد رجع في تلك السنة من السند (حيث كان كاتباً لأميرها) ومعه أربعة قضبان فضة وقضيب من ذهب، فأقنعه الدعاة بالانضمام إليهم فأعطى ماله لمحمد بن علي وأصبحت له معه صلة شخصية وصادف أن توفي ميسرة فعين بكيراً محله. (ج٨ ص ١٨٠).

وفي سنة ١٠٧ أو سنة ١٠٨ أرسل بكير بن ماهان دعاة إلى خراسان، فأخبر عنهم الوالي أسد بن عبدالله فنكل بهم. (ج ٨ ص ١٨٨؛ ج ٨ ص ١٩٠).

وفي سنة ١١٣ هـ في ولاية جنيد ظهر عدة دعاة عباسيين فقتل الوالي واحداً منهم وأمر بتتبع الباقين. (ج ٨ ص ٢١٦ ـ ٧).

وفي سنة ١١٨ هـ أرسل ابن ماهان عمار بن يزيد الى خراسان ليرأس الدعوة فيها. فبدل اسمه الى (خداش) وسكن (مرو) فنجح نجاحاً طيباً، ولكنه زاغ وبشر بدين الخرمية وسمح باشتراكية النساء. فقبض عليه الوالي ومثل به وقتله. (ج ٨ ص ٢٢٩).

وتبرأ محمد بن علي من خداش بعد مقتله، وأظهر غضبه على شيعته لأنهم اتبعوا تعاليم خداش ضد مبادئه، وبعد مراسلات رضي عنهم. وترأس الدعوة بعد خداش سليمان ابن كثير الخزاعي (ج ٨ ص ٢٤٩).

ثم توفي محمد بن علي في ١ ذي القعدة ١٢٥ هـ وعمره ثلاث وستون سنة، وأوصى لابنه إبراهيم. وفي سنة ١٢٦ هـ أرسل إبراهيم الامام بكير بن ماهان إلى خراسان فجمع الأتباع بمرو وأخبرهم بوصية محمد وأعطاهم رسالة إبراهيم، فاعترفوا به ودفعوا له ما جمعوه من الأموال للامام. (ج ٩ ص ٤٣).

وفي سنة ١٢٧ هـ عين إبراهيم الامام عند وفاة بكير بن ماهان وتبعاً لوصيته أبا سلمة حفص بن سليمان الخلال لرئاسة الدعوة. فذهب أبو سلمة الى خراسان «فصدقوه وقبلوا أمره ودفعوا إليه ما اجتمع قبلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم» (ج ٩ ص ٦٦).

والخلاصة أن الكوفة كانت مركز الدعوة، ومقر الداعي الأول للامام. وأن الدعاة كلهم كانوا موالي إيرانيين من الباعة وأصحاب الحوانيت، أما العرب فكانت مراكزهم ضعيفة. ثم إن المعلومات عن بدء الدعوة في خراسان مرتبكة، والثابت أنها بدأت من الكوفة وأن الدعاة كانوا كوفيين حتى دعوة خداش. وكان سير الدعوة بطيئاً في أول الأمر وملطخاً بالدم. فلما جاء خداش لاقى نجاحاً كبيراً والتف حوله أهل مرو، ولعله كان المؤسس الحقيقي للحزب العباسي بمرو. لذا لا نستغرب السماع عن دخول الشيوخ المحليين في الدعوة لأول مرة سنة ١١٧، ولا بد من أن مجلس الشورى (ان صح وجوده) تكوّن بعد نجاح خداش[١].

---

(١) انظر Wellhausen, O. C. P. P. 513-4

٣ ـ ويجدر بنا أن نذكر بعض أساليب الدعاة في هذا الدور.

قال محمد بن علي لدعاته «انطلقوا أيها النفر فادعوا الناس في رفق وستر»[١] فكان الدعاة يجوبون خراسان ظاهر أمرهم للتجارة ويراسلون الامام في الحميمة بوساطة الكوفة أو يجتمعون به وقت الحج. وحاولوا ستر حقيقتهم بكل وسيلة. فلما قبض أسد بن عبدالله في ولايته الثانية (سنة ١١٧ هـ) على جماعة منهم ومن بينهم سليمان بن كثير الخزاعي، قال سليمان «أيها الأمير إنا أناس من قومك اليمانية وإن هؤلاء المضرية تعصبوا علينا فرقوا إليك فينا الزور والبهتان»، فخلى سبيلهم[٢]. فلما سمع الامام بهذا، أوصاهم مرة أخرى «فاكتموا أمركم وترفقوا في دعوتكم»[٣].

وعني الدعاة بالتبشير في المناطق التي كان العداء فيها للأمويين بالغاً منتهاه، ففي ما وراء النهر كانت الثورة مشتعلة في ذلك الحين، وفي خراسان كان التذمر المالي والاجتماعي شديداً فنشروا دعوتهم في هاتين المنطقتين خاصة. يقول الدينوري «فساروا (أي الدعاة) من مدينة مرو الى بخارى ومن بخارى إلى سمرقند، ومن سمرقند الى كش ونسف، ثم عطفوا على الصغانيان وجازوا منها الى ختلان وانصرفوا الى مرورود والطالقان، وعطفوا إلى وهراة بوشنج وجازوا إلى سجستان، فغرسوا في هذه البلدان غرساً كثيراً وفشى أمرهم في جميع أقطار خراسان»[٤].

كما أن خداشاً اغرى الأهالي بتساهله في بعض العقائد غير الاسلامية وخاصة اشتراكية مزدك، فانضم إليه عدد كبير منهم.

ثم حاول الدعاة العباسيون جلب كل المقاومة الشيعية (العلوية) الى صفوفهم مهما كان نوعها. وأظهروا غايتهم الأولى وهي قلب الدولة الأموية وأخفوا الثانية وهي سعيهم لأخذ الخلافة، ولم يظهروا للناس كمدعين للملك، بل كوسيلة للثورة التي يريدها الله. وبينوا أن قضيتهم هي قضية جهاد الحق ضد الباطل، فلم تكن البيعة تؤخذ باسم العباسيين بل لشخص غير معين من آل البيت يتفق عليه فيما بعد (الرضى من آل محمد). وتجنبوا كل ما يبين أنهم قاموا لأخذ محل العلويين، بل إنهم أعلنوا في مناسبات عدة بأنهم جاءوا لأخذ ثأر من استشهد منهم[٥].

كما أخفى الغلاة من الدعاة حقيقة عقائدهم عن المعتدلين. وقد ساعد إهمال الولاة على انتشار الدعوة العباسية فإن أسد بن عبدالله كان الوالي الوحيد الذي تشدد مع الدعاة

---

(١) الدينوري ص ٣٣٥.

(٢) شرحه ص ٣٣٧، الطبري ج ٨ ص ٢٢٨.

(٣) شرحه ص ٣٣٨.

(٤) شرحه ص ٣٤٠.

(٥) انظر Wellhausen, O. C. P. P. 517-8

فقتل بعضهم،ولم يخلفه أحد بشدته. والظاهر أن الأمويين لم يدركوا أهمية الدعوة، فعندما أخبر العامل (جنيد) الخليفة هشام عن الدعوة كتب إليه الخليفة «ألا يرغب في الدماء وأن يكف عمن كف عنه ويسكن الناس بجهده، وأن يطلب النفر الذين يدعون الناس حتى يجدهم وينفيهم»[١]. ولكن جنيداً لم يجدهم.

وكان لحسد الولاة بعض الأثر في توسيع الدعوة فكان ابن هبيرة والي العراق يحجز كتب نصر بن سيار عن هشام «لئلا تقوم لنصر قائمة عند الخليفة»[٢].

كما أن نصر بن سيار شغل في ما وراء النهر عن معالجة المشاكل الداخلية[٣] ثم إن العصبية القبلية أضعفت العرب لأنها مزقت قوتهم. فكانوا في خراسان على ثلاثة أحزاب. فأكثر (ربيعة) كانت مع شيبان بن سلمة الحروري الخارج على الدولة يطلب العمل بكتاب الله وسنة نبيه، ثم (مضر) وزعيمها نصر الذي لم يستخدم في الأربع سنين الأول من ولايته غير المضريين ولما حاول بعدئذ تغيير سياسته لم يفلح. و (الأزد) اليمانية ورئيسها جديع بن شبيب الكرماني[٤].

وقد مل الناس حكم الأمويين المضطرب، حتى قال الشاعر يخاطبهم:

إن البـــريـــة قـــد ملت سيـــاستكـــم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعـوا

واستغل الدعاة ذلك فصوروا ظلم الأمويين بأقبح الصور[٥].

٤ ـ ولنرجع إلى سير الدعوة. فإن مشكلة خداش وتوسع وانتشار الدعوة، واضطراب أحوال خراسان استوجبت اتصال الإمام بها مباشرة بواسطة أحد ثقـاته، والسيـطرة على الوضع كما أنها حتمت وجود رجل قوي على رأس الدعوة. ولم يكن سليمان بن كثير بالرجل المناسب إذ كان له نفوذ محلي في خراسان يعطيه شبه استقلال هذا إلى أنه لم يظهر براعة خاصة. فأرسل الامام أبا مسلم في سنة ١٢٨ هـ ليكون ممثله في خراسان.

أما شخصية أبي مسلم فيكتنفها الغموض، ونسبه مختلف فيه [٦] فيذكر الفخري «أنه ولد بأصفهان ونشأ بالكوفة»[٧]. ويقول الدينوري أنه ولد «بماه البصرة مما يلي اصفهان»[٨]

---

(١) الدينوري ٢٣٨.

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٩٦.

(٣) انظر Barthold-Turkestan pp. 19 2-3

(٤) انظر ضحى الإسلام ج ١ ص ٣٢.

(٥) الدينوري ص ٢٢٧.

(٦) يقول الفخري (لابن الطقطقي القاهرة ١٩٢٧) عن ابي مسلم «اما نسبة ففيه اختلاف كثير لا فائدة لاستقصاء القول فيه».

(٧) الفخري ص ١٠٠.

(٨) الدينوري ص ٣٣٩.

ويشير إليه الامام «بالأصبهاني»[1]، بينما يعترف المسعودي باضطراب الروايات ويقول: «كان من قرية من أعمال الكوفة وسوادها»[2]، ويبين الطبري أن اسم هذه القرية (خطرنية)[3].

وقد كان ايرانياً، مولى أو عبداً[4]، واسترعى انتباه رجال الحزب العباسي رغم كونه شاباً بما رأوا فيه «من ذكاء عقله وفهمه وحسن بصره وجودة ذهنه وحسن منطقه» فأخذوه وقدموه لابراهيم الامام، ففقهه في مبادىء الدعوة وأصولها واختصه وجعله رسولاً بينه وبين أتباعه في خراسان، ثم عينه ممثله هناك[5].

وكان يكتب اسمه على نقوده «عبد الرحمن بن مسلم» ولم يكن هذا اسمه حقيقة[6]. ويقول صديغي أن اسمه الحقيقي بهزادان. ويصفه ابن خلكان نقلاً عن المدائني بأنه كان «قصيراً أسمر جميلاً حلواً نقي البشرة أحور العين عريض الجبهة، حسن اللحية وافرها طويل الشعر طويل الظهر قصير الساق والفخذ خافض الصوت فصيحاً بالعربية والفارسية حلو المنطق راوية للشعر عالماً بالأمور. ولم ير ضاحكاً ولا مازحاً في وقته ولا يكاد يقطب في شيء من أحواله. تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يرى مكتئباً»[7].

وأوصى إبراهيم الامام شيوخ الدعوة بخراسان بإطاعة أبي مسلم[8] كما أمره بألا يخالف الشيخ سليمان بن كثير[9]. وينسب الطبري وابن قتيبة الى إبراهيم الامام وصية أوصى بها أبا مسلم حين أرسله، جاء فيها: «يا عبد الرحمن إنك رجل من أهل البيت فاحتفظ بوصيتي، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم، فإن الله لا يتم أمره إلا بهم، وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم وانظر هذا الحي من مضر فإنهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت في أمره، ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٨١.

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب (بإعتناء باربييه دي مينار باريس ١٨٦١ ـ ٧٧) ج ٤ ص ٥٩.

(٣) الطبري ج ٩ ص ٨٦.

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٢٨٠ ـ ١، اليعقوبي ج ٣ ص ٦٧. وادعى ابو مسلم في اول أيامه ان أمّة ووالده عمير بن بطين العجلي، فباع هذا أمته وهي حامل بأبي مسلم (دينوري ص ٣٣٩). وادعى بعد نجاحه انه من نسل سليط بن عبدالله بن العباس.

(٥) الطبري ج ٨ ص ٢٨٢ ـ ٣ و ص ٢٩٩، الدينوري ٣٣٩ ـ ٣٤٢ الفخري ص ١٠٠، اليعقوبي ج ٣ ص ٦٧.

(٦) ابن خلكان ج ١ ص ٢٨٠، الفخري ص ١٠٠ واليعقوبي ج ٣ ص ٦٧.

(٧) ابن خلكان ج ١ ص ٢٨١.

(٨) الدينوري ص ٣٤٣، المسعودي (القاهرة ـ طبع دار الرجاء) ج ٣ ص ١٦٩.

(٩) ابن خلكان ج ١ ص ٢٨١، الطبري ج ٩ ص ٧٦، ابن قتيبة ـ الإمامة والسياسة (القاهرة ـ مطبعة النيل) ج ٢ ص ٢١٨.

منه شيء. وإن استطعت أن لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل. فأي غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله»[1] ولعل هذه الوصية تلخص سياسة أبي مسلم في خراسان، ولكني أعتقد أنها موضوعة وخاصة وتوجد فيها عبارة «وإن استطعت أن لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل» وكيف يوصيه بذلك والعرب على تنازعهم قوة عسكرية يخشى بأسها، والدعوة العباسية لا تزال ضعيفة، وكيف يوصيه بمحو العرب من خراسان، ويطلب منه في الوقت عينه أن يخطب ود اليمن لأن نجاح القضية العباسية يتوقف عليهم وهم عرب؟ وكيف يوصيه بسحق العرب، وأهم شيوخ الدعوة كسليمان بن كثير الخزاعي وقحطبة بن شبيب الطائي وأبي داوود الشيباني عرب؟ ويجب أن نتذكر أن الدعوة في خراسان كانت ضد الأمويين وليست ضد العرب[2]. ومما يؤيد رأيي أنها ترد في الطبري دون إسناد وترد في ابن قتيبة وهو مرتبك في بعض رواياته على العباسيين، ولا ذكر لها في اليعقوبي أو ابن خلكان أو المسعودي أو الدينوري[3].

وذهب أبو مسلم الى خراسان فأظهر من ثبات الرأي وحسن التنظيم والمقدرة على انتهاز الفرص والمرونة السياسية والشدة ما أدى إلى نجاح الحركة العباسية. واهتم أولاً بتنظيم الدعوة. فوجه إلى كل ناحية من خراسان أحد دعاته، وكان الدعاة «يدورون خراسان كورة كورة في زي التجار». ثم «ولى على كل من بايعه في كل كورة رجلاً من أهلها»[4] وانتفع من تجربة خداش، فحاول التوفيق بين الاسلام وبين العقائد المحلية وخاصة عقيدة تناسخ الأرواح وجلب بذلك عدداً كبيراً من الدهاقين والفلاحين إلى جانبه[5]. وقام بجولة في غرب إيران (جمادى الثانية في سنة ١٢٩هـ) ليتصل بالشيعة المبعثرة هناك وليستميل رؤساءهم كمقدمة للاستعداد للثورة، وكان ظاهر عزمه الذهاب الى الحج، ولكنه أرسل قحطبة لمقابلة الامام ورجع هو[6].

وهكذا نجح أبو مسلم في دعوته، فقد «وافاه في يوم واحد أهل ستين قرية»[7]. ويدعي الدينوري أنه أجاب دعوته «جميع أرض خراسان»[8]. ويقول بارتولد أن معظم

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٧٦، ابن قتيبة ج ٢ ص ٢١٨.

(٢) انظر الدينوري ص ٣٣٧.

(٣) يقول الدينوري أن أبا العباس أوصى أبا مسلم «الا يدع بخراسان عربياً لا يدخل في أمره إلا ضرب عنقه» (ص ٣٥٨) وهذه الرواية اقرب إلى الفهم. وترد إشارات إلى الوصية المزعومة في مصادر متأخرة ولكنها لا تهمنا لأنها منقولة من المصادر التي ذكرناها.

(٤) شرحه ص ٣٤٤.

(٥) Barthold- Turkestan, p. 194

(٦) الطبري ج ٩ ص ٨٢ ـ ٣، وفلهاوزن ص ٥٢١.

(٧) الطبري ج ٩ ص ٨٣.

(٨) الدينوري ص ٣٤٤.

الدهاقين دخلوا في الاسلام لأول مرة بتأثيره[1]. وقد وقفت في طريقه بعض الصعوبات، مثل صعوبة المواصلات بين جهات خراسان مما يعرقل جمع الأتباع فحاول التغلب على هذه الصعوبة بتعيين موعد للاجتماع. ثم إن العرب، حتى الخارجين منهم على الحكومة أبوا في أول الأمر أن يشتركوا مع الموالي. ولكن أبا مسلم استفاد من حماس المسوّدة وإخلاصهم للدعوة واستغل انشغال الأمويين في الشام عن نجدة نصر.

ولا شك أن الخصومة بين نصر بن سيار وبين ربيعة والأزد أشغلت الوالي عن أبي مسلم، وقد حاول نصر تسوية الخلاف مع الكرماني فلم يفلح[2] فكتب الى الخليفة يبين توسع حركة أبي مسلم وخطرها على الأمويين، ويستنجد به فلم يستطع مروان نجدته[3]. ثم استنجد به ثانية بعد أن استفحل أمر أبي مسلم، فأمر مروان واليه على العراق يزيد بن هبيرة أن يسرع لنجدة نصر، ولكن ابن هبيرة لم يفعل «وتشاغل بدفع فتنة العراق»[4] كما يقول المسعودي بينما يذكر الدينوري أن ابن هبيرة احتج بقلة ولاء العراقيين[5] وهكذا ترك نصر وحيداً في المعمعة.

ومضى أبو مسلم بنشاط وحكمة في حركته فجعل (سفيذنج) قرية سليمان بن كثير الخزاعي مركزه الأول للثورة. وهناك توافد عليه الاتباع من مختلف انحاء خراسان ومن ما وراء النهر، فيروي الدينوري «وانجفل الناس على أبي مسلم من هراة وبوشنج ومرو الرّوذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس ونيسابور وسرخس وبلخ والصغانيان والطخارستان وختّلان وكش ونسف فتوافوا جميعاً مسودي الثياب»[6] وفي اليوم المعين ٢٥ رمضان سنة ١٢٩ رفع اللواء (الظل) والراية (السحاب) اللذين أرسلهما الإمام وهو يتلو «إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير»[7] ثم لاحظ أن سليمان بن كثير كان حجر عثرة في طريقه،فانتقل في أواخر سنة١٢٩ هـ الى قرية (ماخوان) حيث أصبح حاكماً حقيقياً وزاد أتباعه وتقوى جيشه[8].

ثم أثارت قوة أبي مسلم شكوك القبائل العربية التي كانت تتطاحن في مرو، وانتبهوا للخطر المشترك، فحاولوا التفاهم ضده. وحاول نصر مصالحة اليمانية، وتحذير القبائل من الخطر الجديد قائلاً:

---

(١) بارتولد ـ الحضارة الإسلامية ص ٦٥.
(٢) انظر الدينوري ص ٣٥٥ ـ ٦.
(٣) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ١٩٦ والمسعودي ج ٣ ص ١٧٠ ـ ١.
(٤) المسعودي ج ٣ ص ١٧١ ـ ٢ يروي أن نصراً بن سيار كتب إلى ابن هبيرة راساً.
(٥) الدينوري ص ٣٥٨ ـ ٩.
(٦) شرحه ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.
(٧) الطبري ج ٩ ص ٨٣ ـ ٤.
(٨) انظر Wellhausen, O. C. PP. 529-30.

أبلغ ربيعة في مرو وأخوتها — أن يغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ما بالكم تلفحون الحرب بينكم — كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب
وتتركون عدواً قد أظلكم — ممن تأشب لا دين ولا حسب
ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم — ولا صميم الموالي إن هم نسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به — عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم — فإن دينهم أن تقتل العرب (١)

وبتأثير البكريين تصالح شيبان الحروري أولاً مع نصر، ثم اقتدى به علي بن جديع الكرماني. ويقول ابن خلدون «توادعت قبائل العرب من ربيعة ومضر واليمن على وضع الحرب والاجتماع على قتال أبي مسلم الخراساني»(٢). وترائى إتفاق العرب لضرب العدو المشترك ولكن الحزازات منعتهم فاكتفوا بحملة صغيرة ضده، فلم يجد صعوبة في صدها. واستطاع أن يفرق بينهم بدهائه فمن أساليبه في ذلك ما أورده ابن خلدون حين قال «فجعل أبو مسلم يكتب إلى شيبان الخارجي يذم اليمانية تارة ومضر أخرى ويوصي الرسول بكتاب مضر أن يتعرض لليمانية ليقرأوا ذم مضر، وللرسول بكتاب اليمانية أن يتعرض لمضر ليقرأوا ذم اليمانية»(٣). ويروي الطبري أنه أرسل لعلي الكرماني من يقول له: «أما تأنف من مصالحة نصر وقد قتل بالأمس أباك وصلبه! ما كنت أحسبك تجامع نصر بن سيار في مسجد تصليان فيه»(٤). وأخيراً ذهب أبو مسلم الى مرو واستطاع أن يقنع الكرماني بقطع علاقاته مع نصر وباستئناف القتال.

ثم رجع في أوائل سنة ١٣٠ إلى (ماخوان)، وترك المتقاتلين وحدهم لينتظر الفرصة المناسبة.

لم يكن موقف أبي مسلم قوياً منذ بدء دعوته كما تصوره بعض المصادر كالدينوري وابن قتيبة والطبري، بل كان هو طالب الود، ولم يستطع مقاومة القبائل العربية علناً بل ذر الرماد في أعينهم لئلا يدركوا غايته، وبذل جهده في استمالة الأزد لأنهم ساخطون على بني أمية، فنجح في ذلك في أواخر سنة ١٢٩ هـ أو أوائل سنة ١٣٠ هـ وتحالف معهم «لأن السلطان في مضر وهم عمال مروان وقتلة يحيى بن زيد»(٥). ولكنه تجنب التصادم مع نصر(٦). وبقي أبو مسلم يغالط الطرفين حتى حاصر الكرماني مدينة (مرو) سنة ١٣٠ هـ وهجم على جيش نصر في داخلها، وحينئذ دخلها أبو مسلم وأوقف القتال.

---

(١) الدينوري ص ٣٦٠.
(٢) تاريخ إبن خلدون (طبعة بولاق) ج ٢ ص ١٢١.
(٣) شرحه ج ٢ ص ١١٩.
(٤) الطبري ج ٩ ص ٩٧.
(٥) الطبري ج ٩ ص ٩٧
(٦) انظر Wellhausen, O. CPP. 530-1 .

ولعل موقف أبي مسلم حتى سقوط مرو بيده يتضح من ذكر روايتين في الطبري تبينان كيفية دخوله تلك المدينة. فالأولى تذكر أنه جاء إلى مرو والكرماني محاصراً لها، فعرض عليه أن يدخلا سويةفرفضقائلاً «لست آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على حربي ولكن أدخل أنت فانشب الحرب». ففعل الكرماني ذلك، ثم دخل أبو مسلم المدينة وأمر الطرفين بالكف عن القتال[1]. والرواية الثانية تقول أن أبا مسلم أتى مرو في أثناء النزاع، فعرض عليه نصر «أن يدخل مدينة مرو ويوادعه فأجابه» لأن نصراً خاف اجتماع الكرماني مع أبي مسلم عليه[2]. ومهما كان الأمر فالظاهر أن أبا مسلم لم يصرح علناً لطرف معين، وأنه كان يسيء الظن بالقبائل عامة وإنما حاول استخدام اليمانية على حذر منهم.

وبعد دخول مرو، أخذ أبو مسلم البيعة على «الجند من الهاشمية خاصة» ونصها «أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ وعلى أن لا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به ولاتكم، وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم»[3] فنرى في البيعة وعداً بالسير على الكتاب والسنة، كما نرى فيها التكتم وعدم ذكر الامام وذلك لاستغلال الفرق التي تميل إلى العلويين، وخشية أن يقتل الأمويون الامام إن عرفوا اسمه. أما باقي نص البيعة فهو تأكيد على الطاعة والنظام في الجيش.

وبعد فتح مرو بدأ النضال المسلح بين أبي مسلم وبين أعدائه، وأعطيت قيادة الجيوش العباسية الى قحطبة بن شبيب حسب أوامر الامام. وبدأ أبو مسلم بشيبان الخارجي الذي هرب الى سرخس بعد سقوط مرو، فطلب منه البيعة للامام ولما أبى هاجمه وتغلب عليه وقتله فهربت بقية جيشه وأكثرهم من بكر والتحقت بنصر في نيسابور. وأرسل نصر بن سيار ابنه ضد الجيش العباسي فهزم وقتل قرب طوس، فهرب نصر من نيسابور في آخر شوال سنة ١٣٠ هـ[4]، فسار إليها أبو مسلم وجعلها مركزه.

وحاول أبو مسلم التخلص من رؤساء اليمانية، فتخلص من علي بن جديع الكرماني في طريقه الى نيسابور، وفي نفس الوقت قتل واليه أبو داوود عثمان بن جديع الكرماني في طخارستان. وهكذا تخلص أبو مسلم من منافسة زعماء اليمانية بعد أن أدى التحالف معهم غايته المطلوبة[5].

وذهب نصر إلى قومس على حدود جرجان، ومعه العرب من بكر وتميم الهاربين من

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٩٨

(٢) انظر الطبري ج ٩ ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) شرحه ج ٩ ص ٩٩.

(٤) الطبري ج ٩ ص ١١١، انظر Wellhausen, O. C. P. 583

(٥) الطبري ج ٩ ص ١٠٣ ـ ١٠٤، و Wellhausen, O. C. p. 539

خراسان. وكان والي العراق قد أرسل جيشاً بأمر مروان الى جرجان بقيادة نباتة بن حنظلة الكلابي، ولكن نباتة لم يتعاون مع نصر وجاء قحطبة بن شبيب فتغلب على نباتة وقتله في ذي الحجة سنة ١٣٠ هـ. أما نصر فوقف قليلاً في وجه الحسن بن قحطبة، ثم هرب بعد مقتل نباتة إلى همدان، وأخيراً توفي شريداً في (ساوة) سنة ١٣١ هـ.

وفي سنة ١٣١ هـ، اجتمع قحطبة وابنه الحسن وسارا غرباً فأخضعا الري وهمدان. ثم تقدم الحسن لمحاصرة الجيش الأموي في نهاوند. ولكن والي كرمان أرسل نجدة لانقاذ نهاوند، فقابلها الحسن وهزمها، ثم تقدم على نهاوند وفتحها، وأصبح الطريق الى العراق مفتوحاً أمام القوات العباسية. فأرسل قحطبة ابنه الحسن الى العراق على مقدمته، ثم تبعه. وفي هذا الحين سار ابن هبيرة بجيش قوي لمقابلة الجيوش العباسية وعسكر في جلولاء. ولكن قحطبة استطاع بمهارته أن يتجنب جيش ابن هبيرة بأن عبر الدجلة الى الكوفة فتبعه ابن هبيرة وعسكر عند (فرات بادقلي) وأرسل فرقة الى الكوفة فعبر قحطبة الفرات، وسار على ضفته الغربية وعسكر مقابل جيش ابن هبيرة. وفي ليلة ٨ محرم ٢٧/١٣٢ آب ٧٤٩ عبر قحطبة النهر مع فرقة صغيرة وباغت جيش ابن هبيرة وانتصر عليه، فانسحب ابن هبيرة الى واسط، ولكن قحطبة لاقى حتفه بطريقة مبهمة في الليل بعد أن قام بأعظم الخدمات العسكرية للعباسيين. فتسلم ابنه الحسن القيادة ودخل الكوفة حيث بويع لأبي العباس[١].

المبادىء التي استفادت منها الدعوة

١ ـ استغلت الدعوة التشاؤم العام من الفوضى التي انتجتها الحروب الأهلية بين الأمويين، وثورات الخوارج والعصبية القبلية. وتتمثل حالة الفوضى في قول العباس بن الوليد يخاطب الأمويين:

إني أعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبال تسامي ثم تندفع
ان البرية قد ملّت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا[٢]

وأضاع الناس أملهم في تحسن نظام الأمويين وأحسوا بأن في بقائه ضياع للاسلام[٣]. وانتشرت بينهم فكرة مَجيء رجل ينقذ الناس من الشر، وقد اختمرت هذه الفكرة في ذلك الوقت بين بعض الشيعة وانتشرت بين بقية المسلمين أيضاً، فاستغلها الدعاة وصارت رمزاً للمنقذ من آل البيت «الذي سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[٤].

واستغل الدعاة التنبؤ والتكهن اللذين انتقلا الى المسلمين على أيدي القسيسين

(١) انظر Wellhausen O. C. P. 540 ff

(٢) الطبري ج ٩ ص ٨

(٣) فان فلوتن ص ١٢٣

(٤) شرحه ١٢١ ـ ٣

والرهبان واليهود[١]. ووضعوا النبوءات عن مجيء سلطان آل البيت منذ أول الدعوة. فيروي الدينوري أن في سنة ١٠١ هـ «توافدت الشيعة على الامام محمد بن علي.. وقالوا له أبسط يدك نبايعك على هذا السلطان، لعل الله يحيي بك العدل ويميت بك الجور فإن هذا وقت ذاك وأوانه الذي وجدناه مأثوراً عن علمائكم»[٢]. وبشر العباسيون بالرجل ذي الاعلام السود الذي يخرج من المشرق ويزيل عرش بني أمية، فيذكر ابن عبد ربه أن أبا هاشم تنبأ لمحمد ابن علي بما يلي: «والله ليتمن هذا الأمر حتى نخرج الرايات السود من قعر خراسان»[٣]. وقد كان لهذه النبوءات أثر قوي حتى انها تغلغلت بين الأمويين أنفسهم، كما يفهم من قول اليعقوبي بأن مروان بن محمد قصد الزاب لمواجهة الجيوش العباسية «لأن بني أمية كانت تروي في ملاحمها أن المسوّدة لا يجوز سلطانهم الزاب»[٤].

وكان لاختيار الراية السوداء علاقة بكتب الملاحم (أي النبوءات المنظومة شعراً) إذ كان لواء الرسول في حروبه مع الكفار أسود، ولذا صارت الراية السوداء رمز الحق والعدل. ومن ثم صار من الضروري للامام الذي يزول على يده سلطان بني أمية أن يتخذ الألوية السوداء شعاراً له[٥].

٢ ـ ولم يتورع الدعاة من إدخال بعض الآراء غير الاسلامية كمبدأ تناسخ الأرواح ومبدأ الحلول في دعوتهم، وبهذا جذبوا قسماً كبيراً ممن لم يدخل الاسلام في قلوبهم واكسبوا الأئمة حقاً مقدساً. ويتضح هذا لأول مرة في حركة خداش الذي أظهر قبولاً لبعض مبادىء الخرمية واتخذ ذلك وسيلة لجذب هذه الطائفة. ويقول الطبري أن خداشاً «أظهر دين الخرمية ودعا إليه ورخص لبعضهم في نساء بعض»[٦]. ويقول المقدسي عن خداش: «ثم لم يلبث أن غير ما دعاهم (أتباعه) إليه ومثل لهم الباطل في صورة الحق فرخص لبعضهم في نساء بعض وهو أول من بدأ مذهب الباطنية»[٧]. وتظهر شدة تمسك أتباع خداش به حين لم يصدقوا قول ابن هامان بأن الأمام تبرأ من تعاليمه[٨].

ويرى ڤلهاوزن بأن الخرمية لم تكن طائفة دينية (وإنما هي ميل للتمتع بملاذ الحياة وأن الهاشمية لضجرهم من تقييدات الاسلام مالوا الى الوثنية الايرانية[٩] وهو رأي خاطىء،

---

(١) انظر عن التنبؤ ـ فان فلوتن ص ١٠٧ ـ ١١٩
(٢) الدينوري ص ٣٣٤
(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ١٩٥ ـ ٦
(٤) اليعقوبي ج ٣ ص ٨٣.
(٥) فان فلوتن ص ١٢٥ ـ ٦
(٦) الطبري ج ٨ ص ٢٢٩
(٧) المقدسي ـ البدء والتاريخ ج ٦ ص ٦٠ ـ ١.
(٨) الطبري ج ٨ ص ٢٤٩.
(٩) فلهاوزن ص ٥١٦.

فقد أظهر صديغي أن الخرمية فرقة دينية ترجع مبادئها إلى (مزدك) الاباحي، ثم حصل فيها تطور بمرور الزمن، وأنهم اتخذوا لأنفسهم لقب (خرّم دينان) أو أهل الدين الفرح، وأنهم باتصالهم بالاسلام كونوا لأنفسهم حلاً وسطاً بين دينهم المجوسي وبين الاسلام، ولكنهم بقوا يعتقدون بالنور والظلمة، ويقولون بالحلول وبتناسخ الأرواح وباشتراكية النساء برضاهن[١]. فخداش إذن شجع هذه الميول واستفاد منها.

وسار أبو مسلم على خطة خداش مع الخرمية، حتى ان طائفة منهم صارت تعتقد بإمامته وبأن فيه جزءاً الهياً، ويقول الشهرستاني أن (الرزامية) قالوا عن أبي مسلم «له حظ في الامامة وادعوا حلول روح الآلهة فيه. وقالوا بتناسخ الأرواح»[٢].

ثم إن الراوندية، وهي شيعة بني العباس في خراسان كانت تدين بالتناسخ والحلول[٣]. فيذكر الطبري «أن رجلاً من الراوندية.. زعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب ثم في الأئمة في واحد بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد وأنهم آلهة فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم فعبدوا أبا جعفر المنصور»[٤].

ووضعوا الأحاديث عن الرسول بأنه بشّر بانتقال السلطان للعباسيين. فرووا عن الرسول أنه قال لعمه العباس «إنها تكون في ولدك وأنه حين أتاه ابنه عبدالله أذن في أذنه وتفل في فيه، وقال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. ثم دفعه الى أبيه وقال: خذ إليك أبا الأملاك»[٥]. واستفادوا من آراء الفرس في شرعية الحكم في العائلة المالكة واحتجوا بالقرابة. فكتب أبو مسلم على نقوده التي ضربها في خراسان «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى»[٦].

٤ ـ وحاول بعض الدعاة استثارة عاطفة الفرس القومية خاصة في خراسان ضد العرب عامة والأمويين خاصة. فخطب قحطبة بن شبيب في الخراسانيين قائلاً «يا أهل خراسان، هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين وكانوا ينصرون على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم حتى بدلوا وظلموا فسخط الله عز وجل عليهم، فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة في الأرض كانت عندهم (يشير الى العرب) فغلبوا على بلادهم.. واسترقوا أولادهم فكانوا بذلك يحكمون بالعهد وينصرون المظلوم، ثم بدلوا وغيروا وجاروا في الحكم وأخافوا أهل البر التقوى.. فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم ليكونوا أشد عقوبة لأنكم طلبتموهم

---

(١) Sadighi, مرجع مذكور سابقاً.

(٢) الشهرستاني ـ الملل والنحل ص ٨٧.

(٣) Sadighi، المرجع نفسه.

(٤) الطبري ج ٩ ص ٣٠٦ ـ ٧.

(٥) الفخري ص ١٠٣.

(٦) La voix- Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale (Khalifes Orientaux) paris 1887 p. xlvii

بالثأر»[1]. ويشير ڤلهاوزن الى ذكر (نيوفان) لفظائع الموالي مع العرب وانتقامهم منهم[2].

ولكن يجب أن لا نبالغ في أثر الشعور القومي في الحركة العباسية، فأساسها إسلامي ولها دوافع اجتماعية واقتصادية بالاضافة إلى الدوافع السياسية. فقد انتشرت الدعوة العباسية بصورة خاصة في أول الأمر بين الخرمية، وكون هؤلاء العمود الفقري للحزب العباسي في خراسان، ولا شك أن الخرمية كانوا أقلية دينية في خراسان وكان أساس نشوئها (كما يبين Christensen) السخط على النظام الطبقي وعلى الأوضاع المالية في إيران في العصرين الساساني والاسلامي. ولعل نصر بن سيار، ذلك الخبير بأوضاع خراسان قصد هذه الطائفة حين قال أتباع أبي مسلم:

ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم ولا صميم الموالي إن هم نسبوا

وانتشرت الدعوة بين الطبقات العامة في الأماكن التي كان الضغط المالي فيها بالغاً منتهاه، ومما سهل انضمام تلك الطبقات للعباسيين أن الدعاة أعطوا دعوتهم ثوباً يتناسب والآراء الدينية القديمة السائدة بين العامة.

والتف الدهاقين حول أبي مسلم أملاً بالفوائد المادية والاجتماعية بعد أن جردتهم إصلاحات نصر بن سيار منها.

ثم إن الدعوة انتشرت في بقاع معينة من خراسان، واشترك فيها بعض العرب حتى كان بعض رؤسائها البارزين كقحطبة بن شبيب وأبي داوود وزياد بن صالح وسليمان بن كثير عرباً[3]. وهناك بعض الحوادث التي تبين إشتراك الإيرانيين مع القبائل العربية ضد الشيعة العباسية في خراسان[4].

ولكن الدعوة أثارت آمالاً في نفوس الايرانيين بوعودها الكثيرة، فجعلتهم يتطلعون إلى عيش أرفه وأيام أسعد من أيامهم في عهد بني أمية، وبذلك دفعت بوادر اليقظة الفارسية من حالة سلبية تتذمر من وضع سيء إلى حالة إيجابية تتطلب العز والسيادة.

وعلينا أن لا نتصور أن الدعوة انتهت بانتصار العباسيين، بل استمرت واستمر تأثيرها بصورة ايجابية حيث حاول العباسيون تثبيت سلطانهم باتباعهم أساليب الدعاية، كما ظهر أثرها بصورة سلبية في إيران في الثورات الدينية والاضطرابات طيلة العصر العباسي وذلك كنتيجة لخيبة الآمال التي أثارتها الدعوة العباسية في نفوس الفرس.

٥ ـ ويجب أن نلاحظ أن أبا مسلم جمع تحت رايته عناصر غير متجانسة، يجمعها

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٠٦.

(٢) فلهاوزن ص ٥٣٦.

(٣) بارتولد ـ الحضارة الإسلامية ص ٦٥ ـ ٦

(٤) فلهاوزن ص ٥١٧.

العداء لبني أمية لأسباب متباينة. فكانت نواة الجيش العباسي من الهاشمية[١]. وهم الأتباع المخلصون، وكان أكثر اتباع أبي مسلم فلاحين من جهات مرو مدفوعين بوضعهم السيء[٢]. واجتمع النبلاء حوله لفقدهم لامتيازاتهم بعد تنظيمات نصر[٣]. كما أن بعض أتباع العلويين ساهموا لأنهم ظنوا أن الدعوة كانت لارجاع حقوق آل علي المهضومة، واشترك بعض العرب في الحركة على أساس إحياء السنة وإرجاع العدل. هذا بالاضافة الى من اشتركوا بدوافع قومية. فكان من المحتم أن تؤكد هذه العناصر المتباينة ميولها الحقيقية بعد زوال الخطر المشترك كما سنرى[٤].

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٩٨.

(٢) فلهاوزن ص ٥٣٢

(٣) انظر Barthold- Musulman culture (Calcutta) 1934 p. 73

(٤) Barthold- Turkestan p. 194- 5

الفصل الثاني

معنى الانتقال من الأمويين الى العباسيين

سمى العباسيون حكومتهم «دولة» فكانت في زعمهم فاتحة عصر جديد في الاسلام(١). وقد تصح هذه التسمية إلا أنها تحتاج الى تحديد، فقد حل بنو العباس محل بني أمية في الحكم ولكنهم ساروا في أثر الأمويين في كثير من أنظمتهم وتقاليدهم ولم يخلقوا دولتهم خلقاً جديداً. ولكي نضع صورة حقيقية للوضع علينا أن نأخذ أواخر دولة بني أمية وأوائل دولة بني العباس بنظر الاعتبار لأنهما حلقتا وصل طالما أغفلها الباحثون. وإلى القارىء فيما يلي مدى الشبه والاختلاف بين هذين الدورين.

١ ـ يقول الجاحظ: «دولة بني العباس أعجمية خراسانية، ودولة بني مروان أموية عربية»(٢) ويرى المسعودي أنه باستخدام العباسيين للموالي «سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها»(٣). ويقول بيكر «ان انتصار العباسيين معناه انتصار الفرس على العرب»(٤). ويرى ڤلهاوزن Wellhausen أن حكم العرب انتهى بمجيء العباسيين، وأن «الفارسية انتصرت على العربية تحت ستار الأممية الاسلامية»(٥).

ولعل هذه الأقوال صحيحة في أساسها، ولكنها متطرفة على ما أرى. فمن المبالغة أن تقول بأن سلطان العرب ينتهي بسقوط الأمويين. فالخلفاء العباسيون كانوا عرباً هاشميين (من جهة الأب على الأقل) وكانوا يعتزون بنسبهم ويعتبرونه أكبر مناقبهم. ومع أنهم قربوا الفرس، إلا أنهم سيطروا عليهم فنكلوا بهم حين شعروا بتعاظم نفوذهم كما فعل أبو العباس بالخلال، والمنصور بأبي مسلم والرشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل بن سهل.

وقد أعطيت بعض المناصب الهامة كالوزارة الى الفرس، ولكن عدداً كبيراً من الولاة

---

(١) انظر فلهاوزن ص ٥٥٦، الطبري ج ٩ ص ٩٨، ص ١٥٣، ص ١٦٧.

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٠٦.

(٣) المسعودي ـ مروج الذهب طبعة باريس ج ٨ ص ٢٩٢.

(٤) Cambridge Medieval History Vol. II p. 364

(٥) فلهاوزن ص ٥٥٧

والقواد كانوا عرباً في العصر العباسي الأول. فكان أكثر الولاة في خلافة أبي العباس والمنصور من العائلة المالكة، وكثيراً ما تنافس كبار الموظفين من العرب والفرس في البلاط وفي الولايات. وكان الجيش العباسي يتألف من فرق عربية وخراسانية.

وظلت اللغة العربية لغة السياسة والثقافة والأدب. كما بقي الناس ينزعون الى الفخر بالنسب العربي وبالولاء العربي. فأبو مسلم الخراساني انتحل لنفسه نسباً عربياً والشاعر والبة بن الحباب كان يدعي النسب إلى العرب، واسحق الموصلي (مطرب الرشيد) ذهب الى خازم بن خزيمة ليتشرف بالولاء له. ولكننا نرى إلى جانب هذه النزعة، نزعة فارسية تفخر بشرفها علانية كما في قول بشار بن برد:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم	مولى العريب فخذ بفضلك فافخر
مولاك أكرم من تميم كلها	أهل الفعال ومن قريش المشعر[1]

فسلطان العرب لم ينته بسقوط الأمويين، وإن زالت سيادتهم على العناصر المختلفة في الدولة، إذ فقدت القبائل العربية امتيازاتها، وزال الفرق بين العرب وبين المسلمين من غير العرب[2]. فكانت دولة بني العباس أممية إسلامية بينما كانت دولة بني أمية عربية، فبعد أن كان استخدام الموالي في الوظائف نادراً، أصبح في الدولة العباسية أمراً طبيعياً. ويقول المسعودي عن المنصور «إنه أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب فامتثلت ذلك الخلفاء من بعده»[3].

ولكن العباسيين اختصوا بالخراسانيين من بين عناصر المملكة وأطلقوا عليهم اسم الشيعة والأنصار والأبناء (أبناء الدولة)، ومنهم كونوا زهرة جيوشهم في العصر العباسي الأول[4].

٢ ـ ويتميز العهد الجديد بعلاقته بالدين. فادعى العباسيون أنهم يريدون إحياء السنة وإعادة حكم العدل، وإرجاع الخلافة الحقة بدل الملك الذي أقامه الأمويون فارتدى خلفاؤهم البردة (كرمز لسلطتهم الدينية) في المناسبات الخاصة كصلاة الجمعة والعيدين، وأحاطوا أنفسهم بالفقهاء واستشاروهم في مشاكل الدولة[5]. وهكذا اتحد الدين والسياسة، وكانت غاية العباسيين الاستفادة من الدين لتثبيت مركزهم السياسي[6]. ويقول الفخري: «إن هذه الدولة ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان أخيار الناس وصلحاؤهم

---

(١) ضحى الإسلام ج ١، ص ٢٩

(٢) فلهاوزن ص ٥٥٧.

(٣) المسعودي طبعة باريس ج ٨ ص ٢٩١ ـ ٢.

(٤) انظر فلهاوزن ص ٥٥٨.

(٥) T. Arnold-the caliphate (oxford 1929) P. 89-91.

(٦) فلهاوزن ص ٥٦٢.

يطيعونها تديناً والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة»[1].

واستغل العباسيون دعوتهم المنظمة لتقوية مركزهم ولجلب الناس إليهم، فادعوا بأن السلطة ستبقى في أيديهم، ولن تخرج منهم حتى يسلموها الى عيسى بن مريم[2]، وإن نظام العالم سيختل إذا ذهبت خلافتهم[3].

ولكن المثل الأعلى للمساواة والعدل ظل وهماً، إذ لم يحقق العباسيون وعودهم، فاستمر العسف والجور، واستمرت الثورات. ففي سنة ١٣٣هـ احتج شريك بن شيخ المهري الثائر ببخارى ضد مظالم العباسيين قائلاً «ما على هذا اتبعنا آل محمد، على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق» وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفاً[4]. وقال أبو العطار الشاعر:

يا ليت جور بني مروان عاد لنا ... يا ليت عدل بني العباس في النار[5]

واعتمد العباسيون على القوة أكثر من الأمويين في تنفيذ رغباتهم وسياستهم، وكان أبو العباس أول من أشار إلى هذا الاتجاه في خطبته الافتتاحية[6]. وصار للجلاد مكاناً معلوماً في البلاط بجانب العرش ليزيد من سطوة الخليفة. ويعتقد ڤلهاوزن أن العباسيين اقتبسوا وظيفة الجلاد من الفرس الذين كان لملوكهم حق الحياة والموت على الرعية[7].

قلنا إن العباسيين اعتمدوا على الدين وقربوا الموالي ولكنهم اخفقوا كما أخفق الأمويون من قبلهم في خلق وحدة متجانسة من امبراطوريتهم[8]. وقد يعزى بعض فشلهم هذا إلى موقف الموالي الذين لم يكن تذمرهم وطلبهم للمساواة إلا لرغبتهم في التخلص من حكم الأمويين وللتحرر من سيادة العرب التي كانت تتمثل في الدين واللغة والأسرة الحاكمة زمن العباسيين ـ لا رغبة في المساواة نفسها.

٣ ـ وتغيرت نظرية الحكم في العصر العباسي. فبعد أن كان الخليفة الأموي أشبه برئيس قبيلة يستمد سلطانه من رضى رؤساء القبائل ويستشيرهم في الأمور ويحاول استرضاءهم، أصبحت السلطة عند العباسيين مقدسة ومستمدة من الله تعالى. فخطب المنصور قائلاً: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه. فارغبوا الى الله

---

(١) الفخري ص ١٠١.
(٢) الأربلي ـ مختصر سير الملوك (١٨٨٥) ص ٤٠.
(٣) انظر T. Arnold, O. C. p. 81-2
(٤) الطبري ج ٩ ص ١٤٨.
(٥) الأغاني ج ١٦ ص ٨٤
(٦) الأربلي ص ٤٠.
(٧) فلهاوزن ص ٥٦٢.
(٨) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «بنو أمية».

وسلوه.. أن يوفقني للرشاد والصواب وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان اليكم..»[١].

وصار الخليفة خليفة الله على الأرض، فيذكر المسعودي من قول عبدالله بن عمرو بن عتبة يعزي المهدي «ولا مصيبة أعظم من أمام والد، ولا عقبى أجل من خلافة الله على أولياء الله»[٢].

وبينما كان الأمويون محاطين بارستقراطية عربية لها مركز ممتاز، أحاط العباسيون أنفسهم بالخراسانيين وغيرهم من صنائعهم، وهم أدوات بأيدي الخلفاء. وإذا استثنينا الهاشميين لم يتبق للنسب أهمية للتقدم في الدولة، بل كان مركز الرجل وأهميته تتوقف على تشريف الخليفة له. فحلت جماعات من الموظفين محل الأرستقراطية العربية وقسمت إلى طبقات يسيطر بعضها على بعض وكان على رأسها الوزير[٣].

٥ ـ ويرى الأستاذ ليفي ديللاڤيدا Levi della Vida «أن النظام الاداري الذي جرى عليه العباسيون هو في جوهره نظام الأمويين»[٤] واستمرت النظم الأموية في الضرائب والادارة المحلية والجيش والدواوين في العهد العباسي.

إلا أن النظام الاداري الجديد لم يكن قائماً على أساس التفريق في الجنس أو على أساس التنافر بين طبقات الأمة المختلفة فلم تكن هناك طبقة المحاربين العرب ذات الامتيازات الكثيرة من جهة وطبقة المزارعين التي تشتغل لفائدة المحاربين من الجهة الأخرى كما كان في زمن الأمويين، بل أصبح الدين أساس الادارة واعتبر مرجعاً لتحديد العلاقات بين الشعب والحكومة.

ثم إن الادارة العباسية اتخذت شكلاً يختلف عن الادارة الأموية إذ استندت إلى الوزارة وهي مؤسسة أدخلها العباسيون، فظهرت طبقة الكتاب ولعبت دوراً يعدل دور أرباب السيوف أو قد يفوقه في تسيير دفة الدولة.

واهتم العباسيون بالتنظيمين الاداري والمالي ولا ريب أن ظروفهم ساعدتهم على ذلك.

٦ ـ أما من الوجهة الثقافية فقد كان العصر العباسي متمماً للعصر الأموي إذ كان العصر الأموي عصر انتقال مثل فيه القديم الى جانب الجديد. فبالاضافة الى وجود العادات البدوية والشعر العربي والدراسات الدينية، نرى بدء تسرب عادات أجنبية وأفكار مسيحية ويونانية في النواحي الدينية والعلمية.

فقد أخذ العرب بعض ضروب الغناء والموسيقى عن الفرس، واقتبس البلاط الأموي في عهده الأخير بعض تقاليد البلاط الساساني في مجالسه كعادة جلوس الخلفاء خلف ستارة

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٧٠

(٢) المسعودي ج ٣ ص ١٣٩.

(٣) فلهاوزن ص ٥٥٩ ـ ٥٦١.

(٤) دائرة المعارف، مادة «بنو امية».

في مجالس الغناء[١]. كما أنه تأثر بالبيزنطيين. وفي العصر الأموي بدأت حركة التأليف، إذ بـدأ جمع الشعـر الجاهلي، وظهـرت بوادر حـركة تـدوين التاريـخ[٢]. ونشأت الدراسـات الفقهية[٣].

وترجمت بعض الكتب، ولعل خالد بن يزيد بن معاوية أول من بدأ بالترجمة إذ أمر أن تترجم له بعض الكتب من اليونانية والقبطية الى العربية، وكتب هذا الأمير بضع رسائل في الكيمياء[٤]. وفي خلافة عمر بن عبد العزيز ترجم مـاسـرجويه بعض الكتب السريانية، كما انتقل مركز الدراسات اليونانية من الاسكندرية الى حران وانطاكية فسهـل انتشارهـا بين المسلمين. وترجم سالم بن جبلة كاتب هشام بعض كتب أرسطو، كما ترجم ابنه جبلة عدة كتب من الفارسية الى العربية منها كتاب في تاريخ الفرس من بدء ملكهم الى انتهائه ترجمه بأمر الخليفة هشام في سنة ١١٣ هـ[٥].

ولم تكن حركة الترجمة في العصر الأموي منظمة بل كانت فـردية ولكن مـا إن جاء العصر العباسي حتى لقيت من تشجيع الخلفاء ورجال الدولة ومن تطور الزمن ما ساعدها على النضوج والتقدم. واستمرت بعض تقاليد الحياة البدوية إذ وجدت الأسواق (كما كانت قبلاً) فكانت مجمعاً لأهل العلم والأدب ومحلات لتبادل السلع كما في المربد[٦].

٧ ـ وتغيرت وضعية بعض الأحزاب، إذ انكمشت الحروب القبلية التي كانت متأصلة بين القبائل في العصر الأموي وانحصرت في الجزيرة العربية وسورية وحمل نفوذ الموالي العرب على الشعور بالوحدة، فبينما حاولت الشعـوبية أن تحـط من شأن العـرب جابهها الكتاب، فأثبت الجاحظ وحدة العرب[٧]. وذهب بديع الزمان الهمداني والثعالبي إلى أنها خير أمة أخرجت للناس، واستمرت الخصـومة في العصـر العباسي الأول بين العـرب والفرس واتخذت أشكالاً شتى أدبية ودينية وسياسية.

ثم تغيرت وضعية الأحزاب المتخاصمة على الخلافة، فبعد أن كان النزاع بين أمية وهاشم أصبح بين بني هاشم أنفسهم، إذ خاب ظن العلويين بحسن نوايا العبـاسيين بعد استئثـار هؤلاء بـالسلطة فسعوا لقلب الخـلافة العبـاسية، ونجحـوا فعلاً في إقـامة دولة الأدارسة، والدولة الفاطمية التي كانت أخطر أعداء العباسيين بين القرنين العاشر والثاني عشر للميلاد.

---

(١) Khuda Bukhsh- Islamic Civilization, vol. I. (calcutta) 1929 p. 89-91.

(٢) علي حسن عبد القادر: نظرة عامة في تطور الفقه الإسلامي (القاهرة ١٩٤٢) ص ١١٣.

(٣) شرحه ص ١٠٠ وبعدها.

(٤) الفهرست لإبن النديم (القاهرة ١٣٤٨) ص ٤٩٧ ـ ٨.

(٥) انظر: Von Krener- Islamic civilization Vol I.P. 286-8

(٦) انظر أسواق العرب ص ٣٥٦ وما بعدها لسعيد الأفغاني. دمشق ١٩٣٧.

(٧) انظر: الجاحظ: مناقب الترك ص ٦ ـ ٧.

كما أن العباسيين نكلوا ببعض العلويين تنكيلاً لم يسبق له مثيل. فيروى عن محمد ذي النفس الزكية أنه قال: «لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا، فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم، وإن الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم، ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر.»(١) أما حزب الخوارج فقد ضعف وقلت أهميته.

٨ ـ وجعل العباسيون عاصمتهم في العراق فكان ذلك رمزاً لنجاح العراق في نضاله السياسي مع الشام طيلة العصر الأموي.

كما أن نقل العاصمة الى العراق أدى الى أن تسود الثقافة الفارسية والسريانية والعادات الفارسية في الدولة العباسية. وقد ظلت الثقافة الفارسية عاملاً مهماً في الدولة العباسية حتى بعد زوال نفوذ الفرس السياسي.

ولكن هناك مبالغات كثيرة عن الدور الذي لعبه الفرس في الثقافة العباسية وهي ناتجة عن محاولات الشعوبيين في أثناء خصومتهم الطويلة مع العرب أن ينسبوا كل أنظمة العباسيين وثقافتهم الى الفرس. ولكنا لو درسنا الأنظمة الساسانية(٢) لتبين لنا أنها كانت أبسط مما كان عند العباسيين، كما ان كثيراً من الأنظمة العباسية لم يكن يعرفها الساسانيون. فلم يكن الفرس مثلاً يميزون بين كلمتي «جزية» «وخراج» ولم يعرفوا نظام «الحسبة»، وتطور نظام البريد عند المسلمين فصار يقوم بالتجسس للخليفة على العمال والرعية بالاضافة إلى نقل الأخبار الرسمية، وهذا أمر لم يعرفه الفرس، وهناك أمثلة كثيرة لا محل لذكرها.

وأثر وقوع العراق على طرق التجارة الهامة في الحضارة العباسية إذ شجع حركة التجارة فأصبح المجتمع تجارياً زراعياً بعد أن كان زراعياً في العصر الأموي. وقد انتبه أبو جعفر المنصور الى أهمية التجارة في اختياره لموقع بغداد(٣).

وقد أدى بعد العراق عن البحر، وقلة خطر البيزنطيين البحري على مركز الدولة الى اهمال العباسيين للأسطول، فتقلص النفوذ البحري للمسلمين.

وأهمل العباسيون الولايات الغربية بصورة عامة واهتموا بالقسم الشرقي من الأمبراطورية التي ورثوها، فساعد ذلك على انفصال الولايات الغربية النائية كمراكش وتونس.

٩ ـ ولأول مرة في تاريخ الاسلام نرى أكثر من دولة واحدة تحكم أراضيه، إذ انفصلت الأندلس ونشأت فيها دولة مستقلة عن العباسيين.

---

(١) الاغاني ج ١٠ ص ١٠٦.

(٢) خير من كتب في هذا الموضوع هو:

Christensen- L'Iran Sous les Sassanides

(٣) اليعقوبي ـ البلدان (النجف ١٩٣٩) ص ٩

الفصل الثالث

أبو العباس

ربيع الأول ١٣٢هـ ـ ذو الحجة ١٣٦ هـ

لست ممن يستحسن جعل التاريخ مجموعة دراسات لحياة الخلفاء المختلفين، بل أرى أن تلاحظ التيارات والإتجاهات العامة التي تسيطر على مجرى الحوادث مع مراعاة الأدوار التي يلعبها الوزراء والخلفاء في الفترات المختلفة. ولكن إرتباك المعلومات وتضارب المصادر في التاريخ الإسلامي، وقلة البحوث الحديثة تدفعني إلى أن أتبع الطريقة المعهودة من بحث أعمال وسياسة كل خليفة على إنفراد دون أن أغفل الإشارة إلى بعض التيارات الخفية التي تؤثر في وضع الدولة وسياستها.

ولنرجع الى ما وصلنا اليه في بحث الدعوة ليتضح لنا سير الحوادث.

١ ـ اكتشف مروان بن محمد إسم الإمام المنظم للدعوة وهو إبراهيم بن محمد بن علي فأمر بالقاء القبض عليه، ولما عرف إبراهيم ذلك أدرك أن نهايته قد قربت فأوصى (سنة ١٣١ هـ) إلى أخيه أبي العباس، «وأمر أهل بيته أن يسمعوا له ويطيعوا» وطلب إليه أن يذهب بأهله خفية الى الكوفة[١]. فسار أبو العباس مع زمرة من أهله وأقاربه إلى الكوفة، وأخبروا أبا سلمة الخلال بقدومهم، فأنكر ذلك وقال «خاطروا بأنفسهم وعجلوا» وأراد أن يبقيهم خارج الكوفة، ولكنهم ذكروه بخطر ذلك، فسمح لهم بدخول تلك المدينة «على كره منه»[٢] في المحرم سنة ١٣٢هـ[٣]. ثم أنزلهم في دار الوليد بن سعد الجمال مولى بني هاشم في بني أود[٤]. «وكتم أمرهم نحواً من شهرين عن جميع القواد والشيعة»[٥].

٢ ـ وصارت السيادة في الكوفة للشيعة العباسية، إذ دخل الحسن وحميد إبنا

---

(١) الجهشياري ص ٨٥، الطبري ج ٩ ص ١٢٢.

(٢) الجهشياري ص ٨٥ ـ ٦.

(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ٨٢.

(٤) الدينوري ص ٣٥٨، اليعقوبي ج ٣ ص ٨٢.

(٥) الجهشياري ص ٨٦، الطبري ج ٩ ص ١٢٤ يجعل المدة «نحواً من اربعين ليلة».

قحطبة على رأس الجيش العباسي مدينة الكوفة يوم ١١ محرم سنة ١٣٢ بعد هزيمة إبن هبيرة و «أظهروا أبا سلمة وسلموا إليه الرياسة وسموه وزير آل محمد ودبر الأمور»(١).

ثم عسكر أبو سلمة بحمام أعين، على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة(٢) «وفرق عماله على السهل والجبل، وصارت الدواوين بحضرته، والكتب ترد منه وتنفذ عليه»(٣). ولكن أبا سلمة حاول نقل الخلافة إلى العلويين. ومع أن المصادر المختلفة تذكر هذه المحاولة الا انها تختلف في تفسيرها. فيبين المسعودي أنه «لما قتل ابراهيم الامام خاف أبو سلمة انتقاض الأمر وفساده»(٤) لذلك أراد البيعة لعلوي. ولكن هذا التفسير مردود لأن مركز العباسيين تحسن بانتصاراتهم العسكرية وتراءى النصر أمامهم. ويقول الفخري «لما سبر أبو سلمة أحوال بني العباس عزم على العدول عنهم إلى بني علي»(٥). وهذا تفسير إعتذاري لأن الحكم لم يصبح بيد العباسيين بعد. ويذكر الطبري أنه لما ألح أحد القواد (أبو الجهم) على أبي سلمة بإظهار أبي العباس أجاب «ليس هذا وقت خروجه لأن واسطاً لم تفتح بعد»(٦) ولكن أبا الجهم لاحظ سوء نية الخلال ولم يقتنع بهذا العذر.

وأما المقدسي فيرى أن الخلال كتم أمر العباسيين حين قدموا إلى الكوفة وحاول نقل الخلافة إلى العلويين وقال «ينبغي أن يتربصوا فإن الناس بايعوا إبراهيم وقد مات ولعله يحدث بعده أمر، **وأراد أن يصرف الأمر إلى ولد علي**»(٧). ويتفق الجهشياري واليعقوبي والطبري مع المقدسي (في قوله إن الخلال أراد نقل الخلافة إلى العلويين عندما بلغته وفاة إبراهيم) فيقول الجهشياري: «وكان لما صح عنده موت إبراهيم الإمام لقي رجالاً من شيعة علي (ر) فناظرهم في نقل الأمر إلى ولد علي»(٨) وكان أول ما عمله بعد أن سلم إليه إبنا قحطبة الرياسة أن «أظهر الإمامة الهاشمية ولم يسم الخليفة»(٩) مع أن العباسيين لم يكونوا في خطر آنذاك. ويذهب اليعقوبي إلى أنه أخفى أبا العباس وأهل بيته لأنه «دبر أن يصير الأمر إلى بني علي»(١٠) بينما يقول الطبري «وأراد فيما ذكر.. تحويل الأمر إلى آل أبي

---

(١) الجهشياري ص ٨٤.
(٢) الطبري ج ٩ ص ١٢٢.
(٣) الجهشياري ص ٨٦.
(٤) المسعودي ج ٣ ص ١٨٣.
(٥) الفخري ص ١١٢.
(٦) الطبري ج ٩ ص ١٢٢.
(٧) المقدسي ـ البدء والتاريخ ج ٦ ص ٦٧.
(٨) الجهشياري ص ٨٦.
(٩) شرحه ص ٨٤، اليعقوبي ج ٣ ص ٨٢.
(١٠) اليعقوبي ج ٣ ص ٨١.

طالـب»[١]. وأخيراً يقول إبن قتيبة «وكان أبو سلمة يريد صرف الخلافة إلى ولد علي»[٢].

إذن أراد الخلال أن يبايع للعلويين، وكان مدفوعاً بميوله في ذلك. فالكوفة كانت علوية والخلال يميل لبني علي. ولما كانت غاية الموالي الأولى التخلص من الأمويين إنضم الخلال إلى الدعوة العباسية المنظمة لهذا الغرض. ولكن إنتصار الجيوش العباسية ومقتل إبراهيم الإمام أفسح المجال له ليحقق ما كان يميل اليه حقيقة وخاصة وأن المدعو له لم يكن معروفاً عند الجمهور.

فكتب الخلال إلى ثلاثة من العلويين ليعقد الأمر لأحدهم، وهم الإمام جعفر بن محمد الصادق، وعبدالله بن الحسن وعمر الاشرف بن زين العابدين. فأحرق الصادق الكتاب، ورفض عمر الأشرف. أما عبدالله فقد «قبل الكتاب فحذره جعفر بن محمد فلم يحذر»[٣]، ويذكر اليعقوبي أنه قال «أنا شيخ كبير وإبني محمد أولى بهذا الأمر وأرسل إلى جماعة بني أبيه وقال بايعوا لإبني محمد»[٤].

وفشلت مساعي الخلال إذ شك زعماء العلويين به وبالشيعة العباسية فيذكر الجهشياري أن الإمام الصادق نصح عبدالله أن لا يقبل دعوة أبي سلمة «وأعلمه أن أهل خراسان ليسوا بشيعة»[٥]. ويروي المسعودي ما حدث بصورة أتم، فيقول إن الصادق قال لعبدالله: «يا أبا محمد، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أأنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟ أأنت أمرته بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا إلى العراق أأنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم وهل تعرف منهم أحداً؟»[٦].

ومن الجهة الأخرى ارتاب الخراسانيون من تصرفات أبي سلمة، وتكلموا وقالوا «يا أبا سلمة مالك دعونا وما أنت لنا بإمام»[٧]. ثم إكتشف أحدهم مخبأ العباسيين فأخبر بعض القواد الخراسانيين فجاءوا، وعلى رأسهم أبو الجهم «إلى أبي العباس ومعهم أصحابهم في السلاح وبايعوه» وهكذا جابهوا الخلال بحقيقة واقعة فبايع واعتذر[٨]. وكانت مدة إنفراد أبي سلمة بالأمور إلى أن بويع أبو العباس شهرين ونصفاً[٩].

٣ ـ وفي اليوم التالي خرج أبو العباس إلى المسجد تصحبه ثلة من الجند من ألفي

(١) الطبري ج ٩ ص ١٢٤.
(٢) إبن قتيبة ج ٢ ص ٢٢٦.
(٣) الجهشياري ص ٨٦، انظر الفخري ص ١١١ ـ ٢
(٤) اليعقوبي ج ٣ ص ٨٦.
(٥) الجهشياري ص ٨.
(٦) المسعودي ج ٢ ص ١٨٤.
(٧) الجهشياري ص ٨٦.
(٨) شرحه ص ٨٦، الطبري ج ٩ ص ١٢٥. انظر ايضاً المسعودي والمقدسي.
(٩) الجهشياري ص ٨٧ ومما يسترعى الإنتباه أن الدينوري يتجاهل القصة بكاملها. انظر ص ٣٦٨.

فارس إذ لم يكن واثقاً من تأييد الكوفيين(١). وهناك كانت البيعة العامة. وتضطرب المصادر في تعيين تاريخ البيعة. والمرجح أنها كانت في ربيع الأول سنة ١٣٢هـ(٢). ويجعلها اليعقوبي في «١٣ ربيع الأول المصادف تشرين الآخر من شهور العجم» ويرى الجهشياري أنها كانت يوم ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/ ١٣ كانون الأول سنة ٧٤٩م(٣).

وإعتلى أبو العباس المنبر، وجلس عمه داوود بن علي درجة دونه، فخطب الخليفة قائلاً: «الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة وشرّفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا، **وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له.. وخصنا برحم رسول الله** وقرابته.. وأنبتنا من شجرته.. **ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع** وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم فقال.. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً، وقال: **قل لا أسالكم عليه أجراً إلا المودة في القربى. فأعلمهم** جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا.. بنا هدى الناس بعد ضلالتهم ونصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم **وأظهر بنا الحق ودحض بنا الباطل** وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً.. فتمم الله ذلك منة ومنحة لمحمد ﷺ فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى فحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها.. ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه إنتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا **وتدارك بنا أمتنا وولي نصرنا.. ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض.**

«**يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا**.. أنتم الذين لم يتغيروا عن ذلك ولم يثنكم من ذلك تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا **وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا. وقد زدتكم في أعطياتكم** مائة درهم فاستعدوا، **فأنا السفاح المبيح والثائر المبير**»(٤).

ثم اشتد عليه الوعك فجلس، وخطب داوود بن علي فمما قاله: «**وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم** ولقد كانت أموركم ترمضنا.. ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تعالى وذمة رسول الله ص وذمة العباس (رح) أن

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٢٥ ـ ٦.

(٢) على روايات الجهشياري والطبري واليعقوبي. ويقول الدينوري إنها كانت في رجب، ويجعلها حال دخول ابني قحطبة الكوفة (ص ٣٦٨) ولذلك لا يؤخذ به. ويضعها المسعودي في ١٣ ربيع الآخر (التنبيه والإشراف. القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٩٢)، ويتفق معه الطبري في رواية ثانية (ج ٩ ص ١٢٣).

(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ٨٦، الجهشياري ص ٨٤ و ص ٨٦.

(٤) الطبري ج ٩ ص ١٢٥ ـ ٦، انظر الأربلي ص ٩٣ ـ ٤٠.

نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله (ص)» ثم قال: «يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا من أهل خراسان فأحيا بهم حقنا وأفلج بهم حجتنا وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون.. **وأدالكم على أهل الشام ونقل إليكم** السلطان وعز الإسلام»[1].

وهكذا بين العباسيون الأسس التي يستندون إليها، وأعلنوا للناس سياسة وعدوا بالسير عليها، فظل الناس يتطلعون إلى تحقيقها دون جدوى. ويلاحظ من مضمون الخطبتين ما يلي: (١) أن أبا العباس في خطابه هذا إفتخر بكونه «ثائراً» أي خارجاً على الظلم وقالباً للنظام السابق.

(٢) أن العباسيين قاموا بحق شرعي لهم جاءهم من قرابتهم من الرسول ولم يغفلوا الرعية بل فكروا في حقوقها المهضومة. وأن الله نصر المظلوم المستضعف بهم وفي ذلك إشارة إلى أهل العراق وخراسان.

(٣) وأنهم جاءوا لإحياء سنة الرسول ﷺ وسيعملون بالكتاب والسنة.

(٤) ومثلوا إنتصارهم كانتصار للعراقيين على أهل الشام، فاغروا أهل الكوفة بزيادة العطاء وبالوعود الخلابة كي يحصلوا على تأييدهم. ثم إن روح الدعاية قوية في الخطبتين، حتى قال داوود بن علي «واعلموا أن هذا الأمر (أي الخلافة) فينا وليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم»[2].

٤ ـ بويع أبو العباس، وكانت مهمته شاقة، فمروان وجيوشه في الشام، وإبن هبيرة مع جيشه القوي في واسط، ومركزه ضعيف في الكوفة ووزيره الخلال لا يعتمد عليه. ولكن أبا العباس أظهر مقدرة فائقة ووضع أسس الدولة العباسية.

إهتم أبو العباس أولاً بالجبهة الشمالية، ولنفهم تسلسل الحوادث أرى أن نرجع إلى فتح نهاوند. فبعد أن خضعت هذه المدينة، أرسل قحطبة جيشاً بقيادة (أبي العون) أحد زعماء الأزد، وأمره أن يشغل الجيش الأموي الذي أرسله مروان بقيادة إبنه عبدالله، فانتصر أبو العون عند شهر زور وتراجع عبدالله، فقدم مروان لنجدة إبنه. فسارع أبو العباس بإرسال بقية جنوده في الكوفة لمساعدة أبي العون وأعطى القيادة العليا لعبدالله ابن علي.

وفي ١١ جمادى سنة ١٣٢هـ ـ ٢٥ كانون الثاني سنة ٧٥٠م إلتقى الجيشان على نهر الزاب الكبير ودارت معركة حاسمة إنتهت بانتصار العباسيين وكان عدد جيشهم ما

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٢٥ ـ ٦، الأربلي ص ٣٩ ـ ٤٠، أنظر اليعقوبي ـ ج ٣ ص ٨٧.

(٢) الأربلي ص ٤٠، الطبري ج ٩ ص ١٢٧.

يقارب الأربعين ألف جندي[١]، وربما كان الجيش الأموي ضعف هذا العدد[٢]. ولا تهمنا تفاصيل المعركة فإنها مذكورة في كتب التاريخ. أما أسباب هزيمة الأمويين، فهي ضعف معنويتهم وقوة معنوية الخراسانيين[٣]. ثم العصبية الهدامة في الجيش الأموي وتخاذله، في أثناء القتال. فيروي الطبري «وقال مروان لقضاعة إنزلوا فقالوا قل لبني سليم فلينزلوا، فأرسل إلى السكاسك أن احملوا فقالوا قل لبني عامر فليحملوا، فأرسل إلى السكون أن احملوا فقالوا قل لغطفان فليحملوا»[٤].

وحاول مروان تشجيع جنده فعرض المال أمامهم وما إن وقعت أبصارهم عليه حتى كفوا عن القتال وتوجهوا صوبه فحاول صدهم وأرسل إبنه لإرجاعهم فظنوا أنها الهزيمة وهربوا. ولعل مروان أخطأ خطأة أخرى حين عبر النهر إلى العباسيين فقطع خط رجعته وغرق قسم كبير من جيشه.

وعلينا أن نتذكر أن الحروب أنهكت جيش مروان وهدت قواه هذا بالإضافة إلى أن هجوم جيش بني العباس كان خاطفاً وفجائياً فلم يكن في وسع مروان أن ينظم جنده ويشد قواه قبل أن ينزل إلى الميدان.

وظل مروان يهرب من مدينة إلى أخرى بين الجزيرة والشام ومصر حتى قتل في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٢هـ في قرية بوصير[٥].

ولكن معركة الزاب لم تضع حداً لنضال الأمويين، بل ثار كثير من أنصارهم في حمص وقنسرين والجزيرة وحوران[٦]. ونلاحظ ظاهرة جديدة في هذه الثورات إذ أنها اتخذت البياض شعاراً لها (بالمقابلة للون الأسود شعار العباسيين). فأخمد أبو العباس هذه الحركات بمهارة سياسية وبمناورات سلمية أحياناً حيث استمال زعماءهم بالأموال والوعود.

وفي الجنوب كان الحسن بن قحطبة يحاصر إبن هبيرة في واسط، فأرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر للإشراف على الحصار، وكان لإرساله أهمية خاصة إذ أن حضور رجل من آل البيت العباسي يقوي معنوية الجيش[٧]. واستمر حصار واسط أحد عشر شهراً[٨]. وقد

---

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١١٦ وص ١٣٠.

(٢) يذكر الطبري روايتين على عدد الجيش الأموي، الأولى (ج ٩ ص ١٣٣ ـ ٤) تجعله مائة وعشرين ألفاً والثانية تجعله إثني عشر ألفاً (ج ٩ ص ١٣٥).

(٣) انظر الفخري ص ١٠٦.

(٤) الطبري ج ٩ ص ١٣١.

(٥) انظر تفاصيل الواقعة في الفخري ص ١٠٦ ـ ١٠٧، اليعقوبي ج ٣ ص ٨٣ ـ ٤، الطبري ج ٩ ص ١٣٠ ـ ١٣٤ المسعودي ج ٣ ص ١٧٥ ـ ٦.

(٦) انظر اليعقوبي ج ٣ ص ٩٢ ـ ٥.

(٧) الدينوري ص ٣٦٨، الطبري ج ٩ ص ١٤٣ ـ ٤.

(٨) الطبري ج ٩ ص ١٤٤.

ساعدت منعة حصون واسط ومهارة يزيد بن هبيرة على إطالته.

وحاول العباسيون أن يملأوا السفن حطباً، ثم يضرمونها بالنار ويسيرونها إلى المدينة لتحرق ما مرت به، فكان إبن هبيرة يهيء حراقات فيها كلاليب تجر تلك السفن(١).

وعلق إبن هبيرة آمالاً على قيام ثورات في أنحاء المملكة وخابر العلويين بعد مقتل مروان ودعاهم إلى المطالبة بالخلافة(٢) ليزيد في مشاكل العباسيين وليثير الفوضى من جهة، وليدفع اليمانية الذين كانوا في واسط إلى التضامن معه لمقاومة الحصار العباسي من جهة أخرى(٣). ولكن أبا جعفر إنتبه لهذا الخطر، ولخوفه من «أن يثور اليمانية مع إبن هبيرة» كتب إليهم قائلاً «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم»(٤). بينما يذكر الطبري أن أبا العباس «كاتب.. اليمانية من أصحاب إبن هبيرة وأطمعهم»(٥).

وفرق أبو جعفر صفوف إبن هبيرة فكتب إلى قواده واشراف من معه من العرب «يستميلهم بالأطماع وينبههم على حظوظهم ويعرفهم إنصرام دولة بني أمية فأجابوه جميعاً وكان زياد بن صالح الحارثي ـ عامل إبن هبيرة على الكوفة سابقاً وأخص أصحابه عنده ـ أول من أجاب دعوة أبي جعفر»(٦). ودب التخاذل في جيش إبن هبيرة بتأثير الدسائس وطول الحصار «فقالت اليمانية.. لا والله لا نقاتل على دعوة بني أمية لسوء رأيهم فينا وبغضهم لنا، وقالت القيسية لا والله لا نقاتل حتى تقاتل اليمانية»(٧). فلم يكن يقاتل مع إبن هبيرة غير «الصعاليك والفتيان»(٨).

وأخيرا طلب إبن هبيرة الصلح وكتب له كتاب الأمان كما اشترط بعد مفاوضات طويلة(٩). ولكن العهد لم يحفظ وقتل إبن هبيرة، ويعزو اليعقوبي ذلك إلى أن أبا العباس اطلع على كتب إبن هبيرة إلى محمد بن عبدالله بن الحسن يدعوه إلى الخلافة، فقال «نقض عهده وأحدث ما أحل به دمه»(١٠) ويبين الطبري وإبن قتيبة (يوافقهما اليعقوبي) أن قتله كان بإشارة من أبي مسلم الذي كتب إلى الخليفة «لا والله لا يصلح طريق فيه إبن هبيرة»(١١) وأن أبا جعفر تردد في قتله فألح عليه أبو العباس «وكثرت كتبه بذلك»(١٢) حتى

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٤٤.

(٢) كتب إبن هبيرة إلى محمد النفس الزكية (إبن عبدالله بن الحسن) فأبطأ جوابه. الطبري ج ٩ ص ١٤٤.

(٣) انظر اليعقوبي ج ٣ ص ٩٠، إبن قتيبة ج ٢ ص ٢٤١.

(٤) ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٤١.

(٥) الطبري ج ٩ ص ١٤٤.

(٦) الدينوري ص ٣٦٨.

(٧) ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٤٠.

(٨) الطبري ج٩ ص ١٤٤.

(٩) اليعقوبي ج ٣ ص ٩٠، انظر نص كتاب الأمان في إبن قتيبة ج ٢ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٦.

(١٠) اليعقوبي ج ٣ ص ٩٠

(١١) الطبري ج ٩ ص ١٤٤، ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٤٧.

(١٢) اليعقوبي ج ٣ ص ٩١.

كتب لأخيه «والله لتقتلنه أو لأرسلن من يخرجه من حجرتك ثم يتـولى قتله»[1]. وطبيعي أن يكون وجود إبن هبيرة خطراً على الدولة الجديدة[2].

٥ ـ وتخلص أبو العباس من خطر الأمويين العسكري فكان عليه أن يتخلص من بقية منافسيه. فطارد من بقي من بني أمية وكـان ساعـداه في ذلك عبدالله بن علي في الشـام وداوود بن علي في الحجاز، فقتل عبدالله كل من ظفر به منهم في دمشق وإرتكب أنواع الفظائع حتى نبش القبور وقتل حوالي ثمانين من رؤساء بني أمية عند نهر أبي فطرس (بين فلسطين والأردن) بعد أن وعدهم بالعفو والصلات[3].

ثم تخلص أبـو العبـاس من الخـلال، ويتفق أكثـر المـؤرخين وأوثقهم كـالطبـري والجهشياري والفخري واليعقوبي وإبن قتيبة على أن أبا العباس كـان صاحب فكـرة قتله بينما كان أبو مسلم المنفذ لهـا. وكانت محـاولة أبي سلمة في نقـل الخلافـة إلى ولد علي السبب الأول لمصرعه.

وأراد أبـو العباس أن يقتـل الخلال، فنصحـه أصحابه أن يستشير أبـا مسلم لئـلا يستوحش ويرتاب،[4] فكتب إليه أبو العباس عن خيانة أبي سلمة، فأجاب أبو مسلم «إن كان رابك من ريب فاضرب عنقه»[5] ولكن الخليفة لم يفعل ذلك بإشارة من أصحابه «لئلا يوحش أبا مسلم أو يوجد لأهل خراسان حجة»[6] وطلب إلى أبي مسلم أن يرسل أحد رجاله لقتل الخلال ففعل[7].

وهناك رواية أخرى ترد في الدينوري والمسعودي وهي تبرىء الخليفة من قتل الخلال وتضع المسؤولية على أبي مسلم وتجعل من حسد هذا لمركز الخلال ومنافسته له سبباً في تنكيل الأخير به، فيقول الدينوري أن أبا مسلم لما سمع بأن الخليفة «ولى أبا سلمة جميع ما وراء بابه وجعله وزيره وأسند إليه جميع أموره، أرسل أحد قواده وأمره بقتل الخـلال»[8]

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٤٤ ـ ٥، ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٤٨.

(٢) انظر اليعقوبي ج ٣ ص ٩١ ويتضح أثر الوضـع السياسي على روايـة الدينوري وخلاصتها أن إبن هبيـرة طلب الأمان، فقال له المنصور «إن اردت أن أؤمنك على حكم امير المؤمنين فعلت «فرضى ابن هبيرة وسلم». ثم كتب ابو جعفر يستعلم رأي أخيه، «فكتب ابو العباس لا حكم لابن هبيرة إلا السيف» وعند ذاك امر ابو جعفر بقتله. انظر ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢

(٣) انظر اليعقوبي ج ٣ ص ٩١ ـ ٣، المقدسي ـ البدء والتاريخ ج ٦ ص ٧٢ ـ ٣، إبن قتيبة ج ٢ ص ٢٢٢ ـ ٣.

(٤) الجهشياري ص ٩٠، الفخري ١١٢، ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٣١.

(٥) ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٣١، الطبري ج ٩ ص ١٤١.

(٦) اليعقوبي ج ٣ ص ٨٩.

(٧) انظر الطبرى ج ٩ ص ١٤٠ ـ ١ حيث يروى أن ابا العباس خاف أن يكون تصرف الخلال عن ممالأة أبي مسلم، فأرسل أبا جعفر إلى خراسان لأخذ البيعة ولمعرفة راي أبي مسلم «فإن كان عن رايه اخذنا لانفسنا وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا».

(٨) الدينوري ص ٣٦٨.

ويقول المسعودي «لما سمع أبو مسلم بخيانة الخلال أشار على الخليفة بقتله لأنه «نكث وغير وبدل»، ولكن الخليفة رفض، فطلب أبو مسلم من داوود بن علي ومن أبي جعفر حثه على قتله، فرفض أبو العباس قائلاً «ما كنت لأفسد كثير إحسانه وعظيم بلائه.. بزلة كانت منه» فلما سمع أبو مسلم بذلك «خاف من ناحية أبي سلمة أن يقصده بالمكروه، فوجه جماعة من ثقات أصحابه في أعمال الحيلة في قتل أبي سلمة»(١) ولكن الدينوري غير دقيق في روايته لأنه تجاهل خيانة الخلال، وإن صحت رواية المسعودي فهي تدل على دهاء الخليفة لا على عدم رغبته في قتل الخلال، ولكني أرى فيها أثر الصنعة، بالإضافة إلى أنها تناقض الروايات الأخرى.

ويجب أن لا تنسى أن مركز الخلال كان خطراً على الخليفة، لأنه لم يكن مديناً به لأبي العباس. فيقول إبن قتيبة «وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين»،(٢) بينما يذكر الدينوري أنه «كان ينفذ الأمور من غير مؤامرة»(٣)، فكان لزاماً على الخليفة أن يقتله ليتقي شره.

أما علاقة الخليفة بأبي مسلم فهي أن أبا العباس كان يخاف سلطانه وحب أهل خراسان له، لأنه لم يكن والياً فحسب وإنما كان زعيماً دينياً ومنقذاً بنظر بعض الخراسانيين(٤) وكان أبو مسلم فوق هذا يتدخل في شؤون الدولة، إذ كان له ممثل في البلاط إسمه أبو الجهم وكان الخليفة لا يعدو رأيه. يقول الطبري «وكان أبو الجهم عيناً لأبي مسلم على أبي العباس»(٥) ويضيف ابن قتيبة «وكان أبو الجهم يكتب إليه (إلى أبي مسلم) بالأخبار، وكان أبو العباس لا يقطع أمراً دون رأي أبي مسلم»(٦). ويؤيدهما اليعقوبي إذ يقول «وكان الغالب عليه (أبي العباس) أبو الجهم بن عطية الباهلي»(٧).

ولم يبق لأبي العباس إلا اتباع الحيلة للتخلص من أبي مسلم، فحاول أن يستعمل زياد بن صالح والي بلاد ما وراء النهر للقيام ضده، «وأمره إن رأى فرصة أن يثب على أبي مسلم فيقتله»(٨). وثار زياد (سنة ١٣٥هـ/ ٧٥٢ ـ ٣م) على أبي مسلم وأظهر «كتاباً من أبي العباس بولايته على خراسان»(٩). ولكن أبا مسلم قضى على ثورته بسرعة.

---

(١) المسعودي ج ٣ ص ١٩٩.
(٢) إبن قتيبة ج ٢ ص ٢٣١.
(٣) الدينوري ص ٣٦٨.
(٤) Barthold- Trukestan, p. 196.
(٥) الطبري ج ٩ ص ١٤٤.
(٦) ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٤٧.
(٧) اليعقوبي ج ٣ ص ٩٧.
(٨) الطبري ج ٩ ص ١٥٢.
(٩) المقدسي ج ٦ ص ٧٥.

وبقي أبو مسلم يتدخل في كل شيء حتى «ثقلت وطأته.. على أبي العباس وكثر خلافه إياه ورده لأمره»[١]. كما أن الخليفة «شكا إلى خالد (البرمكي)... إهتمامه بهيبة الجند أبا مسلم»، فأشار عليه خالد برأي ظاهره تقوية جيش أبي مسلم وباطنه تحطيم مركزه. وكان رأي خالد أن يأمر الخليفة أبا مسلم بعرض جيشه وإسقاط من لم يكن من أهل خراسان منهم، ففعل ذلك. فأسقط أبو مسلم بشراً كثيراً في يومين متتاليين ولما جلس في اليوم الثالث، قام إليه رجل فقال «علام تسقط الناس أيها الرجل منذ ثلاث؟ فقال اسقط من لم يكن من أهل خراسان. قال فابدأ بنفسك فإنك من أهل أصبهان وقد دخلت في أهل خراسان. فوثب أبو مسلم عن مجلسه وقال: هذا أمر أحكم بليل.. وفطن لما أريد به وبلغ الخبر أبا العباس فسر»[٢]. ولم يجرؤ أبو العباس على إتخاذ تدبير حاسم ضد أبي مسلم، فقد أشار عليه أبو جعفر سنة ١٣٢ ـ ٣هـ عند رجوعه من خراسان بقتل أبي مسلم وقال له «لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً، فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك، فلقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه ومثله لا يؤمن غدره ونكثه» فرفض أبو العباس حذراً من الخراسانيين «وقد أشرب قلوبهم حبه واتباع أوامره وإيثار طاعته»[٣]. ثم أشار عليه ثانية بقتله سنة ١٣٦هـ عندما جاء للحج، فرفض للسبب عينه[٤] وهكذا ترك أبو العباس إنجاز هذه المهمة الصعبة لأخيه.

٦ ـ الاداريات

ويقال أن أبا العباس إتخذ أبا سلمة الخلال وزيراً له، ولكن علينا أن نتذكر أن العباسيين لم يعرفوا آنئذ نظام الوزارة وسلطات الوزير ومناطق نفوذه بصورة واضحة. لذلك يجب أن لا نتصور أنه منذ تعيين الخلال تحددت سلطة الوزير وتعين مركزه وأعماله وإنما وضع الحجر الأساسي لهذه المؤسسة عند استيزار الخلال، ثم نمت وتدرجت حتى اتخذت شكلها الثابت في أواخر العصر العباسي الأول (كما سنرى). ويجدر بالذكر أن الخلال كان يسمى «وزير آل محمد» قبل بيعة أبي العباس وأن رجال الدعوة العباسية هم الذين أعطوه هذا اللقب[٥]، ولعلهم كانوا متأثرين بالتقاليد الفارسية. ولكني أرى أن منصب الخلال ووظائفه تقارب وظيفة عبد الحميد الكاتب كاتب آخر خلفاء بني أمية، ويؤيد هذا قول المسعودي «إستخارت بنو العباس تسمية الكاتب وزيراً» لوجود الآية «واجعل لي وزيراً من أهلي»[٦]. وإذن لم يحدث العباسيون تغييراً إدارياً جوهرياً بتسمية الخلال وزيراً، ولكن فكرة

(١) الجهشياري ص ٩٣.

(٢) الجهشياري ص ٩٤.

(٣) الدينوري ص ٢٧٣.

(٤) الطبري ج ٩ ص ١٥٤.

(٥) انظر الجهشياري ص ٨٤.

(٦) المسعودي ـ التنبيه والإشراف ص ٢٩٤.

الوزارة العباسية وإشتراك الفرس في السلطان الجديد أدى بمرور الزمن إلى تكون نظام الوزارة الحقيقي وإلى رسوخه كأساس للإدارة العباسية.

أما ولاة أبي العباس فكانوا من العائلة المالكة أو من كبار أنصار الدعوة فعين:

أبا جعفر	ـ على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان
داود بن علي	ـ على الحجاز واليمن واليمامة
عبدالله بن علي	ـ على الشام
سليمان بن علي	ـ على البصرة وتوابعها البحرين وعمان
إسماعيل بن علي	ـ على كور الأهواز
أبا مسلم الخراساني	ـ على خراسان
أبا العون	ـ على مصر وشمال إفريقية(١)

وجعل إلى خالد بن برمك ديوان الخراج وديوان الجند، فأدخل نظام الدفاتر بأن جعل سجلاتها في دفاتر بعد أن كانت في صحف متفرقة(٢).

ولما لم يكن أبو العباس مطمئناً من نوايا أهل الكوفة إهتم باختيار مدينة تكون مركزاً له فنزل في أول الأمر (سنة ١٣٢هـ) في الهاشمية قرب الكوفة، ثم انتقل إلى الحيرة ومنها إلى الأنبار سنة ١٣٤هـ(٣).

ويبين الدينوري أنه استطاب الأنبار «فابتنى بها مدينة بأعلى المدينة عظيمة لنفسه وجموعه وقسمها خططاً بين أصحابه من أهل خراسان وبنى لنفسه في وسطها قصراً عالياً.. وأقام بتلك المدينة طول خلافته»(٤). وتدعى هذه المدينة بالهاشمية(٥).

ونظم قضية العهد، ففي السنة ١٣٦هـ جعل أخاه أبا جعفر ولي عهده وبعده إبن أخيه عيسى بن موسى، فأعاد بذلك خطأة الأمويين ووضع سنة غير حسنة للعباسيين.

٧ ـ وفي عهد أبي العباس كانت الصين تتدخل في شؤون آسيا الوسطى وما وراء النهر، وقتلوا أمير الشاش لعدم ولائه لهم، فاستنجد إبنه بالعرب فأنجدوه. وفي تموز ٧٥١م (١٣٣هـ) هزم زياد بن صالح الجيش الصيني الذي كان يقوده كاوهسين شي Kao-Hsien-chih، ويقول المؤرخون العرب أن القتلى الصينيين كانوا بين ٤٥ و ٥٠ ألفاً وأن الاسرى كانوا بين ٢٠ و٢٥ ألفاً بينما يدعي الصينيون بأن عدد الجيش الصيني كان لا يزيد على ثلاثين ألفاً. وكان للمعركة أثر بعيد إذ أنها قررت بأن تسود الحضارة العربية بدل

(١) انظر اليعقوبي ج ٣ ص ٩٢ ـ ٧٩.
(٢) الجهشياري ص ٨٩.
(٣) الطبري ج ٩ ص ١٥١.
(٤) الدينوري ص ٣٧٢ ـ ٣.
(٥) اليعقوبي ج ٣ ص ٩٥.

الحضارة الصينية في بلاد ما وراء النهر(١).

٨ ـ كلمة ختامية

وعلى الرغم من قصر خلافة أبي العباس فإنه قضى على أكثر خصومه، واستطاع تهدئة قسم من منافسيه مثل العلويين وخاصة آل الحسن الذين أكرمهم غاية الإكرام(٥) وسايرهم باللطف والدهاء حتى «طفىء أمر محمد (ذي النفس الزكية)»(٣) وحتى حصل من عبدالله بن الحسن على الوعد التالي: «يا أمير المؤمنين لك عهد الله وميثاقه الا ترى منهما (أي ولديه محمد النفس الزكية وإبراهيم) شيئاً تكرهه ما كان (محمد) في الدنيا»(٤). وهكذا اكتفى أبو العباس بهذا مع أنه عرف بمراسلات سرية بين محمد ذي النفس الزكية وبين بعض الناس يدعوهم إلى نفسه(٥).

ويظهر أن أبا العباس كان اميل الى اللين والمساومة من أبي جعفر كما يظهر من معاملته لأبي مسلم وللعلويين. وهنا ترد تسميته بـ «السفاح» وأرى أنها نتيجة التباس بعض المؤرخين بين عبدالله بن محمد أبي العباس، وبين عمه عبدالله بن علي، فالخليفة أعلن عند بيعته «أنا السفاح المبيح»، وأراد بذلك تهديد أعدائه ولم يعط هذا اللقب لسفكه للدماء، بينما استحق عمه لقب (السفاح) للمجازر التي عملها. ويؤيد هذا قول إبن قتيبة «ذكروا أن أبا العباس ولّى عمه **عبدالله بن علي الذي يقال له السفاح الشام**»(٦). وعندما يعدد اليعقوبي أولاد علي بن عبدالله بن العباس يذكر **عبدالله الأصغر وهو السفاح**»(٧). وبينما يلقب عبدالله بن علي بالسفاح في إبن قتيبة واليعقوبي، لا نجد أثراً لنسبة هذا اللقب للخليفة في المصادر الأولى كالطبري، والجهشياري وإبن قتيبة واليعقوبي والدينوري(٨). والمسعودي أول مصدر يذكره(٩) وهو يعتمد على القصص أحياناً، ويظهر أن المؤرخين المتأخرين أخذوه عنه(١٠)؛ إذ عزّ عليهم أن يدعوا أبا العباس بلا لقب يشيرون به إليه.

---

(١) المقدسي ـ البدء والتاريخ ج ٦ ص ٧٤ ـ ٥، Barthold- Turkestan pp. 194-6

(٢) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٩٦، مقاتل الطالبيين للأصبهاني (النجف ١٣٥٣) ص ١٢٥.

(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ٩٧.

(٤) مقاتل الطالبيين ص ١٢٧.

(٥) انظر اليعقوبي ج ٣ ص ٩٦ ـ ٧، ومقاتل الطالبيين ص ١٢٧.

(٦) ابن قتيبة ج ٢ ص ٢٣٢.

(٧) اليعقوبي ج ٣ ص ٦٢.

(٨) يسميه الدينوري احياناً «الإمام» ص ٣٦٥، ص ٣٦٦، ص ٣٧٢، ٣٧٤.

(٩) في مروج الذهب وفي التنبيه والإشراف ص ٢٩٢.

(١٠) الفخري مثلاً.

ولا يذكر عن أبي العباس التقتيل إلا قليلاً(١). ويقول المقدسي «كان أبو العباس يكره الدماء(٢)، مما يدل على أنه لم يكن بطبعه سفاكاً. ويذكر إبن قتيبة أن أبا العباس غضب كثيراًحينما قتل عمه عبدالله العالم الزاهد عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وكتب إلى عمه «ألا يقتل أحداً من بني أمية حتى يعلم به أمير المؤمنين»(٣) والظاهر أنه اعتبر القتل ضرورة سياسية لتوطيد ملكه في تلك الظروف الإستثنائية فحاول تحديده.

وكان أبو العباس ذا شخصية قوية، ولعل لهذه أثراً في توليته العهد قبل أخيه أبي جعفر وكان أكبر منه سناً، ثم إن أبا العباس كان ملازماً لأخيه إبراهيم الإمام بينما كان أبو جعفر يتجول بين حين وآخر في العراق وفارس، هذا بالإضافة إلى أن أم أبي العباس كانت عربية.

ويصفه المؤرخون بالحلم وكرم الأخلاق، فيصفه المسعودي بأنه كان «سديد الرأي ماضي العزيمة، كريم الأخلاق، متألفاً للرجال سمحاً بالأموال،(٤). ويقول اليعقوبي عنه «وكان.. حليماً جواداً، وصولاً لذوي أرحامه»(٥)، ويقول الفخري «وكان كريماً حليماً وقوراً عاقلاً كاملاً كثير الحياء حسن الأخلاق»(٦).

توفي أبو العباس في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦هـ بالجدري، وخلف تسع جباب وأربعة أقمصة وخمسة سراويلات وأربعة طيالسة وثلاثة مطاريف خز. ولعله لم يترك في بيت المال شيئاً.

---

(١) انظر اليعقوبي ج ٣ ص ٩٤.
(٢) المقدسي ـ البدء والتاريخ ج ٦ ص ٩٩.
(٣) إبن قتيبة ج ٢ ص ٢٣٥.
(٤) المسعودي ـ التنبيه والإشراف ص ٢٩٣.
(٥) اليعقوبي ج ٣ ص ٩٧.
(٦) الفخري ص ١٠٩.

الفصل الرابع

أبو جعفر المنصور

١٣٦ ـ ١٥٨ هـ/٧٥٤ ـ ٧٧٥م

---

١ ـ مزاياه

٢ ـ المشاكل الداخلية

أ ـ ثورة عبدالله بن علي

ب ـ التخلص من أبي مسلم الخراساني

جـ ـ ثورة العلويين ـ النفس الزكية وإبراهيم.

٣ ـ آثار الدعوة العباسية

أ ـ بها فريد

ب ـ سنباذ

جـ ـ الراوندية

د ـ أستاذ سيز

٤ ـ السياسة الخارجية

أ ـ العلاقات مع البيزنطيين

ب ـ العلاقات مع أقطار أخرى

٥ ـ الاداريات

أ ـ العاصمة

ب ـ السياسة الادارية

جـ ـ المالية

د ـ ولاية العهد

٦ ـ تقرير

١ ـ بويع المنصور بالخلافة والمملكة لا تزال مضطربة، والدولة لم تتوطد أركانها ولم يستقر حكمها بعد، لكنه استطاع أن يثبت أركانها بمقدرته النادرة، وبفضل امتداد حكمه لمدة تقرب من اثنتين وعشرين سنة.

وقد عرك المنصور وجرب قبل الخلافة، فقد لاقى من المصاعب في شبابه ما جعله يعتاد حياة الخشونة والتعب، ثم كان مشاور أبي العباس وساعده الايمن فحارب إبن هبيرة وولي أرمينية وأذربيجان والجزيرة واشتغل بالإدارة والسياسة قبل مجيئه إلى الحكم.

أما صفته وأخلاقه فأرى من المفيد أن أثبتها هنا إذ أنها ذات علاقة بسياسته فيصفه المسعودي والطبري بأنه كان «طويلاً أسمر نحيفاً خفيف العارضين، يخضب بالسواد»[1]. ويذكر المؤرخون مزاياه فيقول المسعودي أنه كان «محنك السن حازم الرأي، قد عركته الدهور، وحلت الايام سطوته،وروى العلم وعرف الحلال والحرام، لا يدخله فتور عند حادثة،

---

(١) المسعودي ـ التنبيه ص ٢٩٥، الطبري ج ٩ ص ٢٩٣.

ولا تعرض له ونية عند مخوفة، يجود بالأموال حتى يقال هو أسمح الناس، ويمنع في الأوقات حتى يقال هو أبخل الناس، ويسوس سياسة الملوك ويثب وثوب الأسد العاري، لا يبالي أن يحرس ملكه بهلاك غيره»(١). ويقول الفخري «كان من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم وذوي الآراء الصائبة فيهم والتدابير السديدة، وقوراً شديد الوقار، حسن الخلق في الخلوة، من أشد الناس احتمالاً لما يكون من عبث أو مزاح، فإذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام تغير لونه واحمرت عيناه وانقلبت جميع أوصافه»(٢).

ووصفه إبن هبيرة فقال «ما رأيت رجلاً في حرب أو سلم أمكر ولا أنكر ولا أشد تيقظاً من المنصور، لقد حاصرني تسعة شهور، ومعي فرسان العرب فجهدنا كل الجهد حتى ننال من عسكره شيئاً فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره وكثرة تيقظه»(٣). ويبين الطبري أنه «لم ير في دار المنصور لهو قط»(٤) لانصرافه بكليته إلى تدبير شؤون المملكة حتى كان يتحاشى التنعم «فكان يلبس الخشن وربما رفع قميصه» حتى قال الإمام الصادق عنه «الحمد لله الذي ابتلاه بفقر نفسه في ملكه»(٥).

ونستخلص من هذا أن المنصور كان مجرباً حازماً، وقوراً، ظريفاً في مجالسه الخاصة، شديد الدهاء، مثقفاً كثير الحذر، يتحاشى اللذائذ، مهتماً بإدارة الدولة، مدبراً في المال، قوي الإرادة.

٢ ـ ولي المنصور والأخطار لا تزال محدقة به فكان يدرك شجاعة وطموح عمه عبدالله بن علي ومركزه الحصين في جيشه. وإن صحت رواية المسعودي بأن أبا العباس جعل «ولاية العهد لمن قتل مروان، وعبدالله بن علي.. هو الذي قتله»(٦) فإن ذلك قوى مركزه وألهب طموحه.

وكان المنصور يخشى سلطان أبي مسلم ويسيء الظن به، وتتضح نظرته في هذاالصدد من محاورة جرت بينه وبين أخيه سنة ١٣٦هـ حين قدم أبو مسلم للحج. قال أبو جعفر «يا أمير المؤمنين.. أقتل أبا مسلم فوالله إن في رأسه لغدرة. فقال (أبو العباس) يا أخي قد عرفت بلاءه وما كان منه. فقال أبو جعفر: يا أمير المؤمنين إنما كان بدولتنا، والله لو بعثت سنوراً لقام مقامه وبلغ ما بلغ في هذه الدولة.. الخ»(٧). فكان من الطبيعي أن يحاول الخليفة التخلص منه.

---

(١) المسعودي التنبيه ص ٢٩٥ ـ ٦.
(٢) الفخري ص ١١٥.
(٣) شرحه ص ١١٦.
(٤) الطبري ج ٩ ص ٢٩٤.
(٥) الفخري ص ١١٥.
(٦) انظر المسعودي ج ٣ ص ١٨٨.
(٧) الطبري ج ٩ ص ١٥٣.

وهناك العلويون من آل الحسن الذين كانوا يـدعون النـاس إلى بيعتهم، وقد عـرف المنصور ذلك وأنكر تخلف محمد ذي النفس الزكية وإبراهيم عن المجيء إلى أبي العباس لمبايعته، فكانوا ينافسون بني العباس في الملك بالإضافة إلى أنهم كانوا ملجأ المعارضة، فحاول الخلال نقل الخلافة إليهم، وراسلهم إبن هبيرة ليبايع لهم فكـان لا بد للخليفـة من ضربهم لتثبيت مركزه.

هذا بالإضافة إلى حذره من عدم ولاء أهل الكوفة للعباسيين ومن كثرة تقلبهم.

وتتضح مهارة المنصور ودهاؤه في ضربه لخصومه بعضهم ببعض، وفي محـاولته التخلص منهم بأقرب وأسلم وسيلة، فلم يتجنب استخدام المخادعة لأنها أقل كلفة وأنجح من غيرها أحياناً.

ويبالغ البعض في وصف المنصور بالغدر، ولكن علينا أن نتذكر أن القسوة ضرورية لتثبيت دعائم دولة حديثـة، وأن بعض ما ينسب إلى المنصـور من أعمال الغـدر ليس من صنعه كقتل إبن هبيرة، كما أن مجـيء أبي مسلم إلى المنصور كان نتيجة التهديد والوعيد كما سنرى. ولنفصل الآن في المشاكل الداخلية.

١ ـ ما كاد عبدالله بن علي والي الشام يسمع بوفـاة أبي العباس، حتى خـرج على المنصور، فجمع جنده وطلب منهم أن يبايعوه وادعى أن أبا العبـاس جعل له العهـد حين أرسله لمقاتلة مروان بن محمد[1].

فبايعه القواد والجند، وكان عامة جيشه من أهل الشام وهم يتمنون اضطراب أحوال العباسيين ويأملون أن ترجع السلطة إليهم[2]. ولذلك تبعـوا عبدالله رغم كـرههم الشديـد لفظائعه.

فانتدب المنصور أبا مسلم لقتال عمه، وهو يتأمل أن يتخلص من أحدهما، وقد عبـر وزيـره أبو أيـوب الموريـاني عن وجهة نـظره حين قال «نحن لأبي مسلم أشـد تهمة منـا لعبدالله بن علي ألا إنا نرجو واحدة»[3] ولم يكن أبو مسلم راغباً في محاربة عبدالله إذ يبين اليعقوبي أنه قال لكاتبه «أمضي إلى خراسان وأخلي بين هذين الكبشين فأيهما غلب.. كتبنا إليه سمعنا وأطعنا، فرأى أنا قد أنعمنا عليه وعملنا له عملاً» ولكن كاتبه أقنعه بضد ذلك[4]. ثم إن جيش عبدالله كان يضم عدداً كبيراً من الخرسانيين، وكان المنصور يأمل أن يستميلهم بإرسال أبي مسلم، فيذكر الطبري أن أبا مسلم قال للخليفة حين أبدى مخاوفه من

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٥٦، اليعقوبي ج ٣ ص ١٠١، المسعودي ج ٣ ص ٢١٦، الفخري ص ١٢٢

(٢) يقـول إبن قتيبة إن عبـدالله «قرب مـوالي بني امية واطمعهم وسـد ثغـورهم» ج ٢ ص ٢٣٧.

(٣) الطبـري ج ٩ ص ١٦٠

(٤) اليعقوبي ج ٣ ص ١٠١ ـ ٢.

حركة عمه: «أنا أكفيك أمره إن شاء الله. إنما عامة جنده ومن معه أهل خراسان وهم لا يعصونني»(١).

ودارت الحرب بين أبي مسلم وعبدالله حوالي خمسة شهور (١٣٦ ـ ٧هـ)، وإلى القارىء مجمل العوامل التي ساعدت على خذلان جيش عبدالله.

(١) خشي عبدالله أن يخذله الخراسانيون في ساعته الحرجة فقتل منهم سبعة عشر ألفاً فاضعف بذلك جيشه. كما أنه شك في إخلاص القائد الكبير حميد بن قحطبة، فلم يقتله بنفسه بل سرحه بكتاب إلى والي حلب ليقتله، فأحس حميد وهرب إلى أبي مسلم، فخسر عبدالله قائداً محنكاً مطلعاً على خططه ونقاط ضعفه(٢).

(٢) واستطاع أبو مسلم أن يحول عبدالله من مركزه الحصين بنصيبين، إذ تجنب عبدالله وادعى أنه لم يأت لمقاتلته وإنما جاء والياً على الشام، فخاف الشاميون على أهلهم من أبي مسلم وألحوا على عبدالله باتباعه، فلما فعل بعد تردد، رجع أبو مسلم وخندق في نصيبين.

(٣) وتمكن أبو مسلم بحركة عسكرية من تمزيق صفوف عبدالله، فضم أكثر الميمنة إلى الميسرة، فلما ضم الشاميون أكثر ميسرتهم إلى ميمنتهم، هجم أبو مسلم بسرعة بالقلب مع بقية الميمنة على ميسرة أهل الشام فشتت نظامهم ودحرهم في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٧هـ(٣).

فهرب عبدالله إلى أخيه سليمان والي البصرة واختفى عنده، ثم سلمه سليمان سنة ١٣٩(٤) إلى أبي جعفر بعد أن أخذ له أماناً، فسجنه المنصور ثم تخلص منه بعد تسع سنين(٥).

ثم جاء دور أبي مسلم ولا بد لنا أن نتذكر رأي المنصور فيه كما أن طبيعة الخليفة وتصرفات أبي مسلم أسرعت بتقديم الأزمة. فعند وفاة أبي العباس أرسل أبو مسلم رسالة إلى المنصور يعزيه دون أن يهنئه بالخلافة، فأنكر المنصور ذلك. ولما سار أبو مسلم لقتال عبدالله بن علي، أمر الخليفة الحسن بن قحطبة والي الجزيرة أن يلحق به ويراقب أعماله ففعل، وأخذ يرسل التقارير على تصرفاته فأثار مخاوف المنصور وخاصة عندما كتب إليه «أني قد ارتبت بأبي مسلم منذ قدمت عليه. أنه يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين فيقرأه ثم يلوي شدقه» ويسخر منه(٦).

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٥٥.

(٢) شرحه ج ٩ ص ١٥٦، اليعقوبي ج ٣ ص ١٠٢.

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٥٨.

(٤) الطبري ج ٩ ص ١٧٢.

(٥) انظر التفاصيل في اليعقوبي ج ٣ ص ١٠٤ ـ ٥، المسعودي ج ٣ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ والجهشياري ص ١٠٣ ـ ٤.

(٦) الطبري ج ٩ ص ١٦٠.

وزاد طغيان أبي مسلم بعد انتصاره على عبدالله بن علي فأراد المنصور أن يجس نبضه وأن يشعره بأنه أحد عماله. فأرسل إليه رسولاً ليحصي عليه الغنائم فغضب وقال «أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال؟» وتناول أبا جعفر بلسانه وأراد قتل الرسول لولا تدخل أصحابه ولولا ادعاء الرسول بأنه ما جاء إلا للتهنئة(١). وأخبر المنصور بذلك.

ويظهر أن أبا مسلم «عزم على الخلاف»(٢)، فتوجه إلى خراسان فخاف المنصور من انفصاله وإذ ذاك يعسر إخضاعه. فحاول صرفه عن خراسان وكتب إليه: «قد وليتك الشام ومصر فهي خير لك من خراسان. فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين». وحاول المنصور بهذا أن يضعف مركز أبي مسلم لكره أهل الشام للخراسانيين ولبعد أبي مسلم عن أنصاره المخلصين بخراسان، هذا بالإضافة إلى قربه من مركز الخلافة وسهولة مراقبته. وفطن أبو مسلم لغرض المنصور فغضب وقال «وهو يوليني الشام ومصر، وخراسان لي!» واستمر في سيره نحو خراسان(٣). وكان ذلك أول خلاف علني.

وأدرك أبو جعفر أن السيف لا يجدي فعمد إلى أساليب الدهاء ودعا أبا مسلم إلى زيارته ليتحدث وإياه في أمور هامة، فأجاب أبو مسلم وقد نزل الزاب وهو على الرواح إلى طريق حلوان «أنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه. وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء. **فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تتقارنها السلامة.** فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك. **فإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إراداتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي**»(٤). إن لهجة أبي مسلم تنم على خلافه وتعاظمه على الخليفة إذ يتحدى المنصور وينتظر منه أن يعامله معاملة الند للند كما أنه يهدده بالعصيان إن تعرض له.

ولجأ المنصور بعد ذاك إلى منتهى الدهاء، فوجه إلى أبي مسلم أحد أصدقائه وهو عيسى بن موسى برسالة عتابية استصلاحية قوية دون عنف، ومما جاء فيها: «قد فهمت كتابك وليس صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون إضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة، فلم سويت نفسك بهم؟ فأنت في طاعتك ومناصحتك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سماع ولا طاعة وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها

---

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ١٠٢ ـ ٣، المسعودي ج ٣ ص ٢١٦ ـ ٧.

(٢) الفخري ص ١٢٣، الذهبي ـ مختصر دول الإسلام (حيدر آباد الدكن) ج ١ ص ٧٠ يقول «وسار يريد خراسان ليقيم بها خليفة علوياً»، وقد انفرد بهذا الرأي، انظر الطبري ج ٩ ص ١٦١.

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٦١.

(٤) الطبري ج ٩ ص ١٦٢.

إن أصغيت إليها. واسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك»[1].

ووجه إليه في الوقت نفسه جرير بن يزيد بن عبدالله البجلي «وكان أوحد أهل زمانه وداهية عصره»، وكان له إتصال قوي بأبي مسلم بخراسان[2]، وطلب إليه أن يتبع معه طريقة الترضية والإقناع، فإن فشل فالتهديد بالصورة الآتية: «يقول لك أمير المؤمنين: لست للعباس وأنا بريء من محمد إن مضيت مشاقاً ولم تأتني إن وكلت أمرك إلى سواي ولم آل طلبك وقتالك بنفسي.. حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك»[3].

وظهر دهاء جرير في تأدية رسالته، إذ حث أبا مسلم على إجابة المنصور وحذره من عاقبة الخلاف، وكان مما قاله «أيها الأمير ضربت الناس عن عرض لأهل هذا البيت ثم تنصرف إلى هذه الحالة! ما آمن أن يعيبك من هنالك ومن ها هنا، وأن يقال طلب بثأر فولى ثم نقض بيعتهم، فيخالفك من تأمن مخالفته إياك وأن الأمر لم يبلغ عند خليفتك ما تكره»[4] وأكد عيسى بن موسى وجهة نظر جرير فاستشار أبو مسلم ثقته مالك بن الهيثم فنصحه بأن يمضي إلى خراسان وأن يستعتب المنصور من هناك «وتكتب إليه منها سمعك وطاعتك.. وإلا فهو آخر عهدك بالدنيا إن وقعت عينيه عليك»[5]. ففشلت سياسة الترضية، وعندئذ جاء جرير بالتهديد فأرعب أبو مسلم وكان يعرف دهاء المنصور وشدته.

ثم قطع المنصور خط الرجعة على أبي مسلم إذ كتب إلى أبي داوود (خليفة أبي مسلم على خراسان) بالإمارة على خراسان وأطمعه بذلك، فكتب أبو داوود إلى أبي مسلم «إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ فلا تخالف إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه»[6].

فصار أبو مسلم بين نارين، الخليفة من ورائه وخصمه الجديد أبو داوود في خراسان. وعندئذ إضطر إزاء هذه التهديدات إلى أن يتوجه إلى العراق ليلاقي حتفه مع أنه كان أعرف الناس بسياسة العباسيين آنذاك في القتل على التهمة، وأخيراً قتل في اليوم الخامس من شعبان سنة ١٣٧هـ.

وكانت التهم التي وجهها المنصور إلى أبي مسلم كما يظهر من الطبري هي: (١) تقدمه على المنصور في طريق الحج وعدم انتظاره إياه في طريق الرجوع حينما جاءه خبر

---

(١) شرحه ج ٩ ص ١٦١ ـ ٢

(٢) المسعودي ج ٣ ص ٢١٧.

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٦٣.

(٤) المسعودي ج ٣ ص ٢١٧، انظر الطبري ج ٩ ص ١٦٢ ـ ٣.

(٥) اليعقوبي ج ٦ ص ١٠٣، المسعودي ج ٣ ص ٢١٧.

(٦) الطبري ج ٩ ص ١٦٤.

وفاة أبي العباس (٢) وقتله سليمان بن كثير الخزاعي دون استشارة الخليفة وسليمان هذا من شيوخ الدعوة (٣) مراوغته في الخروج إلى خراسان (٤) تقديمه لإسمه على إسم الخليفة في رسائله، وخطبته لأمينة بنت علي، وانتسابه إلى سليط بن عبدالله بن العباس (٥) وتدخله في شؤون أبي العباس[١].

وهكذا تخلص المنصور من أعظم خطر مباشر، ويروى أنه قال بعد قتل أبي مسلم بأنه ما تم سلطانه وأمره إلا في ذلك اليوم[٢].

ثم أوضح أبو جعفر سبب قضائه على أبي مسلم في خطبة ألقاها في جمع من الناس فحذرهم عاقبة الخيانة وقال:

«أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة الى وحشة المعصية، ولا تستروا غش الأيمة فإن من غش إمامه أظهر الله عز وجل سريرته في فلتات لسانه وسقطات أفعاله، وأبداها الله لإمامه الذي بادر باعزاز دينه بـه وإعلاء حقـه بفلجه. إنـا لم نبخسكم حقوقكم ولم نبخس الدين حقه عليكم، إنه من نازعنا عروة هذا القميص أوطأناه ما في هذا الغمد، وإن أبا مسلم بايعناه وبايع لنا، على أنه من نكث بيعتنا فقد أباح دمه لنا، ثم نكث بنا هو فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه»[٣]. ولعل هذا الخطاب يظهر اهتمام المنصور بالرأي العام رغم اعتزازه بسلطته المطلقة.

ج - المنصور والعلويين

كان المنصور يخشى طموح بني الحسن، فقد بلغهم أنهم كانوا يشيعون بأن بني هاشم (ومن بينهم المنصور)، إجتمعوا عند اضطراب أحوال الدولة الأموية وبايعوا لمحمد ذي النفس الزكية[٤]. كما أن عبدالله بن الحسن أشاع عن إبنه محمد «أنه المهدي الذي بشر به»[٥]

وكان محمد محبوباً لدى أهل الحرمين وكلهم مستعد لتأييده، ولا يخفى ما في ذلك من خطر على نفوذ الخليفة الديني وضرر لمركزه. وكان لمحمد دعاة بثهم في الأمصار يدعون له[٦].

وما إن تسلم المنصور الخلافة حتى مضى في استطلاع أخبارهم، ولم يكن همه إلا طلب محمد والمسألة عنه وعما يريد. فدعا بني هاشم رجلاً وسألهم عنه في خلوة «فكلهم

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٦٦ ـ ٨

(٢) شرحه ج ٩ ص ١٦٦.

(٣) المسعودي ج ٣ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠

(٤) قارن بين رواية الفخري ص ١١٩، ورواية الأصبهاني ـ مقاتل الطالبيين ص ١٤٣.

(٥) الفخري ص ١٢١، مقاتل الطالبيين ص ١٤٣.

(٦) انظر المسعودي ج ٣ ص ٢٢١.

ـن يا أمير المؤمنين إنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل هذا اليوم وهو يخافك على ولا يريد خلافاً ولا يحب لك معصية إلا الحسن بن زيد فإنه أخبره وقال: والله ما آمن وثو عليك والله لا ينام عنك»[1].

ولما حج المنصور سنة ١٤٠هـ تخلف محمد وإبراهيم إبنا عبدالله عن المثول بين يديه فازدادت شكوكه فقبض على عبدالله بن الحسن وسجنه لأنه أبى أن يدله عليهما[2]. وأوعز إلى ولاته في الحجاز بمتابعة آل الحسن والتضييق عليهم. ثم ولى رياح بن عثمان سنة ١٤٤هـ (بعد أن عزل واليين تسامحاً معهم) فشدد الضغط عليهم[3]. وفي سنة ١٤٤هـ حج المنصور وقبض على آل الحسن وحملهم إلى العراق وسجنهم في قصر ابن هبيرة شرق الكوفة[4].

ثم حاول المنصور أن يفسد خطط محمد فدس عيوناً له فمضى هؤلاء يكيدون لمحمد مدعين بأنهم أتباعه ليطلعوا على حقيقة خططه من كتب وليموهوا الحقائق عليه[5]. فأوحوا إليه بأن دعوته قد عمت الأقطار، يؤيد هذا ما قاله في خطابه حينما ثار في المدينة «.. والله ما جئت هذه (المدينة) وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لي منه البيعة»[6]. ولم يكتف المنصور بهذا بل إنه أخذ يكتب إليه على ألسن قواده (أي قواد المنصور) يدعونه إلى الظهور ويعلمونه بأنهم معه. فكان محمد يقول «لو التقينا مال إلى القواد كلهم»[7].

كما أن شدة رياح بن عثمان حالت دون قيام محمد (في المدينة) وإبراهيم (في البصرة) في آن واحد فاضطر محمد إلى الثورة قبل وقتها المعين[8]. وصادف أن كان إبراهيم مصاباً بالجدري[9].

ثار محمد ذو النفس الزكية في أول يوم من رجب سنة ١٤٥هـ[10] وخطب في أصحابه ورمى أبا جعفر بالطغيان وأضاف «وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وآمنوا من أخفت

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ١٤٥ ـ ٦.

(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٠٥ ـ ٦

(٣) انظر الطبري ج ٩ ص ١٨٨ ـ ٩، اليعقوبي ج ٣ ص ١١٠.

(٤) مقاتل الطالبيين ص ١٥٦

(٥) انظر الطبري ج ٩ ص ١٨١.

(٦) شرحه ج ٩ ص ٢٠٤ ـ ٥.

(٧) شرحه ج ٩ ص ٢٠٥.

(٨) مقاتل الطالبيين ص ١٨٠ ـ ١.

(٩) الطبري ج ٩ ص ١٩٨.

(١٠)اليعقوبي ج ٣ ص ١١١، الطبري ج ٩ ص ٢٠٤، وعلى رواية اخرى في الطبري أنه خرج يوم ٢٨جمادى الآخرة (ص ٢٠٤)، وكذلك في مقاتل الطالبيين ص ١٨٣.

ـوا من آمنت»[١]. فاجتمع معه «خلق عظيم وأتته كتب أهل البلدان ووفـودهم»[٢] و
نصاره «ولد علي وولد جعفر وولد عقيل وولد عمر بن الخطاب وولد الزبير بن العوام وسائر قريش وأولاد الأنصار»[٣].

وكمـا احتج محمـد علي المنصور أمـام أهل المـدينة، كـذلك احتج المنصـور على العلويين حينما أسر بني الحسن إمام الخراسانيين لأهمية هـؤلاء بالنسبـة إليه من جهـة ولخوفه من وجود ميول علوية بينهم فأحب أن يهدئها من جهة أخرى، فقال بالهاشمية «يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا أهل دعوتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا. وإن ولد علي بن أبي طالب تركناهم والخلافة..

[ثم يبين فشل محاولات العلويين بعد مقتل علي (رضي الله عنه) لاسترجاع الخلافة ويقول] ثم وثب بنو أمية علينا فأماتوا شرفنا وأذهبوا عـزنا، والله مـا كان لهم عنـدنا تـرة يطلبونهـا، وما كـان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم (أي العلويين) فنفـونا عن البـلاد، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالسراة، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً فأحيا الله شرفنا وعزنا بكم وأظهر لنا حقنا، وأصار إلينا ميراث نبينا ﷺ فقر الحق في قراره وأظهر الله مناره، وأعز أنصاره وقطع دابر القوم الذين ظلموا.. فلما استقرت الأمور فينا على قرارهـا من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسداً منهم وبغياً لهم بما فضلنا الله عليهم» ثم ادّعى «فوالله ما بقي منهم (العلويين) شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم له فاستحللت به دماءهم وحكمت عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي»[٤] وهذا الخطاب يوضح لنا نظرة المنصور للخراسانيين، واهتمامه بإقناعهم بحقه ليؤيدوه تأييداً كلياً. وهكذا بدأت حرب الدعاية قبل حرب السلاح.

ثم بدأ المنصور بمراسلة محمد ودعاه لحل الخـلاف سلمياً ليكسب الوقت وليضـع مسؤولية الحرب على عاتق خصمه فكتب إليه «.. إنما جزاء الذين يحـاربون الله ورسـوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم».

«ولك على عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ أن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج، وأنزلك من

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٠٤ ـ ٥.
(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١١١.
(٣) المسعودي ج ٣ ص ٢٢١.
(٤) المسعودي ج ٣ ص ٢٢٦ ـ ٧.

حيث شئت وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك وأن أؤمن كل من جاءك وتبعك أو دخل معك في شيء من أمرك ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً»[1].

فأجاب محمد ذو النفس الزكية: «.. إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيع يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون».

«وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت عليّ».

«فإن الحق حقنا، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم له بشيعتنا، وخطبتم بفضلنا، وإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء، ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا. لسنا من أولاد اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء[2]. وليس يمت أحد من بني هاشم يمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل... إن الله اختار لنا فوالدنا من النبيين محمد ﷺ ومن السلف أولهم إسلاماً علي، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة، وأول من صلى القبلة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة».

«ولك علي إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك من ذلك».

«وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي، فأي الأمانات تعطيني أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبدالله بن علي أم أمان أبي مسلم!»[3].

فكتب إليه أبو جعفر «.. أما بعد فقد بلغني كلامك وقرأت كتابك فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة الأولياء لأن الله جعل العم أباً وبدأ في كتابه على الوالدة الدنيا.. ولقد بعث الله محمداً وله عمومة أربعة.. فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبي، وأبى اثنان أحدهما أبوك، فقطع الله ولاقيهما منه، ولم يجعل بينه وبينهما إلّا ذمة ولا ميراثاً. وأما قولكم إنكم بنو رسول الله فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾**. ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة ولكنها لا تجوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الإمامة فكيف يورث بها..». ثم يشير إلى النزاع بين بني أمية وبين العلويين وإلى انتصار العباسيين فيقول «ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم.. ونفوكم من البلدان.. حتى خرجنا

---

(1) الطبري ج ٩ ص ٢١٠.

(2) يقصد باللعناء والطرداء الذين ناوءوا الرسول من قريش فأمّنهم أو نفاهم. يقصد بهم من أسلموا بعد فتح مكة.

(3) الطبري ج ٩ ص ٢١٠ ـ ٢١١.

عليهم فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم»[1].

وتنحصر أهمية هذه المراسلات في إحصائها (بصورة واضحة) حجج كل من العلويين والعباسيين كما أنها تظهر نظرتهم الى بعضهم في ذلك الوقت. ثم إنها كتبت لمجرد الدعاية ولا أعتقد أنه قد قصد منها إقناع الخصم. وأخيراً نلاحظ أن محمداً لم يقل بأن المنصور بايعه سابقاً كما يفهم من بعض روايات الأصبهاني والفخري.

وبعد فشل المراسلات أرسل المنصور عيسى بن موسى إلى المدينة «في جيش عظيم» على قول اليعقوبي[2]، بينما يذكر الأصبهاني أن عدد الجيش كان أربعة آلاف مقاتل فقط[3]، ولعل المسعودي أدق منهما إذ يقول أن جيش عيسى كان من «أربعة آلاف فارس وألفي راجل، واتبعه محمد بن قحطبة في جيش كثيف»[4]. إن رغبة المنصور في التخلص من عيسى (الذي كان ولي عهده) حملته لأن يوليه قيادة الجيش يؤيد هذا ما قاله «لا أبالي أيهما قتل صاحبه»[5]. هذا بالإضافة إلى الحاجة الملحة إلى قائد هاشمي يتولى أمر الحرب كي يكون له نفوذ معنوي كبير في نفوس الجند[6].

وقد ساعد ظهور محمد في الحجاز على النصر العاجل «حيث لا مال ولا رجال ولا سلاح ولا كراع». كما أن المنصور قطع عن خصمه الميرة من الشام[7] ومن مصر[8] وبذلك أقحط الأقوات. وحفر محمد خندقاً حول المدينة اقتداء «بأثر رسول الله»[9]، فأتم بذلك الحصار الإقتصادي عليه. وما إن وصل عيسى إلى المدينة حتى كاتب بعض من تابع محمداً من القرشيين فتخلوا عنه فأضعف بهذا صفوف جيش العلويين.

ثم أن محمداً خطب في أصحابه (ويقدرهم الطبري بمائة ألف) عند مقدم الجيش العباسي قائلاً «أيها الناس أن هذا الرجل قد قرب منكم في عدد وعدة، وقد حللتكم من بيعتي فمن أحب المقام فليقم ومن أحب الإنصراف فلينصرف» فأضعف عزيمة أصحابه «فتسللوا حتى بقي في شرذمة ليست بالكثيرة»[10]! ويشير اليعقوبي إلى مكيدة دبرتها أسماء ابنة عبدالله بن عبيدالله بن العباس بالمدينة إذ وجهت مولى لها في خمار أسود جعلته

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٢١١ ـ ٢
(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١١١.
(٣) مقاتل الطالبيين ص ١٨٥.
(٤) المسعودي ج ٣ ص ١٢٢.
(٥) الطبري ج ٩ ص ٢١٦.
(٦) المسعودي ج ٣ ص ١٢١ ـ ٢.
(٧) الطبري ج ٩ ص ٢١٦ ـ ٧.
(٨) شرحه ج ٩ ص ٢٤٢.
(٩) شرحه ج ٩ ص ٢١٩.
(١٠) شرحه

على قصبه فنصبه على مأذنة المسجد، ووجهت مولى آخر إلى المعسكر العلوي فصاح «الهزيمة» فانهزم الناس عن محمد وبقي هو يقاتل حتى قتل[١] في اليوم الرابع عشر من رمضان[٢].

ثم ثار إبراهيم بن عبدالله في البصرة في أول شهر رمضان بعد أن مكث فيها مدة يدعو سراً وقد تجاهل والي البصرة سفيان بن معاوية أمره وأيده في السر[٣]. فانتشرت دعوته وكسب أنصاراً بفضل مصاهرته لمحمد بن عبدالله بن عمر بن عثمان بن عفان إذ كان في البصرة كثير من العثمانية، كما انضم إلى دعوته كثير من الزيدية[٤]. وتحرج موقف المنصور إذ لم يكن لديه إلا جند قليل (٢٠٠٠ رجل)[٥].

كما أن أهل الكوفة كانوا يكاتبون إبراهيم ويتحفزون للوثوب معه، حتى أن المنصور قال «إن إبراهيم قد عرف وعورة جانبي.. وإنما جرأه على المسير إليّ من البصرة إجتماع هذه الكور المطلة على عسكر أمير المؤمنين وأهل السواد معه على الخلاف والمعصية»[٦].

واضطرب دون أن يفقد ثباته، فكتب إلى عيس بن موسى أن يترك المدينة ويسرع لقتال إبراهيم. كما أنه منع الناس في الوقت نفسه من الخروج من الكوفة أو الدخول إليها وفرض النظام العسكري العرفي فيها، وطلب من بعض رجالاتها تعهداً بسكينة أهلها[٧].

وكان إبراهيم قد أخضع الأهواز وفارس وفتح مدينة واسط. ثم تقدم نحو الكوفة، فالتقى به عيسى بن موسى عند باخمري (وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة)[٨] في جيش قوامه خمسة عشر ألفاً[٩] فهزم الجيش العلوي وقتل إبراهيم في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٤٥[١٠] وهكذا تخلص المنصور من خطر زلزل ملكه في مركزه وكاد يقضي عليه.

٣ ـ آثار الدعوة العباسية، أو الحركات الفارسية في عهدي أبي العباس والمنصور.

أحيت الدعوة العباسية بعض المبادىء التي كانت متأصلة في إيران قبل الفتح

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ١١١ ـ ٢.
(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٩١.
(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٥٠.
(٤) المسعودي ج ٣ ص ٢٢٢ ـ ٣.
(٥) الطبري ج ٩ ص ٢٥٤.
(٦) الطبري ج ٩ ص ٢٥٥.
(٧) شرحه ج ٩ ص ٢٤٩.
(٨) شرحه ج ٩ ص ٢٥٧.
(٩) شرحه ج ٩ ص ٢٥٦.
(١٠) شرحه ج ٩ ص ٢٥٩.

الإسلامي، فلما خاب أمل أصحابها بالعباسيين ظهرت بشكل حركات زندقة متشحة بثوب إسلامي أحياناً، وكشفت عن حقيقتها علناً في بعض الأحيان كما في حركة بها فريد.

ظهر بهافريد في نيسابور في خلافة أبي العباس وادعى النبوة وقال إنه خليفة زردشت فـ«صدق زرادشت»، ولكنه في الحقيقة أدخل بعض التعديلات الأساسية في ديانة زردشت، فأمر أصحابه «بترك الزمزمة عند الطعام.. (وبترك) شرب الخمور وأكل الميتة ونكاح الأمهات والبنات والأخوات وبنات الأخ» وهي جزء من الزردشتية، ولكنه «أمرهم بالسجود لعين الشمس»[1] ويظهر أنه تأثر بالاسلام إذ فرض على أصحابه سبع صلوات منها «صلاة في توحيد الله»[2] بينما الزردشتية دين ثنوي. وربما كان مبدأ الرجعة[3] (الذي أخذه من الغلاة) أهم مبادئه. وحدد المهور بأربعمائة درهم فلعله تأثر بالأوضاع المالية في خراسان[4].

وقد كثر أتباعه، فيروي إبن النديم إنه «إستجاب له خلق كثير[5]، بينما يقول البيروني «فتبعه خلق كثير من المجوس لما تنبأ»[6]. وابن النديم يشير إلى وجود البهافريدية في القرن الرابع الهجري[7].

ولكن المجوس قاوموا حركته، واعتبروه منشقاً، واجتمع الموابذة والهرابذة (رجال الدين المجوسي) إلى أبي مسلم في نيسابور وشكوا إليه أن بها فريد «قد أفسد دين الإسلام ودينهم»، فأرسل أبو مسلم من حمله إليه، فقتله ومن ظفر به من قومه[8].

أما الحركات الدينية الأخرى فقد اعتبرها المؤرخون المسلمون كتطورات لمبادىء مزدك. فابن النديم (كتب سنة ٩٨٧م) يعتبر «الخرمية» و «المزدكية» شيئاً واحداً، وكذا «المحمرة» وأتباع بابك الخرمي وكذا «المسلمية» اتباع أبي مسلم[9] ويقول البيروني عن المقنع أنه شرع لأتباعه «جميع ما أتى به مزدك»[10]. ويعتبر الشهرستاني (١١٢٧م) «المزدكية» و «المسلمية» و «الخرمية» و «المبيضة» من أصل واحد[11]. ويرى نظام الملك (١٠٩٢م) في

---

(١) البيروني ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية (باعتناء سخاو) ليدن ص ٢١٠.

(٢) شرحه.

(٣) شرحه ص ٢١١.

Browne- A Literary History of Persia vol I p. 310

(٤) البيروني.

(٥) الفهرست ص ٤٨٣.

(٦) البيروني ص ٢١٠.

(٧) الفهرست ص ٤٨٣.

(٨) البيروني ص ٢١٠ ـ ٢١١، انظر ايضاً Barthold- Trukestan p. 194

(٩) الفهرست ص ٤٧٩ ـ ٤٨٣.

(١٠) البيروني ـ الآثار الباقية ص ٢١٣.

(١١) الملل والنحل ص ٨٧ وص ١٤٧.

كتابه (سياست نامه) أن (خُرّم) زوجة (مزدك) هربت بعد قتله مع اثنين من أتباعه من المدائن إلى الري واستمرت تبشر بمبادىء زوجها، بنجاح في تلك المنطقة، فسمي متبعوها **بالمزدكية** تبع إسم زوجها، **وبالخرمية** تبع إسمها، واستمر هذا المذهب حياً في أذربيجان وأرمينيا والديلم وهمذان والدينور وأصفهان والأهواز (أي في شمال وغرب إيران) حتى مجيء أبي مسلم، وكانوا من العناصر المتذمرة التي نجح أبو مسلم في ضمها إلى دعوة بني العباس(١).

ويقول ابن الجوزي (٥٩٧هـ) إن **الخرمية** «كان لقباً للمزدكية وهم أهل الإباحة من المجوس الذين نبغوا في أيام قباذ»(٢).

ويرجع ظهور هذه الحركات (بالدرجة الأولى) إلى دعاية أبي مسلم. فيقول (صديقي) «لا شك أن الخرمية جميعاً اعتبره كرئيس ديني»(٣)، واعتقد بعضهم بإمامته وهم «المسلمية»(٤). وربما اعتبروه بعض المقدسين له كأحد خلفاء زردشت الذي انتظروا رجعته ليملأ الأرض عدلاً «ويعيد دولة المجوس» و «يستولي على الأرض كلها ويزيل ملك العرب وغيرهم» كما يقول البيروني(٥). ويقول براون Browne «إن الثورات التي قامتْ في إيران والتي قادها مدعو النبوة من سنباذ المجوسي (٧٥٤ ـ ٥م) وأستاذ سيز (٧٦٦ ـ ٨م) ويوسف البرم، والمقنع (٧٧٧ ـ ٨٠م) وعلي مزدك (٨٣٣م) وبابك الخرمي (٨١٦ ـ ٨٣٨م) كانت على (الأغلب) مرتبطة بذكرى أبي مسلم»(٦).

ولكن هذه الحركات لم تكن إلا مظاهر لوعي الأمة الإيرانية متخذة شكلاً دينياً. فابن الجوزي يبين أن الثنوية والمجوس أرادوا إرجاع ممالكهم وإبطال الإسلام، ولكنهم رأوا ضرورة إخفاء مقاصدهم بالتستر بالإسلام(٧). ولعل المقريزي يوضح هذا حين يقول «واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب وكانت العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى.. وكان قائميهم شنفاذ (سنباذ) وأشنيس والمقنع وبابك وغيرهم، وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب خداشاً وأبو مسلم.. فرأوا أن كيده

---

(١) عن Browne, o. c.

(٢) ابن الجوزي ـ المنتظم ج ٥ (حيدر آباد الدكن ١٣٥٧ هـ) ص ١١٢.

(٣) Sadighi, o. c.

(٤) الفهرست ٤٨٣.

(٥) البيروني ص ٢١٣.

(٦) Browne, vol I p. 247

(٧) ابن الجوزي ـ المنتظم ج ٥ ص ١١٠ ـ ١١١.

على الحيلة أنجع فأظهر قوم منهم الإسلام»[١].

وهكذا أراد الفرس التحرر من سلطان الإسلام فوجدوا في أبي مسلم الرجل المنتظر الذي «يعيد دولة المجوس»، فلما قتل أبو مسلم بقي أثر دعايته بعده. ولكن ذلك الأثر إقتصر على بعض نـواحي إيران وعلى بعض الطبقـات فقط، وهـذا عامـل مهم في فشل الحركات الفارسية في العصر العباسي الأول.

ولنستعرض الآن هذه الحركات.

أ ـ ثورة سنباذ

أدى قتـل أبي مسلم إلى قيام اضـطرابات في شـرق إيران وفي غـربهـا، فيـروي المسعودي «ولما نمى مقتل أبي مسلم إلى خراسان وغيرها من الجبال اضطربت **الخرمية** وهي الطائفة التي تدعى **بالمسلمية** القائلون بأبي مسلم وإمامته»[٢]. ثم ثار سنباذ[٣] (سنة ١٣٧ هـ ـ ٧٥٥م) في خراسان «وكان خروجه غضباً لقتل أبي مسلم فيما قيل وطلباً بأثره»[٤]، وأخبر أتباعه بأن أبا مسلم لم يمت وأنه تلى اسم الله الأعظم قبل أن يقتل فصار حمامة بيضاء وطار[٥].

وكـان سنباذ من أهـل قريـة من قرى نيسـابور يقـال لها (أهن)، ويعتبـره الطبري مجوسياً[٦] ويـرى نظام الملك أنه كان مـزدكياً[٧] ولكن المسعـودي أدق منهما إذ يعتبره خرمياً[٨] ويؤيده الطبري بقوله إن سنباذ «كان من صنائع أبي مسلم»[٩].

بدأ سنباذ حركته في نيسابور ودعا الخرمية والغلاة والمزدكية فالتف حوله عدد كبير منهم، كما أنه دعا أهل طبرستان فأجابه كثير منهم ولما كانت طبرستان مجوسية حتى آنئذ، نتبين أن في الثورة روحاً قومية وجدت في أبي مسلم رمزها[١٠]. يدلنا على هذا أن سنباذ بشر أتباعه بنهاية السلطان العربي[١١]، وأعلن أنه يريد الذهاب إلى الحجاز وهـدم الكعبة[١٢]. ويقول الطبري إن عامة أصحاب سنباذ كانوا من أهل مقاطعـة الجبال (غـرب إيران) عش

---

(١) المقريزي ـ المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار (القاهرة ١٣٢٦) ج ٤ ص ١٩٠ ـ ١.

(٢) المسعودي ج ٣ ص ٢٢٠.

(٣) ويرد إسمه ايضاً: شنفاذ، وسنفاذ ويسميه صديغي Sonpâdh.

(٤) الطبري ج ٩ ص ١٦٩.

(٥) براون ج ١ ص ٣١٤.

(٦) الطبري ج ٩ ص ١٦٩.

(٧) انظر براون، ج ١ ص ٣١٤.

(٨) المسعودي ج ٣ ص ٢٢٠

(٩) الطبري ج ٩ ص ١٦٩.

(١٠) Sadighi.

(١١) ibid.

(١٢) بروان ج ١ ص ٣١٤، والفخري ص ١٢٥.

الخرمية[1]، كما أن أكثرهم كانوا من الفلاحين والزراع، فيقول المسعودي: «وأكثر هؤلاء (الخرمية) في القرى والضياع»[2].

إحتل سنباذ نيسابور، ثم تغلب على الري وقبض على ما كان بها من خزائن أبي مسلم، ثم استولى على قومس وتقدم نحو همذان. فأرسل إليه المنصور جيشاً قوامه عشرة آلاف جندي بقيادة جهور بن مرار العجلي، فقابله بين همذان والري، وانهزم جيش سنباذ وقتل منه ستون ألفاً، ثم قتل سنباذ بين طبرستان وقومس. وهكذا انتهت حركة سنباذ بعد أن دامت سبعين يوماً فقط رغم جسامتها[3].

ومما يلاحظ في هذه الحركة: ١ ـ سرعة تقدم سنباذ وكثرة عدد أتباعه الذين بلغوا بين تسعين ألفاً ومائة ألف[4] ٢ ـ وولاء الخراسانيين لأبي مسلم، ذلك الولاء الذي استمر في الحركات المقبلة ٣ ـ وضخامة عدد المتذمرين من حكم العباسيين مع كثرة من بقي متمسكاً بالتقاليد المزدكية.

ب ـ ثورة إسحاق الترك

كان إسحاق أحد دعاة أبي مسلم وكان أمياً. وسمي إسحاق الترك لأن أبا مسلم أرسله للدعوة إلى بلاد الترك، فلما قتل ثار إسحاق في بلاد ما وراء النهر وادعى بأن أبا مسلم محبوس وأنه سيخرج في وقت معين. ويذكر ابن النديم رواية أخرى عن رجل «عالم بأمور المسلمية» مضمونها أن إسحاق «زعم أنه نبي أنفذه زرادشت، وادعى أن زرادشت حي لا يموت.. وأنه يخرج حتى يقيم الدين لهم». ويظهر أن إسحاق جمع حوله المبيضة (حزب أبي مسلم) عندما ثار. فقبض عليه أبو داوود والي خراسان وقتله، ولكن المبيضة إستمروا في الخفاء إذ كان بعضهم يعيش بقرى بلخ في القرن الثاني عشر للميلاد[5].

ج ـ الراوندية

وهي فرقة ظهرت بتأثير الدعوة العباسية في إيران ونشأت (كما يظهر) قبل مجيء أبي مسلم. وكانت تعتقد بالحلول والتناسخ، فيروي المدائني (٢١٥هـ) أن أحد الراوندية «زعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن أبي طالب ثم في الأئمة واحد بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد وأنهم آلهة»[6]. ومن المحتمل أنهم اعتقدوا بمبادىء مزدك في اشتراكية النساء[7].

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٦٩.

(٢) المسعودي ج ٣ ص ٢٢٠.

(٣) انظر المسعودي ج ٣ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١، الطبري ج ٩ ص ١٦٩.

(٤) Sadighi, o. c.

(٥) انظر الفهرست ص ٤٨٣، و Barthold- Turkestan p. 198-9 براون ج ١ ص ٣١٤ ـ ٥.

(٦) الطبري ج ٩ ص ٣٠٦ ـ ٧، Van Vloten- Domination Arabe (Amesterdam 1898) p. 48.

(٧) براون ج ١ ص ٢١٦.

ثم انقسمت الراوندية إلى فرق متعددة. وتتضارب أقوال مؤرخي العرب في الراوندية فيطلقونها تارة على الكل وطوراً يطلقونها على الفرع. وإلى القارىء مجمل تاريخ الراوندية كما توصل إليه صديقي[1] (وهو آخر من كتب في هذا الموضوع) فقد بين أن الراوندية تفرعت إلى فرعين رئيسيين:

(١) جماعة اعتقدت بانتقال الإمامة من أبي هاشم إلى محمد بن علي بالوصاية. وربما كان هؤلاء من أوائل من انضموا إلى الدعوة العباسية، وهم يدعون «راوندية» نسبة إلى قرية (روند) Rivand قرب نيسابور. ثم انقسموا بعد وفاة أبي العباس إلى ثلاث فرق:

أ ـ فرقة اعتقدت بإمامة أبي جعفر وبعده المهدي.

ب ـ فرقة أنشأها عبدالله الراوندي، وهؤلاء اعتبروا أبا جعفر الإمام القادر القدير، واعتقدوا بأنه إله وأن أبا مسلم نبيه ورسوله. وهؤلاء هم الذين ثاروا على المنصور، وبعد وفاته اعتقدوا بإمامة المهدي.

جـ ـ فرقة نقلت الإمامة من أبي العباس لأبي مسلم. وهؤلاء فريقان، فريق دخل بينهم بعض الخرمية وسموا «المسلمية» وهم يؤكدون بأن أبا مسلم لم يمت وأنه نبي على قول بعضهم أرسله زرادشت بينما يقول البعض الآخر بأن جزء الهياً حل فيه وإنه فوق الملائكة. وفريق يسمون (بالرزامية) وزعيمهم رزام وينسبون الخوارق والمعجزات لأبي مسلم، ولكنهم يعتقدون بموته.

(٢) وجماعة تعتقد بأن الرسول أوصى بالإمامة لعمه العباس، ثم ورثها عنه أولاده. وهذه أحدث من الجماعة الأولى وتسمى **العباسية**.

ولكنها تطرفت في تقديسها لأبي مسلم وقد يكون لادعائه بأنه من نسل سليط بن عبدالله بن العباس أثر في نقل الرئاسة الدينية إليه.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام هو أن الفرقة الثانية من المجموعة الأولى تحركت ضد المنصور سنة ١٤١هـ/٧٥٨ ـ ٩م، ويقول الطبري عن أتباعها «إنهم كانوا من أهل خراسان على رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم، يقولون فيما زعم بتناسخ الأرواح ويزعمون.. أن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور..»[2] وجاء بعضهم من خراسان إلى هاشمية الكوفة مقر المنصور آنئذ «وأتوا قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويقولون هذا قصر ربنا» فدعا زعماءهم «فحبس منهم مائتين» فثار الباقون وأخرجوا أصحابهم، وهجموا عليه وكان عددهم جميعاً على قول الطبري ستمائة. وكانت حياة الخليفة في خطر أنقذه منه ثباته وتفاني بعض رجاله الذين قضوا على الثوار[3].

---

(١) Sadighi, o. c.

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٧٣ ـ ٤.

(٣) شرحه ج ٩ ص ١٧٤، الفخري ص ١١٦.

ويكتنف مجيء الراوندية إلى الهاشمية بهذه الصورة الغموض. فيرى الدينوري «أن الراوندية تداعوا وخرجوا يطلبون بثأر أبي مسلم[١]، ولكني أشك في هذا الرأي لتقادم العهد بين حركتهم وبين مقتل ذلك الزعيم، هذا بالإضافة الى قلة عددهم. ثم كيف يثور هؤلاء ضد ربهم لأنه سخط على نبيه! ولعل الدينوري يشير في هذا النص إلى المسلمية الذين اشتركوا في الثورات الماضية.

ويرى دوزي Dozy أن الراوندية جاءوا لتقديم الطاعة للمنصور، فلما تنصل منهم وسجن زعماءهم لم يعد إلّهاً بنظرهم، فثاروا عليه إذ كانت فكرة الحكم الشرعي عندهم متصلة بفكرة الربوبية، فإذا تنصل الإمام من الألوهية لم يعد حاكماً شرعياً في نظرهم[٢]. وقد يكون هذا الرأي أقرب للمعقول إذ تسامح العباسيون مع الراوندية واستفادوا منهم حينما حاولوا جمع الناس حولهم بكل الوسائل، ولكن ما إن ظفروا بالحكم حتى تعذر عليهم قبول مبادىء تنافي أسس الإسلام وخاصة وأن الخليفة كان حامي الدين فما كان منه إلا ونكل بهم حينما جهروا بآرائهم. وليس أدل على أن المنصور كان مستعداً لأن يغض عن هذه الآراء طرفاً ما دامت مستورة، من رواية أبي بكر الهذلي في الطبري إذ سمع رجلاً يقول مشيراً إلى باب الخليفة «هذا رب العزة، هذا الذي يطعمنا ويسقينا» فأخبر المنصور بما سمع فأجابه «يا هذيلي، يدخلهم الله النار في طاعتنا ويقتلهم أحب إلي من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا»[٣].

وهذه الاستفادة من دعوة متطرفة، ثم الانقلاب عليها بعد تحقيق الهدف لم تقتصر على العباسيين بل ظهرت في دعوة الفاطميين أيضاً. وخاف المنصور على نفسه بعد هجوم الرواندية عليه فأنشأ نظام (فرس النوبة) وهو أن تعد فرس أصيلة مسرجة ملجمة (أمام القصر دائماً) كي تكون جاهزة لاستعمالها عند الضرورة[٤].

د ـ وقامت في باذ عيس (سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م) حركة فارسية دينية أخرى تزعمها أشناس، وغرضها تنفيذ مبادىء بها فريد[٥].

هـ ـ استاذسيز:

وفي سنة ١٥٠هـ ثار أستاذسيز في خراسان وادعى النبوة فالتف حوله ثلاثمائة ألف واستطاع أن يبسط نفوذه على خراسان وأزعج الدولة كثيراً فوجه إليه المنصور قائده القدير خازم بن خزيمة فانتصر على الثوار بعد جهد كبير، وقتل منهم سبعين ألفاً في أثناء

---

(١) الدينوري ج ص ٣٨٠.

(٢) عن براون ج ١ ص ٣١٦ ـ ٧.

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٧٤ ـ ٥ ، انظر عن موقف العباسيين من الراوندية كتاب فلهاوزن المشار إليه سابقاً ص ٥٦٣ ـ ٤.

(٤) براون ج ١ ص ٣١٧.

(٥) ١٩٨. Barthold, o. c. p. 198 .

المعركة، وأربعة عشر ألفاً بعدها. ثم سلم أستاذسيز مع ثلاثين ألفاً من أتباعه، فأرسل إلى بغداد حيث قتل وأطلق سراح أتباعه(١).

٤ ـ العلاقات الخارجية:

ورث العباسيون النزاع مع البيزنطيين، وهو تتمة النضال القديم بين الشرق والغرب منذ حروب الفرس مع اليونان. ونزاعهما أمر لا بد منه لوجود الحدود المشتركة بين الدولتين في الأناضول وأرمينية من جهة، ولوجود مصالح إقتصادية متعارضة ناتجة عن الإشـراف على التجارة من الشرق إلى الغرب من جهة أخرى. فهناك طريقان بين الهند والصين وآسيا الوسطى وبين أوروبا الشرقية أحدهما بري يمر بإيران والقفقاس، والآخر (وهـوجنـوبي) بحري ويمر بالبصرة وبغداد والموصل فكان على التجارة أن تمر بأراض إسلامية وأن تدفع مكوساً للخليفة قبل أن تصل إلى القسطنـطينية التي ظلت مـركزاً للأسـواق التجاريـة في أوروبا الشرقية.

وقد أدى نقل العاصمة إلى العراق إلى إهمال الأسطول في البحر الأبيض المتوسط، كما أنه أبعد المركز عن الحدود البيزنطية وأصبحت فكرة الإستيلاء على القسطنطينية حلماً بعيداً لا هدفاً توجه إليه القوى والجهود بصورة منظمة ومستمرة كما كانت الحالة في العصر الأموي.

لذا استمرت الحروب بين الدولتين على شكل غزوات دون أن يكون لها هدف معين. فكان الخلفاء يرسلون الحملات إلى الاراضي البيزنطية في الصيف كوسيلة لتمرين الجنود على الأعمال العسكرية، ولإشغالهم وتأمين الغنائم اللازمة لهم. وكذلك لنيل مجد الإنتصار، ولتأييد فكرة ضرورة مجاهدة خليفة المسلمين للكفار لإظهار دينه وكانت تلك الغزوات تدعى بالصوائف.

إستغل البيزنطيون الفوضى السائدة في أواخر أيام الأمويين، فاسترجعـوا جزيـرة قبرص سنة ١٢٨هـ ـ ٧٤٦م. وفي السنة ١٣٣هـ ـ ٧٥١م تقدم الأمبراطور قسطنطين الخامس لحصار ملطية Miletene ففتحها وخربها، ثم فتح بولي Claudius ونقل سكانها إلى أراضي بيزنطية، وأرسل قائده الأرمني كوشن Kushan ضد Camacha، فاحتلها ثم تقدم إلى أرض روم Theodosiopolis ففتحهـا وخربهـا وأسر الحـاميـة، وحمـل سكـانهـا إلى الأراضي البيزنطية.

ثم استرجع العرب ملطية وعمروا سورها. وفي سنة ٧٥٩م إسترجعوا مدينة الحدث وحصنوها ووضعوا فيها حامية. وفي السنة التالية شغل قسـطنطين بـالحرب مـع البلغار،

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ٢٧٦ ـ ٨، اليعقوبي ج ٣ ص ١١٥، وبراون ج ١ ص ٣١٧.

فدحر العرب القائد الأرمني (بول) وقتلوه وأسروا إثنين وأربعين من قواده. ثم كان تبادل الأسرى في السنة ٧٦٦م. ثم حصن العرب (سميساط؟) Assamosata ونقلوا أهلها إلى فلسطين لاتهامهم بالتآمر مع العدو. وفعلوا مثل ذلك مع أهل مرعش وحصنوها ووضعوا فيها حامية ٧٦٩م. وفي سنة ٧٧٠م أخذوا Loadicae Combusta.

وبعد خمس سنوات سارت حملة عربية برية بحرية وحاصرت Syce، ولكنها لم تنجح، ورجعت مع كثير من الأسرى، ثم قدم الأمبراطور إقتراحات للسلم فرفضها العباسيون(١).

وعني المنصور بتحصين حدوده وخاصة تلك التي تواجه البيزنطيين. فيذكر البلاذري أنه «تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج إلى البناء منها. وفعل مثل ذلك بمدن الثغور»(٢).

وبنى المنصور مرعش(٣) والمصيصة (Mopsuestia) ثم حصن أهم ثغور الجزيرة وهي مدينة ملطية. فيروي البلاذري أن المنصور أمر ببنائها سنة ١٣٩هـ وجمع الصناع من كل بلد للإشتغال فيها فتم البناء في ستة أشهر. ثم يصف لنا ترتيب سكنى المقاتلة فيها قائلاً «وبني للجند الذين أسكنوها لكل عرافة بيتان سفليان وعليتان فوقهما وإصطبل «والعرافة عشرة نفر إلى خمسة عشر رجلاً» ثم يستطرد «وأسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها من ثغورهم.. ووضع فيها شحنتها من السلاح وأقطع الجند المزارع»(٤).

واهتم المنصور بحرب البيزنطيين فبنى مدينة الرافقة على الفرات سنة ١٥٥هـ على طرز مدينة بغداد، ورتب فيها الجند من أهل خراسان وذلك لتكون مركزه العسكري في غزواته الشمالية(٥).

ولم يكتف المنصور بتحصين الحدود البيزنطية بل اهتم بحدوده المواجهة للخزر (وهم على شمال غرب بحر قزوين) فبنى مدينة (كمخ) و (المحمدية) ومدينة (باب واق)، «وجعلها ردء للمسلمين وأنزلها المقاتلة» وذلك بعد تحرش الخزر واعتدائهم على أراضي المسلمين(٦).

والتفت المنصور إلى شمالي إفريقية فوجده مشتعلاً بثورات الخوارج والبربر فوجه

---

(١) انظر Cambridge Medieval History vol. IV p. 121 off

(٢) البلاذري ص ١٦٨.

(٣) شرحه ص ١٩٧.

(٤) شرحه ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٥) شرحه ص ١٨٧، الطبري ج ٩ ص ٢٨٨ وقد احتج سكان المحل على المنصور قائلين «تعطل علينا أسواقنا وتذهب بمعايشنا وتضيق منازلنا».

(٦) انظر اليعقوبي ج ٣ ص ١٠٧.

إليه يزيد بن حاتم المهلبي سنة ١٥٤هـ في خمسين ألفاً، فاستمر يناضل الثوار حتى سنة ١٥٥هـ (مارت سنة ٧٧٢م) فانتصر عليهم ودخل القيروان وأعاد النظام[١].

وحاول استرجاع الأندلس، فشجع العلاء بن مغيث اليحصبي أحد وجوه باجة على الثورة وأمده بقوات في إفريقية وولاه الأندلس سنة ١٤٦ هـ ٧٦٣م، فعبر العلاء إلى الأندلس في قوة كبيرة، ونزل ثغر باجة. وانضم إليه خصوم عبد الرحمن وخاصة الفهرية واليمانية واتسعت الثورة ولكن عبد الرحمن فاجأه ومزق جيشه وقتله، وبذلك انتهت أهم محاولة لاسترجاع الأندلس[٢].

وهناك أخبار لا نعرف مدى دقتها عن تبادل وفود بين المنصور وبين ملك الإفرنج الميروفنجيين (Merovingians) ففي سنة ٧٦٥م أرسل (پيپن) القصير وفداً إلى الخليفة، فرد المنصور بإرسال سفراء وصلوا البلاط الإفرنجي بعد ثلاث سنوات[٣].

٥ ـ الاداريات:

أ ـ **العاصمة**: تنقل أبو العباس بين ثلاث محلات، ولم يضع حلاً مرضياً لمشكلة العاصمة. فلما خلفه المنصور إهتم باختيار مركز لدولته، ولم يرتح إلى هاشمية الكوفة لأنها لم تكن منيعة كما أوضحت فتنة الراوندية. ثم إنها قريبة من الكوفة العلوية والتي كان المنصور يخشى أهلها حتى قال عنهم «أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتن.. (وأشار إلى الكوفة) فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا هي بسلم فأسالمها فرق الله بيني وبينها..»[٤] ويظهر أن الخليفة أراد أن ينشىء مدينة محصنة لتكون معسكراً لجيشه ومقراً لملكه في آن واحد.

وأخيراً وقع اختيار المنصور على موقع بغداد لأسباب متعددة، منها أنها على دجلة حيث العمارة على جانبي النهر، بينما كانت العمارة على الفرات تقتصر على ضفته الشرقية[٥]. فيروي المقدسي أن المنصور استشار بعض سكان منطقة بغداد فقالوا له «نرى أن تنزل أربع طساسيج (مناطق زراعية)، في الجانب الشرقي بوق وكلواذي وفي الغربي قطربل وبادوريا فتكون بين نخل وقرب ماء فإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان في الآخر فرج»[٦].

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٨٥ ـ ٦ دائرة المعارف الإسلامية مادة المنصور (ابو جعفر).

(٢) عنان ـ دولة الإسلام في الأندلس (القاهرة ١٩٤٣) ص ١٦٦ ـ ٧.

(٣) Reinaud-invasions des Sarrazins en France p. 89, p. 92.

(٤) المسعودي ج ٣ ص ٢٢٦.

(٥) انظر لسترنج ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية (تعريب بشير فرنسيس) ـ بغداد ١٩٣٦ ص ١٤.

(٦) المقدسي ـ أحسن التقاسيم ص ١١٩ ـ ١٢٠.

ثم لاحظ وقوعها في وسط العراق، «وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله وأنت قريب من البر والبحر والجبل»[١].

وانتبه لأهمية وقوعها على الطرق التجارية لأن ذلك يكفل تموينها ويسهل الإتصال بينها وبين أنحاء المملكة ويشجع التجارة. فعلى حد تعبير أهل المحل يخاطبون المنصور «تجيك الميرة في السفن الفراتية والقوافل من مصر والشام في البادية وتجيك الآلات من الصين في البحر ومن الروم والموصل في دجلة»[٢] ويقول اليعقوبي إن المنصور وصف بغداد بأنها «مشرعة للدنيا، كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والإبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فإليها ترقى وبها ترسي، وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان وأرمينية مما يحمل في السفن في دجلة، وما يأتي من ديار مضر والرقة والشام والثغر ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في الفرات فيها يحط وينزل، ومدرجة أهل الجبل وكورخراسان»[٣].

واهتم بحصانة موقعها، فقد قيل له «وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة فإذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصل إليك عدوك..»[٤] وعنى بتحصينها فأحاطها بسورين يدور حولهما خندق، وجعل على كل من أبوابها الأربعة برجاً للحرس، ووضع لها أبواباً حديدية محكمة وزاد في حذره بأن أحاط قصره ودواوينه بسور داخلي ثالث ليكون بمأمن من شغب الرعية[٥].

وأعجب المنصور بطيب هواء المحل وبجودة مناخه[٦] ولاحظ أنه «قليل البق»[٧].

وكان محل بغداد مأهولاً منذ الدور البابلي[٨]. وفي الدور الساساني كانت هناك قرية «تقوم بها للفرس في كل سنة سوق عظيمة ويجتمع بها في ذلك الموسم التجار»[٩] ولعل هجوم المسلمين على تلك السوق سنة ١٣هـ أدى إلى تدهورها[١٠] ولما جاء المنصور وجد ديراً للرهبان النساطرة[١١].

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٤٠، المقدسي ص ١٢٠.

(٢) المقدسي ص ١٢٠.

(٣) اليعقوبي - البلدان (النجف ص ٦.

(٤) الطبري ج ٩ ص ٢٤٠.

(٥) اليعقوبي ص ٧ - ٩ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١ (باعتناء سالمون) باريس ١٩٠٤ ص ١٣ - ٤).

(٦) المقدسي ص ١١٩.

(٧) الطبري ج ٩ ص ٢٤١.

(٨) لسترنج - بغداد ص ١٧.

(٩) إبن الجوزي - مناقب بغداد (بغداد ١٣٤٢) ص ٦ - ٧. وهنا رواية اخرى تقول بأن السوق كانت تقوم مرة في الشهر (لسترنج) ص ١٩، ابن الجوزي مناقب ص ٧.

(١٠) لسترنج ص ١٩، ابن الجوزي مناقب ص ٩.

(١١) اليعقوبي - البلدان ص ٦.

وتختلف الروايات في اشتقاق إسم بغداد، وإن كانت تتفق في أنـه فارسي ويـرجح لسترنج انه يتشكل من كلمتين (بغ) أي (الله) و (داذ) أي (تأسست) أو (تأسيس) فيكون معنى بغداد (أسسها الله)[١]

ولكن فؤاد افرام البستاني يبين أنه ورد في الآثار المسمارية الراجعة للألف الثاني عشـر قبل الميـلاد إسم (بغددو) أو (بكـددو) ولعـل ذلك يشيـر إلى بغـداد[٢]. ويفهم من المسعـودي أن الإسم آرامي. لعله يتكون من كلمتين (ب) مقتضبـة عن (بيت)، و(كـداد) بمعنى غنم أو قطيع فيكون معناها بيت الغنم أو الحظيرة. ومما يؤيد هذا التفسير أن البقعة نزلها الآراميون قديماً، كما تدل أسماء عدة أماكن في جوار بغداد كالكرخ والشمـاسية[٣]. ويؤيد هذا أيضاً قول الطبري «وكان في قرن الصراة مما يلي الخلد من الجـانب الشرقي قرية ودير كبير كانت تسمى سوق البقر»[٤].

أما تخطيط المدينة على شكل دائري فهو اتجاه جديد في فن بناء المدن الإسلامية كما لاحظ مؤرخو العرب. فيرى الخطيب البغدادي أن مزية الاستدارة هي كون المركز على مسافات متساوية من أجزاء الدائرة[٥]. ولعل المنصور تأثر بهنـدسة العـواصم الأسيويـة القديمة كمدينة أكبتان ـ محل همدان الحالية ـ عاصمة الميديين فإنها كانت محاطة بسبعة أسوار لا ترتفع عن بعضها إلا بمقدار المشارف، وكان محل قصر الملك وبيت ماله في وسط السور الداخلي، بينما تقع بيوت الرعية بين الأسوار[٦].

ويظهر الأثر الفارسي في تخطيط المدينة إذ فصل الخليفة عن الرعية وجعل له مقاماً سامياً يصعب الوصول إليه، كما أن ضخامة القصر والإيوان تظهر روعة الملك. ثم إن فكرة الاستدارة، وحصر بيوت السكان في أحياء منفصلة، يمكن غلقها ليـلاً وحراستهـا بصورة دقيقة يشير إلى السلطة المطلقة المقتبسة من الفرس والتي تتعارض مع أرستقراطية العرب الأمويين ومع الديموقراطية الإسلامية على حد سواء.

وليس غرضنا التحدث عن كيفية بناء المدينة فإن المعلومات عن ذلك متوفرة[٧] ولكننا نذكر بعض الملاحظات المفيدة.

فقد استغرق بناء المدينة المدورة ما بين ١٤٥ ـ ١٤٩هـ (٧٦٢ ـ ٦م). وقبل

---

(١) انظر لسترنج ص ١٧ ـ ١٨، ومناقب بغداد ص ٦، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، مادة بغداد.

(٢) انظر المقال القيم لفؤاد افرام البستاني في مجلة المشرق لسنة ١٩٢٤ ص ٦٦ ـ ٩.

(٣) مقال فؤاد افرام البستاني المار الذكر، ولسترنج ص ١٨م ٢.

(٤) الطبري ج ٩ ص ٢٤١.

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج ١ (طبعة سالمون) ص ١٠.

(٦) البستاني ـ المشرق ١٩٣٤ ـ ص ٧٦ ـ ٨.

(٧) راجع لسترنـج، اليعقوبي (البلدان)، يـاقوت ـ معجم البلدان، منـاقب بغداد، الخـطيب البغدادي، الطبـري ج ٩ ص ٢٤٠ وبعدها.

تخطيطها «وجه المنصور في إحضار المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين»[1] وجلب إليها الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل (غرب إيران) والكوفة وواسط والبصرة[2]. ثم اختار أربعة من ذوي الفضل والأمانة والمعرفة بالهندسة للإشراف على العمل، ومنهم أبو حنيفة وكان «يتولى القيام بضرب لبن المدينة وعده» وقد اخترع طريقة عد اللبن بالقصب[3].

واشتغل في بناء المدينة مائة ألف «من أصناف المهن والصناعات»[4] وأنفق عليها أربعة ملايين وثمانمائة وثلاث وثلاثون ألف درهماً[5]، هذا مع رخص الأجور والأسعار، إذ كان «الأستاذ من الصناع يعمل يومه بقيراط ($\frac{1}{6}$درهم) إلى خمس حبات والعامل البسيط بحبتين إلى ثلاث حبات، وسعر التمر ستين رطلاً بدرهم والسمن ثمانية أرطال بدرهم ولحم البقر تسعين رطلاً بدرهم ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم»[6].

ب ـ **السياسة الإدارية**: قال المنصور «ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على باب أعف منهم.. هم أركان الملك، **فقاض** لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر **صاحب شرطة** ينصف الضعيف من القوي والثالث **صاحب خراج** يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني، والرابع (ثم عض على إصبعه السبابة، ثلاث مرات في كل مرة يقول آه).. صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة»[7].

ولعل هذا القول يوضح لنا أسس الإدارة الصحيحة في نظر الخليفة، وهو يبين اهتمام الخليفة بالعدل قبل كل شيء. فيروي الجهشياري أن المنصور كان يقول «إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا العدل»[8]. ونلاحظ شدة ميله للعدل في الحكم من قصة يرويها الجهشياري مؤداها أن الجمالين الذين نقلوا أحمال المنصور في طريق الحج، إشتكوا إلى عامل المدينة عليه لأنه لم يعطهم أجوراً ترضيهم، فحكم العامل لهم على الخليفة وطلب منه إنصافهم، ففرح المنصور وقال لعامله «جزاك الله عن دينك وعن بيتك وعن حسبك وعن خليفتك أحسن الجزاء» وأمر له بعشرة آلاف دينار[9].

وكان المنصور يشرف بنفسه على كل شيء، فلم تكن لوزرائه سلطة فعلية. ويقول

---

(١) اليعقوبي (البلدان) ص ٦ ـ ٧.

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٤٠ ـ ١، مناقب بغداد ص ٨.

(٣) الخطيب البغدادي ج ١ ص ٨.

(٤) اليعقوبي (البلدان) ص ٧.

(٥) الطبري عن وثيقة رسمية ج ٩ ص ٢٦٣، الخطيب البغدادي ج ١ ص ٦ ـ ٧.

(٦) الخطيب البغدادي ج ١ ص ٦ ـ ٧.

(٧) الطبري ج ٩ ص ٢٧٩.

(٨) الجهشياري ص ١٣٦.

(٩) شرحه ص ١٣٧ ـ ٨.

الفخري «فلم تكن للوزراء في أيامه طائلة لاستبداده برأيه وكفاءته.. وكانوا (الوزراء) لا يزالون على وجل منه وخوف»[1]. ويظهر أنه استغنى عن الوزير في سنيه الأخيرة، فيذكر المسعودي أنه بعد أن استوزر وزيرين هما أبان بن عطية الباهلي وأبو أيوب المورياني الخوزي «ثم **استكتب** أبان بن صدقة إلى أن مات»[2].

وهذا الإشراف العام على كل صغيرة وكبيرة أدى بالخليفة إلى كثرة العمل ومواصلته ليل نهار، فكان يشتغل بصورة منتظمة موزعاً أوقاته بين مختلف الشؤون، «فكان شغله في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم. فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره. فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره في ذلك. فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه»[3].

واهتم باختيار عماله، وكان بعضهم من أهل بيته، فولى إسماعيل بن علي فارس وسليمان بن علي البصرة، وعيسى بن موسى الكوفة، وصالح بن علي قنسرين والعواصم، والعباس بن محمد الجزيرة، وجعفر بن سليمان المدينة[4]. وكان بعض عماله عرباً، ومن مشاهيرهم يزيد بن حاتم المهلبي والي إفريقية، ومعن بن زائدة الشيباني والي اليمن، وخازم بن خزيمة والي أرمينية، ومنهم المسيب بن زهير الضبي والحسن بن قحطبة الطائي. كما أنه أكثر من استخدم الموالي وقربهم فيبين السيوطي أن المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم[5]. ومن هذا يتضح أنه استخدم العرب والفرس في ولاياته[6].

وكان المنصور شديد المحاسبة لعماله، حتى ثقل عليهم «تفقده الأعمال ومراعاته لها»[7]. كما أنه فصل القضاء عن سلطتهم «فكان أول من ولى القضاة الأمصار من قبله»[8]. وزاد في كفاءة البريد ليطلع على أحوال الولايات، إذ كان من واجب عمال البريد بالإضافة إلى نقل الرسائل، التجسس على أعمال كبار الموظفين في مختلف أنحاء الأمبراطورية. فكان يطلب من عمال البريد أن يكتبوا إليه يومياً «بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل

---

(١) الفخري ١٢٨.

(٢) المسعودي ج ٣ ص ٢١٤.

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٩٩.

(٤) انظر اليعقوبي ج ٣ ص ١١٧ ـ ٨.

(٥) السيوطي ص ١٣٩.

(٦) انظر اليعقوبي ج ٣ ص ١١٨.

(٧) الجهشياري ص ١٣٩.

(٨) اليعقوبي ج ٣ ص ١٢٣.

مأكول (ليتلافى المجاعات) وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل بـه الوالي وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث»(١) وزاد ارتباط عمال البريد بالعاصمة رأسـاً في كفاءة هذه المراقبة فلم يخضعوا لنفوذ الولاة، ولذلك لا نستغرب إذا سمعنا أن المهدي نفسه كان خاضعاً لرقابتهم حينما عين والياً على غربي إيران(٢).

أما جيش المنصور فكانت فيه فرق عربية وأخرى خراسانيـة، وبين الفرق العـربية المضرية واليمانية. وحاول الخليفة أن يحفظ التوازن بين القسمين العربي والخراساني وإن كان جل اعتماده على الخراسانيين. واتخذ سياسة تفريق الجيش إلى أحزاب لئلا يجتمعوا عليه، وقد نجح في ذلك حتى قال له أحد جلسائه «قد فرقت بين جندك وجعلتهم أحزاباً كل حزب منهم يخاف أن يحدث عليك حدثاً فتضربه بالحزب الآخـر»(٣) ويظهـر أنه أخـذ هذه الفكرة بنظر الإعتبار حينما بنى بغداد(٤).

ولم يكتف بذلك، بل بنى الرصافة لتكون معسكراً لجيش ابنه المهدي بعد رجوعه من إيران، وليكون لديه في وقت واحد معسكران على جانبي دجلة، فإن فسد عليه أهل جـانب ضربهم بالجانب الآخر كما قال له قثم بن العباس(٥).

وكان المنصور يستعرض جيوشه من حين لآخر ليتأكد من كفـاءتهم وأهبتهم، وكان أحد عروضه الشهيرة سنة ١٥٧هـ(٦).

ج ـ **السياسة المالية**: يرى الماوردي أن المنصور قام بإصلاح مهم يتعلق بضرائب الأرض في السواد، وذلك أن الخراج كان يؤخذ بالنقد وعلى مساحـة الأرض زرعت أم لم تزرع حسب النظام الذي سنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد جعل تغير الظروف ذلك النظام مضراً بأحوال الزراع «لأن السعر نقص فلم تف الغلات بخراجها»، كمـا أن إهمال الأمـويين وضغطهم المـالي أدى الى خراب السـواد فوضـع المنصور نـظام المقـاسمـة ومضمونه أن يدفع الزارع جزءاً معيناً من محصوله كضريبة(٧)، وبذلك يبقى له مـا يكفيه. ويبين البلاذري أن المنصور توفي قبل أن يتم هذا الإصلاح فقام به المهدي(٨).

وكان المنصور لا يقبـل من دافعي الضريبـة إلا النقود الجيـدة، فيقول إبن الأثيـر «وكانت الهبيرية والخالديـة واليوسفيـة أجمل نقـود بني أمية ولم يكن المنصـور يقبل في

---

(١) لاحظ الطبري ج ٩ ص ٣١٤ ـ ٥.

(٢) انظر Noledke- Sketches From Eastern History, London 1892 p. 131

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٩٢.

(٤) انظر اليعقوبي ـ البلدان ص ١٠ ـ ١٣.

(٥) الطبري ج ٩ ص ٢٩٢.

(٦) شرحه ج ٩ ص ٢٨٨

(٧) الماوردي ـ الأحكام السلطانية ص ١٧٠، أبو يعلى ـ الأحكام السلطانية (القاهرة ١٣٥٧) ص ١٦٩.

(٨) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٢٨٠ ـ ١.

الخراج غيرها»[١] وقد جعل جباة الضرائب تحت رقابة دقيقة لئلا يظلموا أو يستأثروا بأموال الدولة.

ولجأ إلى مصادرة العمال الخائنين ليسترجع ما احتجنوه من أموال الدولة، كما فعل بخالد بن برمك بعد أن ولاه مقاطعة فارس إذ «ألزمه ثلاثة آلاف ألف درهم»[٢].

وكان المنصور قديراً في القضايا المالية يقتصد في النفقات، حتى أشرف على حساب بناء بغداد إلى أصغر التفاصيل. ويصفه بعض المؤرخين بالبخل ويلقبونه «أبا الدوانيق» ولكن هذا جهل وتحايف منهم وقد لا يبعد أن يكون هذا من دعايات رجال الحاشية التي تؤثر أن يكون الخليفة مبذراً لكي تستفيد منه[٣].

والحق أنه كان يجود إذا دعت الضرورة، ولكنه لا يعطي إلا إذا اقتضت ذلك مصلحة الدولة. وقد يكون المسعودي أدق من غيره حين قال «كان (المنصور) يعطي الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزماً ويمنع الحقير اليسير ما كان عطاؤه تضييعاً»[٤] فأكرم أهل الحجاز في إحدى حججه حتى «كانوا يسمون عامه عام الخصب»[٥] وأعطى عمومته في يوم واحد عشرة الآف ألف درهم[٦] ولكن يظهر أنه «كان المنع عليه أغلب»[٧]. وبالرغم من النفقات الكثيرة التي صرفها في بناء بغداد والرافقة، وفي القضاء على الثورات، فقد خلف في بيت المال عند وفاته ستمائة مليون درهم وأربعة عشر مليوناً من الدنانير[٨].

د ـ **ولاية العهد**: واهتم المنصور بأن يجعل ولاية العهد من بعده لابنه المهدي فاستطاع أن يقدمه على عيسى بن موسى في سنة ١٤٧هـ بعد أن استعمل أساليب الترغيب والارهاب مع عيسى، فصار العهد للمهدي أولاً، ولعيسى بن موسى من بعده[٩].

هـ ـ: وتوفي المنصور ولم ينس أن يرسم لابنه أسس السياسة الرشيدة في وصية هامة نقتطف فيما يلي شذرات منها تلقي ضوءاً على سياسة المنصور نفسه.

قال الخليفة لابنه «.. وانظر هذه المدينة (أي بغداد) فإياك أن تستبدل بها فإنها بيتك وعزك.. قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية

---

(١) ابن الأثير، في حوادث سنة ٧٦ هـ.

(٢) الجهشياري ص ٩٩.

(٣) انظر Noldeke, o. c. p. 133

(٤) المسعودي ج ٢ ص ٢٣٢.

(٥) الفخري ص ١١٦.

(٦) المسعودي ج ٢ ص ٢٣٢.

(٧) الفخري ص ١١٦.

(٨) المسعودي ج ٢ ص ٢٣٢. ويقول الجهشياري إنه خلف تسعمائة وستين مليوناً من الدراهم.

(٩) انظر الفخري ص ١٢٦ ـ ٧.

لأرزاق الجند والنفقات وإعطاء الذرية ومصلحة الثغور، فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً.

«وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقدمهم وتكثر الإحسان إليهم وتعظم أمرهم وتوطيء الناس أعقابهم وتوليهم المنابر، فإن عزك عزهم».

«وأوصيك بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم في أهله وولده.

«وإياك أن تدخل النساء في مشورتك..»(١).

وقال له «وانظر إلى مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدة أن نزلت بك»(٢). وأوصاه أن يسيء الظن بالعمال(٣).

٦ ـ تقرير

قال إبن الطقطقي عن المنصور يحق أنه «هو الذي أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد»(٤) فأصبح قدّوة للخلفاء من بعده. ولم يبالغ الفضل بن سهل وزير المأمون حين قال «إن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها في أيام أبي جعفر»(٥).

ولا شك أن المنصور ثبت أركان الدولة، ووطد الأمن فيها وأكد على العدل في الأحكام، فيرجع رفاه البلاد في عهدي المهدي والرشيد بالدرجة الأولى إليه.

وكان موفقاً في انتخاب العاصمة التي أصبحت مدار الحركة السياسية والتجارية ومركزاً للثقافة في الشرق الإسلامي.

ويقول نولدكه إنه ندر أن رأى الشرق من جمع مثل المنصور دهاء إلى تفكير لامع إلى أثر قوي مفيد في تطور الدولة(٦).

ولعل عبقرية المنصور تتضح في مقدرته على ابتكار السياسة المناسبة التي تتطلبها الظروف الخاصة، فبينما اتبع سياسة معينة، نجده يوصي إبنه بأن يدخل فيها بعض تعديلات لأنه اعتقد أن الظروف الجديدة تتطلب ذلك. ولعل العباسيين لم يروا مثل المنصور في بقية حكمهم.

---

(١) الطبري ج ٩ ص ١٣٩.

(٢) الأربلي ـ خلاصة الذهب المسبوك ص ٦٥.

(٣) المدور ـ حضارة الإسلام في دار السلام (القاهرة ١٩٠٥) ص ٦٨.

(٤) الفخري ص ١١٦.

(٥) الجهشياري ص ٢٧٧

(٦) Nöldeke-o. c., p. 145

ويمكننا أن نقول إن دور البناء ـ وهو الدور الأول ـ إنتهى بوفاة المنصـور فتقررت (بصورة تقريبية) سعة الدولة العباسية وأهمية المناطق التي تشكل منها بالنسبة لبعضها. كما رسمت خطوط السياسة العباسية العامة، فصار من خلف من العباسيين يقلد آثار سلفه. ووضع مبدأ اعتماد الخلفاء على القـوة والدهاء في تـوطيد أركـان الدولة وأصبحت سلطة الخليفة مطلقة. وما إستخدامه للموالي في وظائف الدولة إلا رمز لاستنادهم إلى شخصه في النفوذ بالإضافة إلى أنه يشير إلى **اشتراك** العناصر غير العربية في إدارة شؤون الدولة.

الفصل الخامس

المهدي

ذو الحجة ١٥٨ هـ ـ ٢٢ محرم ١٦٩ هـ / اكتوبر ٧٧٥ ـ ٤ آب سنة ٧٨٥م

---

١ ـ تمهيد

٢ ـ سياسته

٣ ـ مشاكله الداخلية

ا ـ الزنادقة

ب ـ ثورة المقنع

٤ ـ حروبه مع البيزنطيين

٥ ـ الاداريات

ا ـ الوزارة

ب ـ المالية

ج ـ الدواوين

د ـ تنظيمات ادارية أخرى

١ ـ تمهيد

اهتم المنصور بإعداد ابنه للمنصب الخطير واعتنى بتدريبه على الحرب والادارة فأرسله الى خراسان بصحبة القائد الكبير خازم بن خزيمة لإخماد ثورة الوالي عبد الجبار ابن عبد الرحمن سنة ١٤١ هـ وعمره خمس عشرة سنة، ثم أرسله على رأس حملة الى طبرستان. وعينه والياً على خراسان والجبال (ومقره الري) بين ١٤٨ هـ ـ ١٥١ هـ ولما رجع إلى بغداد سنة ١٥١ على رأس جيش خراساني بنى له الرصافة لتكون معسكراً لجنده.

وكان المهدي على حد قول المسعودي «كريماً.. بذول الأموال، حسن العفو، كريم الظفر، لا يدخله غفلة عند مخوفة ولا يتكل في الأمور على غير ثقة وصولاً لأرحامه براً بأهله، فيه لين جانب»(١) ويصفه الفخري بأنه «كان شهماً فطناً كريماً»(٢) ويقول الأربلي «وكان جواداً حليماً»(٣).

---

(١) المسعودي ـ التنبيه والإشراف ص ٢٩٧.

(٢) الفخري ص ١٣١.

(٣) الأربلي ص ٦٥.

وكان حسن الوجه والجسم أسمر طويلاً معتدل القامة جعد الشعر على عينه اليمنى نكتة بياض[١].

٢ ـ سياسته

جاء المهدي الى الحكم بعد انتهاء دور عنيف، ضرب فيه الخصوم دون رحمة وأريقت فيه الدماء، ونكل بالناس على التهمة، والأمة منهوكة والهدوء سائد على مضض. وكان الناس كما وصفهم المنصور مخاطباً ابنه «إني تركت الناس ثلاثة أصناف: فقيراً لا يرجو إلا غناك، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك، ومسجوناً لا يرجو الفرج إلا منك»[٢] فكان من الضروري اتخاذ سياسة تداوي الجروح وتضم ما تفرق. فاتبع المهدي سياسة رشيدة رسمها له أبوه في وصيته، ولعل العبارات الآتية من تلك الوصية تلخص بفصاحة هذه السياسة. قال المنصور «وليتسع انصافك وينبسط عدلك ويؤمن ظلمك، وواس بين الرعية في الاحتكام.. وأهل الدين فليكونوا أعضادك. واعط حظ المسلمين من أموالهم.. وتابع اعطياتهم عليهم وعجل بنفقاتهم اليهم سنة سنة وشهراً شهراً. وعليك بعمارة البلاد بتخفيف الخراج واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة. وليكن أهم أمورك اليك حفظ أطرافك وسد ثغورك وإكمال بعوثك. وآرغب الى الله عز وجل في الجهاد والمحاماة عن دينه وإهلاك عدوه»[٣].

حاول المهدي قبل كل شيء استرضاء الناس، فنظر في «دفتر القبوض» حيث سجل المنصور ما أخذه من أموال الناس بالمصادرة لجنايات مختلفة، فأحضر كل من أخذ منه مالاً وأرجعه اليه[٤]. ويبين الفخري أن المهدي فعل ذلك بوصية من أبيه إذ قال له «يا بني إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه الجناية والمصادرة وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليت أنت فأعده على أربابه ليدعو لك الناس ويحبوك»[٥].

ثم أمر بإطلاق كافة المسجونين «إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد أو من كان لأحد قبله مظلمة أو حق»[٦] أي أنه أطلق المجرمين السياسيين، ولم يكتف بذلك بل كسى ووصل كل من أطلقه[٧].

وحاول استرضاء العلويين، فأخرج من كان منهم في السجن «وأمر لهم بجوائز

(١) شرحه ص ٦٥، المسعودي التنبيه ص ٢٩٦ ـ ٧

(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٢٨.

(٣) شرحه ج ٣ ص ١٢٦ ـ ٧.

(٤) اليعقوبي ج ٣ ص ١٢٧.

(٥) الفخري ص ١١٥.

(٦) ابن الأثير ج ٦ ص ١٥، الطبري ج ٩ ص ٣٢٧.

(٧) اليعقوبي ج ٣ ص ١٢٧.

وصلات وأرزاق دارة»[١] كما ساعد استيزاره ليعقوب بن داوود على زيادة التفاهم معهم، فرضي عن الحسن بن إبراهيم الذي هرب من السجن واستخدم عدداً لا بأس به من الزيدية[٢].

واسترضى أهل الحجاز عندما حج سنة ١٦٠ هـ، فوزع عليهم أموالاً طائلة (ثلاثين مليوناً من الدراهم. ونصف مليون دينار ومائة وخمسين الف ثوب)[٣]. وارجع جرايات الحبوب من مصر إلى الحجاز بعد أن قطعها المنصور عقب ثورة محمد ذي النفس الزكية[٤] ووسع المسجد الحرام حتى توسطته الكعبة بعد أن كانت في جانب منه وحمل إليه الأساطين من مصر، ووسع مسجد الرسول في المدينة[٥].

ثم اصطفى لنفسه خمسمائة رجل من الأنصار وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة وجعلهم حرسه الخاص[٦]. ولعله أراد بهذا بالاضافة إلى استرضاء الحجازيين حفظ التوازن بين العرب والخراسانيين في الجيش.

وأراد أن يهدىء أهل الشام فزار دمشق وبيت المقدس، وحاول تسوية الخلاف بين القبائل في بادية الشام وفرق المال بينهم [٧].

ووصل أقرباءه وبر أهله ومواليه، وقرر لكل واحد من أهل بيته في كل سنة ستة آلاف درهم[٨]. وأكرم عامة أولاد المهاجرين والأنصار سنة ١٦٤هـ وفرق فيهم ثلاثة ملايين درهم[٩].

واهتم بإقامة العدل، فكان يجلس في كل وقت لرد المظالم[١٠]وانصف الناس حتى من نفسه، فيروي الطبري أن رجلاً شكى إلى القاضي (سنة ١٦٩ هـ) وكيلاً للمهدي اغتصب ضيعته، فحكم القاضي للرجل، فرد المهدي الضيعة إليه[١١]. وكان يشرك القضاة معه عند النظر في المظالم، ويقول «لو لم يكن ردي للمظالم الأحياء منهم لكفى»[١٢]وأراد بذلك

---

(١) شرحه

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣.

(٣) الطبري ج ٩ ص ٣٢٧.

(٤) ابن الاثير ج ٦ ص ١٩.

(٥) انظر اليعقوبي - ج ٣ ص ١٢٨ - ٩

(٦) ابن الاثير ج ٦ ص ١٩.

(٧) المدور - حضارة الأسلام ص ١٠٥.

(٨) الأربلي ص ٦٥.

(٩) شرحه ص ٧١.

(١٠) الفخري ص ١٣١، ابن الساعي مختصر اخبار الخلفاء (بولاق ١٣٠٩) ص ٢٣.

(١١) الطبري ج ١٠ ص ١٣.

(١٢) الفخري ص ١٢١، ابن الساعي ص ٢٣.

بالاضافة إلى حفظ العدل إحاطة الخلافة بجلال الدين. وبلغ به الاهتمام بالعدل أنه اتخذ بيتاً له شباك حديد تطرح فيه القصص (عرائض الشكايات) وتجمع بعد ذلك لئلا يبقى مجال للتقديم والتأخير في سماع الظلامات[١].

٣ ـ المشاكل الداخلية

١ ـ مطاردة الزندقة: يذكر الفخري أن المهدي كان شديداً على أهل **الالحاد والزندقة**، « لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم»[٢] ويبين الطبري[٣] وابن الأثير[٤] أن الخليفة «جدّ (سنة ١٦٧ هـ) في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق، وقتلهم» وأنه عين عمر الكلواذي لتعقبهم، ويضيف الجهشياري أن الكلواذي «طلبهم فظفر بجماعة منهم»[٥].

وقبل توضيح ما يقصد بالزندقة نبين أصل الاسم.

يقول براون Browne إن التفسير الاعتيادي هو أن «زنديق» صفة فارسية معناها «متبع الزند» أو الشروح القديمة للآفستا (كتاب زرادشت) وتفضيلها على النص المقدس، وإن المانوية سموا بالزنادقة لميلهم الى تأويل وشرح الكتب المقدسة للديانات الأخرى حسب آرائهم بطريقة تشبه التأويل عند الاسماعيلية فيما بعد[٦].

ويعطي بيڤن Bevan تفسيراً أقرب للقبول، وهو أن أبرار المانوية وزهادهم «الذين يفرضون على أنفسهم إيثار المسكنة وقمع الحرص والشهوة ورفض الدنيا والزهد فيها ومواصلة الصوم والتصدق بما أمكن وتحريم اقتناء شيء خلا قوت يوم واحد ولباس سنة، وإدامة التطواف في الدنيا للدعوة والارشاد»[٧] كانوا يدعون بالعربية «الصدّيقون» وواحدهم «صدّيق» ولعل الأصل الآرامي لهذه الكلمة Saddiquai فصارت بالفارسية (زنديك) ثم عربت على (زنديق) وهكذا أطلقت كلمة (زنديق) على المانوي أول الأمر ثم صارت تستعمل بمعنى ملحد فيما بعد[٨].

ويبين فون كريمر أن الزنادقة كانوا يعتقدون بالثنوية، وأنهم اتبعوا تعاليم ماني. ويثبت بمقارنة وصف الجاحظ لكتب الزنادقة من حيث المحتويات والاعتناء بالورق والخط

---

(١) الخضري ـ محاضرات (الدولة العباسية) القاهرة ١٩٢١ ص ٩٩.

(٢) الفخري ص ١٢١.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٩.

(٤) ابن الأثير ج ٦ ص ٥١.

(٥) الجهشياري ص ١٥٦.

(٦) انظر Browne, o. c. vol 1 p. 159

(٧) انظر البيروني ـ الآثار الباقية ص ٢٠٧ ـ ٨.

(٨) Browne, vol 1 p. 160

والتزيين [1] ووصف ابن النديم لكتب المانوية[2] أن كتب الزنادقة هي نفس كتب المانوية. ثم يذكر أن ابنة الشاعر الزنديق مطيع بن إياس اعترفت للرشيد بأنها تعلمت مبادىء ماني وقرأت كتاب المانوية المقدس[3].

ويشير ابن النديم الى رؤساء المانوية المتكلمين الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الزندقة[2] ويتحدث المسعودي عن «عشرة من الزنادقة ممن يذهب الى قول ماني»[4].

وهكذا نرى أن الزندقة أطلقت على المانوية. ومما ساعد على الاشتباه في أمر المانوية هو أن بعض شعائرها تشبه الشعائر الاسلامية كثيراً. فكان على أتباعها أن يصلوا سبع أو أربع صلوات يومياً وفي كل صلاة عدة ركعات وأن يتوضأوا قبل الصلاة وكان عليهم أن يصوموا أيضاً[5]. ومن الجهة الأخرى كانت المانوية تجمع آراء مسيحية وزردشتية فكان لها قابلية كبيرة على جلب المسيحيين والزردشتية إلى صفوفها[6].

ولكن يجب أن نلاحظ أن الزنادقة لم يكونوا جميعاً مانوية، وأن الاسم تدرج معناه فشمل جميع أتباع الديانات الفارسية الذين يظهرون الاسلام، ثم صار يشمل الملحدين أو المتشككين في الدين[7]. ويهمنا في هذا البحث بيان غايات الزنادقة أتباع الديانات القديمة ونظرة الدولة إليهم.

يظهر من المسعودي أن الزندقة أطلقت على ديانات أخرى تقرب من المانوية وأن دعايات الزنادقة قويت واشتدت في أوائل الدولة العباسية وظهر أثرها بصورة خاصة في خلافة المهدي. فيروى عن المهدي «أنه أمضى في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية الى العربية، وما صنف في ذلك ابن أبي العوجاء، وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن أياس من تأييد المذاهب المانوية والديصانية والمرقونية. فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس» [9] ويتضح من هذا أن الزنادقة كان يقصد بهم بصورة خاصة أتباع ابن ديصان ومرقيون بالاضافة الى أتباع ماني.

---

(١) انظر الجاحظ كتاب الحيوان ـ ج ١ ص ٥٥ (القاهرة ١٩٣٨).

(٢) انظر الفهرست ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠.

(٣) انظر Bukhsh- Islamic Civilization. Calcutta 1929, vol I p. 100 ff.

(٤) الفهرست ص ٤٧٣.

(٥) المسعودي ج ٣ ص ٢٣٢ ـ ٣٤.

(٦) لاحظ الفهرست ص ٤٦٥ ـ ٦

(٧) Bukhsh vol I p. 105-6

(٨) شرحه ص ١٠٠.

(٩) المسعودي ج ٤.

وقد أصاب المسعودي في إشارته إلى وجود صلة بين تلك المذاهب الثلاثة. ففي الديصانية والمرقونية آراء غنوصية[1] تأثر بها ماني وبصورة خاصة بآراء ابن ديصان حتى ان كرستنسن Christensen يعتبر ماني تلميذ ابن ديصان في الغنوصية[2] كما أن كلاً من ابن ديصان ومرقيون سبق ماني في المزج بين الزردشتية والمسيحية وتكوين مذهب خاص من الاثنين، فيقول البيروني «وكان ابن ديصان ومرقيون ممن استجاب وسمعا كلام عيسى وأخذا منه طرفاً، ومما سمعا من جهة زرادشت طرفاً واستنبط كل واحد من كلا القولين مذهباً يتضمن القول بقدم الأصلين، وأخرج كل واحد منهما انجيلاً نسبه إلى المسيح وكذب ما عداه»[3].

وكانت مذاهب ابن ديصان ومرقيون ثنوية كما يفهم البيروني، ويؤيده المقدسي[4] في ذلك.

وقد لاحظ ابن النديم القرابة بين المانوية وبين الديصانية والمرقونية، ويبين ان العالمين المتقابلين (النور والظلمة) عند ماني جسمانيان، بينما يرى ابن ديصان أن عالم النور معنوي حساس، وعالم الظلمة جسماني غير حساس. ثم يذكر أن المرقونية أقرب المذاهب الثلاثة إلى النصرانية وأنها تزعم «أن الأصلين النور والظلمة، وأن ها هنا أصلاً ثالثاً مزجها وخالطها»[5] ويضيف المقدسي أن مرقيون يقول إن الأصل الثالث «يخلق من هذا (أي النور) أو من هذا (أي الظلمة) ليس من جنسهما ولولاه لم يكن من طبعهما إلا التنافر»[6].

هذه نبذة موجزة عن علاقة المانوية بالديصانية والمرقونية، ومن أحب التفصيل فليراجع الفهرست، والبيروني، والمقدسي، والحضارة الاسلامية لبارتولد، وكرستنسن.

ولنبين الآن مفهوم الزندقة عند المهدي، كما يظهر هذا من قوله لابنه الهادي: «يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة (يعني أصحاب ماني) فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً، ثم تخرجها من هذه الى عبادة

---

(١) يبين بار تولد ان الغنوصية فلسفة وثنية. ويعرف محمد فؤاد كوبريلي «الغنوس» بـ «المعرفة العليا ذات الأسرار، وتسمى العقائد الدينية والفلسفية المختلفة التي تتصل بـ «غنوس» «الغنوسية». ويذكر أن مذاهب غنوسية مختلفة نشأت من الوثنية والمسيحية واليهودية، واختلطت عقائدها ببعضها، ثم بين ان الغنوسية تسعى لإيصال الروح إلى العلاء بإنقاذها من تضييقات العالم الجسمائي (انظر بارتولد ـ الحضارة الإسلامية ص ١١، ص ١٢.

(٢) Christensen, l'Iran sous les Sassanides (Copenhague 1936) p. 144.

(٣) البيروني ـ الآثار ص ٢٠٧، وص ٢٣.

(٤) المقدسي ـ البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٤.

(٥) الفهرست ص ٤٧٤ ـ ٥

(٦) المقدسي ج ٤ ص ٢٥

اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقلهم من ضلال الظلمة الى هداية النور»[١]. وهذا الوصف ينطبق بصورة عامة على المانوية[٢].

وقد اهتم المهدي بأمر الزنادقة، وعين موظفاً خاصاً يدعى (صاحب الزنادقة)[٣] لمطاردتهم ولم يكتف بذلك بل «أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين» بتصنيف الكتب في الرد عليهم[٤]. فكانت محاربته للزندقة من أظهر أمور حكمه. فهل كان ذلك لمجرد دافع ديني وهو القضاء على الحركات التي تهدد الدين بصفته خليفة المسلمين ليرضي بذلك الناس والفقهاء، أم كان لذلك مغزى آخر؟

لا شك أنه كان للعامل الديني أثره، ولكن هناك سبب سياسي هام لعب الدور الأول في هذه السياسة. فمع أن القلائل من الزنادقة كانوا عرباً مثل صالح بن عبد القدوس ومطيع بن أياس إلا أن عامتهم كانوا فرساً[٥]. وقد رأى هؤلاء أن السلطة لا زالت في يد عائلة عربية وأنهم خاضعون لنفوذ أجنبي، بينما هم يريدون أن تكون الدولة فارسية في كل شيء. وهذا لا يتحقق والاسلام على قوته، فحاولوا إضعافه بنشر الديانات الفارسية القديمة وسعوا من وراء ذلك لقلب النظام القائم، لأن أساس الخلافة ديني ولأن اتحاد الدين بالسياسة وتناصرهما كان ركن الدولة العباسية. فالزندقة بإضعافها للدين الاسلامي تضعف سلطان الخليفة وتهدم أساس الدولة وتفسخ مقومات المجتمع[٦].

وقد أدرك الجاحظ أن الكره للسلطان العربي وللاسلام هو الدافع الأساسي لحركة الزندقة حين قال: «فإنما عامة من ارتاب بالاسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف»[٧].

وتتضح نوايا هذا الصنف من الزنادقة من التهم الموجهة للأفشين قائد المعتصم بأنه حاول قلب الخلافة والقضاء على سلطان العرب وإعادة الملك الفارسي والدين المجوسي[٨]. ولكن يجب أن لا ننسى أن الاتهام بالزندقة كان يستخدم أحياناً كوسيلة للقضاء على

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٤٢.

(٢) انظر كرستنسن ص ١٨٤ ـ ١٩٢، وبراون ج ١ ص ١٥٤ ـ ١٦٦ عن المانوية.

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٧٢.

(٤) المسعودي ج ٤ ص ٢٤٢.

(٥) كريمر في Bukhsh, o. c. vol I p. 107

(٦) انظر ضحى الإسلام ج ١ ص ١٣٩ ـ ١٤٤، وامير علي ـ تاريخ العرب (النص الإنكليزي) ص ٢٣٢.

(٧) الجاحظ البيان والتبيين ج ٣ ص ١٤.

(٨) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٧.

الخصوم كما في حالة ابن المقفع وأبي عبيدالله بن يسار وزير المهدي(١).

وأخيراً نقول أن حركة الزندقة لم تكن منظمة كما أن مطاردتها في خلافة المهدي كانت نتيجة طبيعية لتطور العلاقات بين العباسيين وبين العناصر الفارسية المتطرفة. فبعد أن أخمد المنصور الحركات الثورية العلنية، انفسح المجال في خلافة المهدي الهادئة نسبياً لمطاردة العناصر الخطرة التي كانت أكثر تستراً وهدوءاً.

ب ـ ثورة المقنع: (١٥٩ ـ ١٦٣ هـ/ ٧٧٦ ـ ٧٧٩: ٨٠ م)

واسمه هاشم بن حكيم(٢)، وقيل عطاء(٣) وقيل حكيم(٤)، من قرية من قرى مرو تدعى (كاوه كيمردان)(٥) وكان في بدء أمره قصاراً في مرو(٦) وقد لقب «بالمقنع» لأنه تبرقع بحرير أخضر على بعض الروايات(٧)، أو لأنه اتخذ وجهاً من ذهب على وجهه لئلا يرى كما تذكر روايات أخرى(٨). وكان سبب تبرقعه في زعمه هو أن الأحياء لا يستطيعون تحمل نوره، بينما يرى المؤرخون المسلمون أنه كان أعور مشوه الخلقة فأراد اخفاء نقائصه الجسمية(٩).

وكان أصل معتقده الحلول والتناسخ(١٠) وادعى الربوبية. فيقول البيروني «وادعى (المقنع) الإلّهية وأنه تجسد إذ ليس لأحد أن ينظر إليه قبل التجسد» ولكنه لم يظهر ذلك لجميع اتباعه(١١). وكان يقول «إن الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح وهلم جراً (يقصد بذلك إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد) إلى أبي مسلم الخراساني، ثم تحول الى هاشم، وهاشم في دعواه هو المقنع»(١٢).

واشتهر المقنع بقمر أظهره للناس فكانوا يرونه من مسافة شهر من محله(١٣) وقد وصفه لنا القزويني في حديثه عن مدينة نخشب، إذ يقول «نخشب مدينة مشهورة بأرض

---

(١) انظر الجهشياري ص ١٠٤ ـ ١١٠، الفخري ص ١٣٢ ـ ٣

(٢) البيروني، ابن الأثير، الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٤٤.

(٣) ابن الساعي ـ الخلفاء ص ٢٣، ابن خلكان ج ١ ص ٣١٩، الوطواط غرر الخصائص الواضحة (١٢٩٩هـ) ص ١٦٩.

(٤) وجيه فارس الكيلاني ـ الدعاة من المتألهين والمتنبئين والمتمهدين (القاهرة ١٩٢٣) ص ١٢.

(٥) البيروني ص ٢١١، الفرق بين الفرق ص ٢٤٣.

(٦) ابن خلكان ج ١ ص ٣١٩، الوطواط ـ غرر ص ١٦٩، الفرق بين الفرق ص ٢٤٣.

(٧) البيروني، الفرق بين الفرق.

(٨) الوطواط، ابن الأثير ج ٦ ص ١٣، الفخري ص ١٣٢، ابن الساعي ص ٢٣، ابن خلكان.

(٩) الفرق بين الفرق ٢٢٤، انظر براون ج ١ ص ٣١٩.

(١٠) الوطواط ص ١٦٩.

(١١) البيروني ص ٢١١، ابن الأثير ج ٦ ص ١٣.

(١٢) الفخري ص ١٣٢، ابن الأثير ج ٦ ص ١٣.

(١٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣١٩.

خراسان.. وينسب إليها الحكيم بن المقنع (كذا) الذي أنشأ بنخشب بئراً يصعد منها قمراً يراه الناس مثل القمر واشتهر ذلك في الآفاق والناس يقصدون نخشب لرؤيته ويتعجبون منه. وعوام الناس يحسبونه سحراً، وما كان إلا بطريق الهندسة وانعكاس شعاع القمر لأنهم وجدوا في قعر البير طاساً كبيراً مملوءاً زيبقاً. وفي الجملة قد اهتدى الى أمر عجيب سار في الآفاق واشتهر حتى ذكره الناس في الاشعار والأمثال وبقي ذكره بين الناس»(١).

والآن لنرى من أين جاء المقنع بآرائه وما هو سرّ انتشار دعوته؟

يظهر أن حركة المقنع متصلة بدعوة أبي مسلم. فقد كان المقنع من الرزامية كما يقول البغدادي(٢) والشهرستاني، والرزامية كما بينا سابقاً فرقة من الراوندية «ظهروا بخراسان في أيام أبي مسلم» وبتأثير دعوته، وتطرفوا في تقديسهم له لأنهم اعتقدوا بإمامته وكانوا يقولون بالحلول والتناسخ فيذكر الشهرستاني أنهم «ساقوا الامامة إلى أبي مسلم فقالوا له حظ في الامامة وادعوا حلول روح الاله فيه وقالوا بتناسخ الأرواح»(٣).

كما أن المبادىء الخرمية التي كان لها أثر في الحركات الدينية السابقة ظهرت في تعاليم المقنع. فيقول البيروني أن المقنع أباح لاتباعه «الأموال والفروج.. وشرع لهم جميع ما أتى به مزدك»(٤). ويقول البغدادي «وكان المقنع قد أباح لأتباعه المحرمات وحرم عليهم القول بالتحريم وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات» (٥).

إذن كانت مبادىء المقنع في أساسها خرمية فارسية، وصبغتها قومية لأن الرزامية نقلت الامامة من العباسيين الى الزعيم الفارسي أبي مسلم، فهي بذلك لا تعترف بإمامة العباسيين أو بسلطتهم. ولهذا نجد أتباع أبي مسلم يؤيدون المقنع ويساهمون في ثورته، ويظهر هذا من قول ابن الأثير «وظهرت المبيّضة ببخارى والصغد معاونين له» (٦) وقول البيروني «واجتمع اليه المبيضة» (٧)وقول الشهرستاني «وتابعه مبيضة ما وراء النهر»(٨) وقد كان المعنى الأول العام لكلمة «مبيضة» كل مناوىء للعباسيين، ولكنها اقتصرت في خراسان وما وراء النهر على أنصار أبي مسلم وحزبه الذي ظل يذكر فقد زعيم قومي مقدس(٩). ومما يؤيد هذا الرأي قول الشهرستاني «مبيضة ما وراء النهر.. من الخرمية

---

(١) القزويني ـ آثار البلاد وأخبار العباد (باعتناء وستنفلد. جو تنجن ١٨٤٨) ص ٣١٢.
(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٤٣.
(٣) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠٦.
(٤) البيروني ص ٢١١.
(٥) الفرق بين الفرق ص ٢٤٣.
(٦) ابن الأثير ج ٦ ص ١٣.
(٧) البيروني ص ٢١١.
(٨) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠٦.
(٩) انظر بارتولد ـ تركستان ص ١٩٨.

دانوا بترك الفرائض وقالوا الدين معرفة الامام فقط»[١].

وهكذا اجتمعت المبيضة حول المقنع رغبة في التخلص من سلطان العباسيين. ومما يبين أن أساس الحركة سياسي هو اشتراك جميع العناصر الساخطة على العباسيين لأسباب سياسية مختلفة في هذه الثورة. فكان أمير بخارا المحلي (بخارا خدات) يؤيد الثوار ولهذا السبب قتل بعد فشل الثورة[٢]. واستنجد المقنع بخاقان الترك، وفعلاً «اعانه كفار الأتراك» كما يذكر ابن الأثير[٣]، بينما يذكر البغدادي أن «الأتراك الخليجية» كانوا معه[٤]. ولا شك أن سبب عداء الأتراك للعباسيين كان سياسياً.

والظاهر أن أتباع المقنع كانوا كثيرين، فيذكر الفخري وابن الأثير «أنه تابعه خلق من ضلال الناس وكانوا يقولون في الحرب يا أبا هاشم اعنا»[٥] ولما ضيق القائد العباسي سعيد الحرشي عليه الحصار، تخلى عنه ثلاثون ألفاً من أتباعه واستأمنوا الى العباسيين وبقي معه الفان[٦].

ورغم أن الثورة بدأت في خراسان إلا أن المقنع عبر نهر جيحون الى نواحي كش ونسف وهناك لاقى نجاحاً كبيراً، وكان مركز المبيضة بمنطقة بخارا في مدينة (نرشخ). واعتصم المقنع في أواخر أيامه في قلعة (بسباب) بجوار (كش)[٧]، وقد كانت قلعة حصينة محاطة بخندق عظيم[٨].

ثم قضي على ثورة المقنع ولكن نهاية حياته يحوطها بعض الغموض والأرجح أنه أحرق نفسه في اللحظة الأخيرة فكان لذلك أثر هام لأنه «زاد في افتتان من بقي من أصحابه والذين يسمون المبيضة بما وراء النهر»[٩] حتى زعموا أنه صعد إلى السماء[١٠]! ويقول ابن العبري أن المقنع وعد أصحابه «أن تتحول روحه الى قالب رجل أشمط على برذون أشهب، وأنه يعود إليهم بعد كذا سنة ويملكهم الأرض. فهم بعد ينتظرونه[١١]!

ولم يقض على مبادىء المقنع بإخماد ثورته. بل بقي كثير من المتمسكين بها فيشير

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠٦.

(٢) انظر بارتولد ـ تركستان ص ٩٩ ـ ٢٠٠.

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ١٣.

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٤٤

(٥) الفخري ص ١٣٢، ابن الأثير ج ٦ ص ١٣.

(٦) ابن الأثير ج ٦ ص ١٧،الفرق بين الفرق ص ٢٤٤.

(٧) ابن خلكان ج ١ ص ٣١٩، ابن الأثير ج ٦ ص ١٧.

(٨) الفرق بين الفرق ص ٢٤٤ يصف تحصينات هذه القلعة.

(٩) ابن الأثير ج ٦ ص ١٨.

(١٠) ابن العبري ـ مختصر اخبار الدول (بيروت ١٨٩٠) ص ٢١٨.

(١١) الفرق بين الفرق ص ٢٤٤.

الجغرافي العظيم المقدسي (كتب بين ٩٨٥ ـ ٩٩٧م) الى المبيضة قائلاً: وبرساتيق هيطل (قرب يخارا) أقوام لهم بيض الثياب، مذاهبهم تقارب مذاهب الزندقة[١] ويتكلم البغدادي (المتوفى سنة ١٠٣٧ م) عن المقنعية إذ يقول «وأتباعه «المقنع» اليوم في جبال إيلاق (في ما وراء النهر) أكرة أهلها»[٢] ويبين البيروني (المتوفى سنة ١٠٤٨م) أن أتباع المقنع «بما وراء النهر يدينون بدينه (أي المقنع) مستخفين منتحلين في الظاهر للاسلام[٣] ويفهم من ابن العبري (المتوفى سنة ١٢٨٦م) أن المبيضة كانوا موجودين في بلاد ما وراء النهر في القرن الثالث عشر وأنهم ينتظرون عودة المقنع[٤].

٤ ـ المهدي والبيزنطيون

وسار المهدي على خطة والده في الاهتمام بتحصين الحدود، ويقول البلاذري «لما استخلف المهدي استتم ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها»[٥] وأبدى نشاطاً في إرسال الحملات ضد البيزنطيين.

ففي سنة ١٥٩ هـ (٧٧٦م) أرسل ليون الرابع حملة ضد سميساط فأسرت كثيراً من الأسرى. فبعث الخليفة حملة قوية تغلغلت في الأراضي البيزنطية حتى وصلت انقرة ولكنها لم تفتحها[٦].

وفي سنة ١٦٢ هـ/ ٧٧٩م تقدم البيزنطيون على الحدث وخربوا سورها واستمروا في التخريب حتى قرب الحدود السورية. فغزا الصائفة الحسن بن قحطبة في نفس السنة بجيش من ثلاثين ألف مرتزق من العراق والحجاز، وسار من جهة طرسوس فأكثر التخريب والتدمير في بلاد الروم دون أن يفتح حصناً[٧]. وفي السنة ١٦٣ هـ/ ٧٨٠م قرر الخليفة أن يسير بنفسه، فجهز حملة جمع فيها الجند من مختلف انحاء الامبراطورية، وأقام نحواً من شهرين يتهيأ. ثم سار بصحبة ابنه هارون الى الحدث عن طريق حلب. وكان الحسن بن قحطبة قد أشار عليه بتحصين طرسوس وشحنها بالمقاتلة لأهميتها العسكرية في الحرب مع البيزنطيين، ولكن الخليفة أمره أن يبدأ بمدينة الحدث، فبنيت (وتم بناؤها سنة ٧٨٥م). وتقدم المهدي الى (البستان Arabissus) ثم رجع تاركاً القيادة لابنه هارون، فسار الأمير

---

(١) المقدسي ـ احسن التقاسيم الى معرفة الأقاليم ص ٣٢٣.

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٤٤ ـ ٥.

(٣) البيروني ص ٢١١.

(٤) ابن العبري ص ٢١٨.

(٥) البلاذري ـ ص ١٧٦.

(٦) Cambridge Medieval History, vol. II. P. 123.

(٧) البلاذري ص ١٧٦، الطبري ج ١٠ ص ٣٤٢، ابن الأثير ج ٦ ص ٣٩.

الى حصن (سمالو) وحاصره ثمانياً وثلاثين ليلة سلمت بعدها الحامية. وبعد هذه الحملة احتل العرب طرسوس وحصنوها بأمر الخليفة(١).

وفي هذه السنة توفي ليون فحكمت زوجته أغسطة Irene كوصية على ابنها الصغير قسطنطين. وفي سنة ١٦٤ هـ قاد الصائفة عبد الكبير فردته الجيوش البيزنطية بقيادة ميخائيل M. Lachandoraco، فغضب الخليفة على عبد الكبير لجبنه وسجنه. وجهز في السنة التالية (١٦٥هـ/٧٨٢م) حملة قوية (من ٩٥,٧٩٣ جندي) بقيادة الأمير هارون يصحبه الربيع بن يونس وكانت في الجيش فرق من الشام والجزيرة وخراسان وبلاد العرب. فافتتح هارون حصن (ماجدة) وتقدم حتى البوسفور واضطر الامبراطورة أغسطة الى طلب الصلح. فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات على أن تدفع الأمبراطورة جزية سنوية مقدارها تسعون أو سبعون ألف دينار وأن تجهز الجيش بالادلاء وتسهل له التموين في طريق الرجعة. ثم حصّن هارون المصيصة وزاد في حاميتها.

وكانت غنائم المسلمين من هذه الغزوة عظيمة حتى بيع البغل باقل من عشرة دراهم والدرع بأقل من درهم وعشرين سيفاً بدرهم. وقد قال مروان بن أبي حفصة يخاطب الرشيد:

أطفت بقسطنطينة الروم مسنداً　　إليها القنى حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها　　بجزيتها والحرب تغلي قدورها(١)

ويظهر أن البيزنطيين نقضوا الصلح سنة ١٦٨هـ/٧٨٥م فاستمرت الحرب دون جدوى حتى وفاة المهدي.

٥ ـ الاداريات

أ ـ كان عهد المهدي عهد استقرار سياسي وإداري، وقد أصاب ابن الطقطقي في قوله «وفي أيامه ظهرت أبهة الوزارة(٢). إذ كان الخليفة يعطي وزراءه سلطة واسعة. فقد استوزر أبي عبيدالله بن يسار (١٥٩ ـ ١٦٣هـ) الذي كان كاتبه ونائبه قبل الخلافة(٣) «وفوض إليه تدبير المملكة وسلم إليه الدواوين»(٤) ثم استوزر بعده يعقوب بن داوود فسماه (أخاً في الله ووزيراً وأخرج بذلك توقيعات تثبت في الدواوين»(٥) وفوض الأمور إليه(٦)

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٤٢ ـ ٥، ابن الاثير ج ٦ ص ٤٠ ـ ١، البلاذري ص ١٧٦.

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٤٦، ابن الاثير ج ٦ ص ١٤ و C. M. H. Vol. II. p. 125

(٢) الفخري ص ١٣٣.

(٣) الجهشياري ص ١٤٦.

(٤) الفخري ص ١٣٤.

(٥) الجهشياري ص ١٥٥.

(٦) المسعودي ج ٧ ص ١٣٦.

ويقول الجهشياري «وتفـرد يعقوب بتـدبير الأمـور كلها»، ثم يقـول في محل آخـر «وغلب (يعقوب) على أمره (أي المهدي) كله ووزارته»[1] وفيه يقول بشار: «ان الخليفة يعقوب بن داوود»[2].

ثم نلاحظ بادرة أخرى وهي أن الدسائس والسعايات تلعب دوراً هاماً في تعيين وعزل الوزراء. فعزل ابن أبي يسار لكره الربيع بن يونس له ولدسائسه عليه، وكـان ذلك لأسباب شخصية[3] إذ اعترف الربيع بأن الوزير «ليس بجاهل في صناعته، وأنه لأحذق الناس، وما هو بظنين فيما يتقلده لأنه أعف الناس. وليس بمتهم بانحراف عن هذه الدولة لأنه ليس يؤتى من ذلك وليس يتهم في دينه لأن عقده وثيق»[4]،وكان للربيع أثر كبير في استيراز يعقوب بن داوود[5].

ثم نكب يعقوب حوالي سنة ١٦٦[6] وهناك رأيان في سبب نكبته، فالرأي السائد يعزو ذلك إلى ميله للطالبيين[7]، والثاني وينفرد به المسعودي وهو «أنه كان يرى الإمامة في الأكبر من ولد العباس وأن غير المهدي من عمومته كان أحق بها»[8] ومهما كان الأمر فإن سبب النكبة سياسي يتعلق بسلامة الدولة.

وأخيراً نجد أن تعيين هؤلاء الوزراء لم يكن كمكافئة على خدمات هامـة سابقـة، أو لنفوذ قوي في الدولة، بل لمقدرتهم الكتابية والادارية.

ب ـ المالية: يقول الجهشياري «كان أبو عبيدالله يضبط أمور المهدي ويشيـر عليه بالاقتصاد وحفظ الأموال «فلما وزر يعقوب» زين له هواه فأنفق المال واكب على اللذات[9]. وكان المهدي بطبعه مبذراً فـ «بسط يده في إعطاء الأموال فكانت النتيجة أن «أذهب جميع ما خلفه المنصور.. سوى ما جباه في أيامه»[10]حتى كان بيت المال أحياناً عرضة للافلاس التام.

ومع هذا، فلم يرهق المهدي رعيته في الجباية بل حاول أن يرفـه عنها وخـاصة في سنيـه الأولى. فإليـه ينسب البلاذري إبـدال الخراج النقـدي على المساحـة في الغـلات

---

(١) الجهشياري ص ١٥٦ وص ١٥٧.

(٢) الفخري ص ١٣٦.

(٣) انظر التفاصيل في الجهشياري ص ١٥٠ وبعدها، الفخري ص ١٣٤ ـ ٥

(٤) الجهشياري ص ١٥٣.

(٥) الفخري ص ١٣٦، الجهشياري ص ١٥٥.

(٦) لاحظ الجهشياري ص ١٦١.

(٧) الطبري ج ١٠ ص ٤ ـ ٦، الفخري ص ٣٦ ـ ٧، الجهشياري ص ٠٦٠ ـ

(٨) المسعودي ج ٣ ص ٢٣٦.

(٩) الجهشياري ص ١٥٩.

(١٠) المسعودي ج ٣ ص ٢٧٦.

والزروع بنظام المقاسمة[1] ويبين الفخري أن ذلك كان بإشارة من وزيره أبي عبيد الله[2] كما أن ذلك الوزير أشار عليه بتحديد نسبة المقاسمة، فقلل بذلك من عسف الجباة. فجعلت النسبة النصف على ما سقي سيحاً، والثلث على ما سقي بالدوالي (مثل الكرود) والربع على ما سقي بالدواليب (كالنواعير)[3]. وأما خراج الكرم والنخل والشجر فإنه بقي على النظام القديم ولكنه روعي فيه القرب من الأسواق والمؤانيء بالاضافة الى جودة الحاصل أو رداءته [4].

ولما أرسل المهدي خالداً البرمكي والياً على فارس «قسط الخراج على أهلها ووضع عنهم خراج الشجر وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلاً» [5].

وحاول الخليفة أن يخفف من مساويء طرق الجباية فكتب الى جميع العمال «برفع العذاب عن أهل الخراج»[6].

ولكن المهدي زاد في أواخر أيامه على ما يظهر نسبة المقاسمة فجعلها ٦٠٪ كما أنه أحدث ضريبة على الأسواق فيروي اليعقوبي «وأمر المهدي بجباية أسواق بغداد، وجعل عليها الأجرة، فكان أول ما جبيت أسواق بغداد للمهدي»[7]. وربما كان لافلاس الخزينة في سني حكمه الأخيرة أثر في ذلك.

جـ ـ تنظيمات إدارية

توسعت الدواوين على ما يظهر وكثر عددها في الفترة المنصرمة من تأسيس الدولة الى أيام المهدي، فأدى ذلك إلى إنشاء دواوين (الأزمة) وهي دواوين صغيرة للاشراف على دواوين الدولة. فيذكر الطبري «وأول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيغ في خلافة المهدي وذلك أنه لما جمعت له الدواوين تفكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان، فاتخذ دواوين الأزمة وولي كل ديوان رجلاً»[8] وكان ذلك سنة ١٦٢ هـ[9].

ويقول الجهشياري «وقلد (المهدي) عمر بن بزيغ دواوين الأزمة في سنة اثنتين وستين ومائة، وقد قيل إن المهدي أول من أحدثها»[10]. ثم يبين الجهشياري أن المهدي

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص ٢٨٠ ـ ١.

(٢) الفخري ص ١٣٤.

(٣) الماوردي ـ الأحكام السلطانية ص ١٧٠، ابو يعلى ص ١٦٩.

(٤) شرحه.

(٥) الجهشياري ص ٠٥٦.

(٦) شرحه ص ١٤٢ ـ ٣.

(٧) اليعقوبي ج ٣ ص ١٣٤.

(٨) الطبري ج ١٠ ص ١٠١.

(٩) الطبري ج ٩ ص ٣٤٢.

(١٠) الجهشياري ص ١٤٦.

أنشأ في سنة ١٦٨ ديوان «زمام الأزمة»(١). وهذه التنظيمات تتمشى مع تطور الدولة العباسية واتجاهها نحو المركزية القوية في الادارة.

وأراد المهدي أن يتأكد من وصول رسائله إلى العمال بصورة منتظمة، فأمر يعقوب بن داود سنة ١٦١ هـ «بتوجيه الأمناء في جميع الآفاق فعمل به فكان لا ينفذ للمهدي كتاب الى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب بن داوود إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك»(٢).

ثم جعل يوم الخميس يوم عطلة للكتاب لقضاء شؤونهم وللراحة بينما كانت الجمعة عطلة للعبادة والصلاة. وقد استمر هذا الوضع حتى خلافة المعتصم(٣).

وأقام البريد بين مكة والمدينة واليمن سنة ١٦٦ هـ وكان أول من وضع ذلك واستعمل البغال والابل فيه(٤).

وفي سنة ١٦١ هـ اتم بناء المحطات والبرك بين القادسية ومكة، وكان أبو العباس بدأ ذلك فبنى المحطات بين القادسية وبين زبالة وهي على بعد ثلثمائة ميل الى الغرب، كما بنى أبو جعفر بعض المنازل، فأمر المهدي «ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية الى زبالة وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وبتحديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع»(٥).

ونظم المهدي أمر النظر في المظالم فأنشأ مجلساً خاصاً لرد المظالم وذلك ليحمي الرعية من تعدي الولاة وجورهم وخاصة في قضايا الضرائب والأراضي(٦).

وعني بأمر المرضى والمسجونين فأمر سنة ١٦٣ «أن يجري على المجذمين وأهل السجون في جميع الآفاق»(٧) ويذكر المقدسي أنه «وضع دور المرضى وأجرى على العميان والمجذمين والضعفى»(٨).

والخلاصة أن الهدوء الداخلي ساعد الخليفة على تنظيم الادارة وعلى الاهتمام بخير الرعية وبشؤونها الداخلية.

---

(١) شرحه ص ١٦٦ ثم يضيف «احسب ان من ذكر أن المهدي أول من احدث الازمة انما اراد أزمة الازمة» ولكننا لا نجد اية اشارة الى وجود دواوين الأزمة في خلافة المنصور.

(٢) الطبري ص ٣٢٩.

(٣) الجهشياري ص ١٦٦.

(٤) الطبري ج ١ ص ٨، ابن الأثير ج ٦ ص ٣٤.

(٥) الطبري ج ٩ ص ٣٢٨، ابن الأثير ج ٦ ص ١٩.

(٦) المدور الطبعة الأولى ص ٦٥ ـ ٦.

(٧) الطبري ج ٩ ص ٣٤٢.

(٨) المقدسي ج ٦ ص ٩٦.

د ـ ولاية العهد

واستعمل المهدي طريقة الارهاب والترغيب مع عيسى بن موسى ليخلع نفسه من ولاية العهد، والظاهر أنه حرك الشيعة العباسية بخراسان الى المطالبة بخلع عيسى والبيعة لموسى (الهادي).

فلما طلبت الشيعة العباسية ذلك، كتب المهدي الى عيسى (وكان بالكوفة) يأمره بالمجيء الى بغداد ولكنه أدرك ما أريد به فرفض. فأمر المهدي والي الكوفة بالتضييق عليه فلم يفد ذلك. وأخيراً «الح المهدي على عيسى فقال إنك إن لم تجبني الى أن تنخلع منها حتى أبايع لموسى وهارون استحللت منك بمعصيتك ما يستحل به العاصي وإن أجبتني عوضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً فأجابه، فبايع لهما وأمر له بعشرة آلاف الف درهم ويقال عشرين ألف ألف وقطائع كثيرة»[1]. وينسب الجهشياري هذا التهديد الى عبيدالله وزير المهدي[2]. وعلى كل فقد خلع عيسى نفسه، وبايع المهدي لابنه موسى سنة ١٥٩هـ، ثم بايع لابنه هارون سنة ١٦٦ هـ وسماه الرشيد[3].

هـ ـ كلمة ختامية

كان عصر المهدي عصر استقرار ذاقت فيه الرعية شيئاً من الهدوء والرفاه، وكان فاتحة لتسرب الترف في المجتمع، وفيه نمت المؤسسات الادارية ورسخ النظام الوزاري في الدولة. ولكن هذا العصر ترك آثاراً هدامة في جسم الدولة أهمها:

١ ـ ظهور الميل الى البذخ والاسراف في الكماليات، فكان ذلك بادرة هدامة لعبت دورها في تحطيم كيان الدولة فيما بعد. ولعل هذا الاتجاه نتيجة طبيعية لنمو الدولة، ولكن المهدي افرط فيه.

٢ ـ كان المهدي عرضة لأن يقع تحت تأثير حاشيته، وكان يصغي بصورة خاصة لرغبات حاجبه الربيع بن يونس. وبذلك أوسع المجال للدسائس الشخصية أن تلعب دورها في شؤون الدولة. كما أنه كان تحت نفوذ زوجته الخيزران فيذكر الجاحظ أنها «كانت ذات نفوذ في الدولة وقيام بقضاء حوائج الناس عند المهدي»[4] فأصبح الحرم يتدخل في شؤون الدولة وقد ظهرت النتائج السيئة لهذا التداخل فيما بعد.

٣ ـ وأكد المهدي أخطاء نظام ولاية العهد، فإنه بعد أن خلع عيسى بن موسى بايع لابنيه من بعده. ونحن لا نلوم ابا العباس لمبايعته لاثنين لأن الدولة كانت في بدئها مهددة

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٢) الجهشياري ص ١٤٥ ـ ٦.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٢.

(٤) الجاحظ ـ البيان والتبيين ج ٢ ص ٢١٢.

بالأخطار فكان من المفيد التأكد من وجود ولي عهد، ولكنا لا نرى مسوغاً لعمل المهدي بعد أن استقرت الدولة وتوطدت قواعدها. ومما يلاحظ أن المهدي كان أول من بايع لأكثر من واحد من أولاده بين خلفاء بني العباس. ولا حاجة للاشارة الى مآسي هذا النظام، لأنها ستذكر في حينها.

موسى الهادي

محرم ١٦٩هـ ـ ربيع الأول ١٧٠هـ.

بويع الهادي بالخلافة وله خمس وعشرون سنة «ولم يل الخلافة قبله أصغر سناً منه»[١] وكان طويلاً جسيماً أبيض الشعر، أفوه، بشفته العليا بياض[٢].

ويصفه الفخري بأنه كان «متيقظاً غيوراً.. شديد البطش.. جريء القلب ذا إقدام وعزم وحزم»[٣] ويقول عنه المسعودي في مروج الذهب «كان موسى قاسي القلب، شرس الأخلاق، صعب المرام، كثير الأدب محباً له وكان شديداً شجاعاً جواداً سخياً»[٤] ويقول عنه في التنبيه والاشراف إنه كان «شجاعاً، بطلاً، أشد الناس بدناً، واجراه مقدماً في تسرع وجبرية ينسب بهما إلى الهوج»[٥].

وإذن كان في الهادي قوة وشدة بطش، ولكن المدور أصاب حين قال عنه «وإنه من توقاه وعرف أخلاقه دخل في رضاه»[٦] وقد نشأ الهادي في محيط مترف فظهر أثر ذلك في أخلاقه فكان كثير الميل للأدب وله فيه ثقافة واسعة كما يظهر[٧]. وقد أكرم ابن دأب بثلاثين ألف دينار لأنه أنشد أبياتاً استحسنها[٨] وأعطى سلم الخاسر ثلاث مائة ألف درهم لأنه قال قصيدة أعجبه منها البيت الآتي:

لولا هداكم وفضل أولكم　　لم تدر ما أصل دينها العرب

وكان يحب الغناء فقرب إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، وقد أعطى إبراهيم الموصلي خمسين ألف دينار لأنه غناه ثلاثة أبيات أطربته[٩]. ويروى عن إسحاق أنه قال: «والله لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب»[١٠]

---

(١) الأربلي ص ٧٥.

(٢) شرحه ص ٧٥، المسعودي ـ التنبيه والإشراف ص ٢٩٧.

(٣) الفخري ص ١٤٠.

(٤) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤٦.

(٥) التنبيه والإشراف ص ٢٩٧.

(٦) حضارة الإسلام (الطبعة الأولى) ص ٤٣.

(٧) انظر الأربلي ص ٧٥ ـ ٦.

(٨) الجهشياري ص ١٧٢.

(٩) شرحه ص ١٧٣.

(١٠) الاغاني ج ٥ ص ٦.

ومن أثر تربيته ميله إلى الأبهة والجبـروت، فكان إذا ركب مشت الرجـال بين يديـه بالسيوف المشهرة والأعمدة والقسي الموتورة[1]. كما أن الأحاديث عن كرمه كثيرة. كما أننا نلاحظ أثر تسرب الترف في المجتمع وكثرة الجواري في غيرة الهادي على النسـاء لدرجة قوية[2].

وكان الهادي شهماً كما يتضح من بعض الروايات عنه[3].

حكم الهادي مدة قصيرة ولذلك لا نستطيع تقدير أثره في الدولة العباسية، ولكنا نرى بعض البوادر في حكمه وبعض الاتجاهات في سياسته.

فنلاحظ لأول مرة أن الجند عند سماعهم بوفاة المهـدي يشاغبـون ويطلبـون أرزاقاً إضافية بشكل هبة، فيقول الطبري إنهم «ساروا إلى باب الربيع بن يونس (الوزير) فاحرقوه وطالبوا بالأرزاق وضجوا.. وجمعت الأموال حتى أعطي الجند لسنتين (أي ما يعادل أرزاق سنتين) فسكتوا»[4] وهذه بادرة خطرة فهي بدء سلسلة مشاغبات الجند وتدخلهم في أمور الدولة بشكل مضر. ولا شك أن المسؤول عن هذا هو حكم المهدي الذي كان هادئاً متـرفاً مما شجع الجند على المشاغبة وعلى الرغبة في السير مع تيار الترف الذي اكتسب قوة في ذلك العهد كما لاحظنا.

ويكفي أن نشير إلى اتجاهات سياسة الهادي، فنقول انه اقتدى بسياسة أبيه في تتبع الزنادقة، فوكل بمطاردتهم رجلاً يقال له عبد الجبار واشتد سنة ١٦٩ في طلبهم فقتل جماعة كبيرة منهم[5] ومن بينهم جماعة كانوا يهزأون بالناس في الطواف[6]. ولهذا الاهتمام معناه السياسي في تثبيت مركز الخلافة.

ثم اتبع مع العلويين سياسة شديدة قاسية، فيروي اليعقوبي «أن موسى جد في طلب الطالبيين وأخافهم خوفاً شديداً وقطع ما كان المهدي يجري لهم من الأرزاق والأعطية وكتب الى الآفاق في طلبهم وحملهم[7]. وربما كانت هذه السياسة نتيجة لفشل سياسة المهدي في خطب ود العلويين باللين، ولكن التطرف فيها يدل على شيء من الهوج. فاضطر العلويين الى القيـام ضده بـرئاسـة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن وقت الحج سنـة ١٦٩ هـ فضربهم ونكل بهم في واقعة فخ (بين مكة والمدينة). وكانت تلك الواقعة مهمة بنتائجها إذ

---

(١) المدور ص ٨٤.

(٢) انظر الفخري عن وفاة الربيع بن يونس ص ١٣١ ويقول الفخري ص ١٤٢ عنه «وكان شديد الغيرة».

(٣) انظر الجهشياري ص ١٧٦ والفخري ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٢٢.

(٥) شرحه ج ١٠ ص ٢٣.

(٦) ابن العبري ص ٢٢٢، الاربلي ص ٧٥.

(٧) اليعقوبي ج ٣ ص ١٣٦ ـ ٧.

هرب منها إدريس بن عبدالله بن الحسن الى المغرب، كما أنها قضت على أثر سياسة اللين التي اتبعها المهدي مع العلويين(١).

وحاول الهادي وضع حد لتدخل الحرم في سياسة الدولة، فيروي الطبري أن الخيزران «كانت.. في أول خلافة موسى تفتات عليه في أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها الا تخرجي من خفر الكفاءة الى بذاءة التبذل **فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك**» ولكن الخيزران على ما يظهر استمرت في تدخلها مدة أربعة شهور بعد هذا الطلب «فكانت المواكب تغدو الى بابها» فثار الهادي وهدد بضرب عنق من يرد بابها، وهددها قائلاً «ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ **اما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك! إياك ثم إياك ما فتحت بابك لملي أو لذمي**» ولم تتدخل بعدها للبقية الباقية من أيامه(٢). وهذه ولا شك سياسة رشيدة، وكم كان للحرم من يد سوداء على الدولة في العصر العباسي الثاني.

وأراد الهادي خلع أخيه هارون والمبايعة لابنه موسى، وهو طفل. فحاول أول الأمر إقناعه وبذل له «الهني والمري» وتقول بعض الروايات إن هارون مال إلى إجابة طلبه، فأشار عليه يحيى البرمكي بالرفض وثبته(٣). وعندئذٍ عمد الهادي الى استعمال الشدة وكان القواد يشجعونه حتى أن بعضهم خلعوا هارون وبايعوا لموسى «ودسوا الى الشيعة (العباسية) فتكلموا في أمر هارون وتنقصوه في مجلس الجماعة وقالوا لا نرضى به.. وأمر الهادي أن لا يسار قدام الرشيد بحربه فاجتنبه الناس وتركوه فلم يكن أحد يجترىء أن يسلم عليه»(٤) وأدرك الهادي أثر يحيى في القضية فدعاه وناظره في خلع هارون، فاحتج يحيى بشكل يظهر دهاءه قائلاً «يا أمير المؤمنين، إنك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التي تعقد عليهم، ولو تركت الأمر في بيعة أخيك بحاله وبويع لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته» فوافقه الهادي على رأيه، ثم إنه لم يرتح لذلك الحل وحبس يحيى وأراد معاقبته فتلطف هذا للخليفة وحذره العاقبة أن توفي وابنه «لم يبلغ الحلم» وقال له «إنك إن فعلت هذا وحدث ما نعوذ منه (أي وفاة الخليفة) وثب على هذا الأمر أكابر أهلك، وخرج الأمر من ولد أبيك» ثم قال للهادي «فدع هذا الأمر حتى يبلغ جعفر فإذا بلغنا الله ذلك، فعلي أن آخذ بيد هارون حتى يبايعه عفواً، والله والله يا أمير المؤمنين»(٥) فأطلق الهادي يحيى وسكت موقتاً ولكنه رجع إلى رأيه وألح عليه بعض رجال الحاشية والقواد بخلع هارون ومبايعة جعفر «تقرباً إليه ورغبة فيما يصل إليهم من

---

(١) شرحه، الفخري ص ١٤١، انظر الطبري ج ١٠ ص ٢٤ ـ ٣٢، مقابل الطالبيين ص ٢٩٠ وبعدها.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٣، الفخري ص ١٤٢، البيان والتبيين ج ٢ ص ٢١٢.

(٣) الجهشياري ص ١٦٩ ـ ١٧٠، الطبري ج ١٠ ص ٣٥.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٣٤.

(٥) الجهشياري ص ١٧١، الطبري ج ١٠ ص ٣٥ ـ ٦.

الاعطاء»[1]. واشتدت الأزمة فنصح يحيى لهارون بالابتعاد عن الهادي، وبقي يعلل ويدافع وأخيراً قبض الهادي على يحيى وقرر قتله ولكن الخليفة توفي تلك الليلة[2].

أما وفاة الهادي فيحيط بها بعض الغموض وفيها روايتان، الأولى وترد في الطبري، ومجملها أن الهادي اعتل ومات من قرحة كانت في جوفه[3]، وهي رواية ضعيفة لأن الطبري لا يعلق عليها أية أهمية، ولأنها اسطورية في شكلها حتى ان راويها لم يتورع من أن ينسب الى الخيزران العلم بالمستقبل[4]، كما أن المصادر الأخرى لا تؤيدها.

أما الرواية الثانية فترد في أكثر المصادر[5] وتقول بأن الخيزران غضبت لقطع نفوذها وخافت على هارون (الذي كان «أحب إليها من الدنيا بجميع ما فيها»[6]) من الهادي فقررت قتله وأوعزت الى جواريها بخنقه وهو نائم ففعلن ذلك، كما ان تصرفات الخيزران في تلك الليلة تؤيد اشتراكها في تلك الجريمة[7].

---

(١) الجهشياري ص ١٧٤.

(٢) شرحه ص ١٧٥.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٣٣ وص ٣٧، انظر المسعودي ج ٣ ص ٢٥٤.

(٤) شرحه ص ٣٧.

(٥) شرحه ص ٣٣ ـ ٤، الفخري ص ١٤٢، ابن العبري ص ٢٢٢.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٣٦، الفخري ص ١٤٢.

(٧) الجهشياري ص ١٧٥، انظر اليعقوبي ج ٣ ص ١٣٨ والطبري ج ١٠ ص ٣٧.

الفصل السادس
هارون الرشيد

١٤ ربيع الأول ١٧٠ هـ ـ ١٣ جمادي الآخرة ١٩٣ هـ/ ١٤ أيلول سنة ٧٨٦ ـ ٢٤ مارت سنة ٨٠٨ م.

١ ـ مقدمة
أ ـ الرشيد في الخيال والحقيقة.
ب ـ سياسته المعلنة.

٢ ـ المشاكل الداخلية
أ ـ خراسان
ب ـ شمال أفريقية
جـ ـ العلويون
د ـ الخوارج
هـ ـ الشام

٣ ـ العلاقات الخارجية
أ ـ الرشيد والبيزنطيون
ب ـ الرشيد وشارلمان.
ج ـ علاقات أخرى

٤ ـ الاداريات
ا ـ البرامكة.
ب ـ شؤون إدارية.
جـ ـ ولاية العهد

٥ ـ نقد عام

١ ـ مقدمة:

الرشيد أوسع الخلفاء العباسيين شهرة وأعظمهم رونقاً وأشدهم في الخيال تأثيراً، فقد امتزجت في أخباره حقائق التاريخ بروعة الخيال ومبالغة الأقاصيص فأصبح رمز العصر الذهبي في الاسلام، واكتسى بمجموعة من الصفات البعيدة الاختلاف والتي يندر أن تجتمع في شخص واحد.

فهو يصور حيناً بصورة الخليفة الباذخ المسرف في الترف، ويصور آناً بصورة الخليفة المحارب القوي الفعال الذي أذل أعداء الاسلام وفرض الجزية على الروم. وهو يظهر بمظهر الخليفة الحذر الذي يبث شبكة من الجواسيس ليعرف أمور الناس وأحوالهم ولا يكتفي بذلك بل يطوف الأسواق ويزور المجالس متنكراً ليعرف بنفسه ما يدور.

ويتمثل لنا بشكل الخليفة الورع الناسك الذي تسقط الموعظة عبراته فهو أول من حج

ماشياً من الخلفاء، يصلي «في اليوم مائة ركعة الى أن فارق الدنيا» ويتصدق من صلب ماله بألف درهم في كل يوم(١) ويحج ثماني حجج ويغزو ثماني غزوات(٢) فهو بين حج وغزو طيلة أيامه. ثم يخلو بنفسه فينهمك بالملذات والمجون فيرقص في حضرته مائة من الجواري مرة واحدة في أحسن هيئة، ويتمتع بشرب النبيذ، ولا يهمل الحياة العائلية فيتزوج ست زوجات ويتسرى بعشرين أمة ويخلف عدداً كبيراً من الأولاد(٣).

وبعد هذا فهو سياسي ماهر فيه حزم المنصور وعنفه وأساليبه، مع مرونة وسخاء بالمال لاصطفاء الناس. ثم نراه صديق العلماء والشعراء يقربهم ويكرمهم، ويشجع حركة الترجمة بسخاء عظيم(٤).

وهذه الصور حقيقة في أساسها فالطبري يطنب في وصف تدين الرشيد، ثم يذكر أنه «كان يقتفي آثار المنصور إلا في بذل المال فإنه لم ير خليفة قط قبله أعطى منه للمال»(٥).

ويصفه المسعودي بأنه «كان كامل الأخلاق، سمحاً شجاعاً، كثير الحج»(٦). ويقول عنه الفخري «كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم، وكان يحب الشعر والشعراء والفقه ويكره المراء في الدين. وكان يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ويجزل العطاء عليه»(٧). ويصفه المدور بالرقة واللطافة والانصباب على المطالعة وتتبع أقوال الحكماء عند تأديبه(٨).

ورغم اعتزازه بسلطته المطلقة فإنه كان شديد الاهتمام بشؤون الرعية. فلما ألح عليه الثلج في بعض غزواته قال له بعض أصحابه: «أما ترى يا أمير المؤمنين ما نحن فيه من الجهد والرعية وادعة؟» فأجاب «اسكت على الرعية المنام وعلينا القيام ولا بد للراعي من حراسة رعيته»(٩).

أما حبه للغناء وتقريبه للمغنين فمشهور، ومجالس طربه موصوفة بتفصيل في الأغاني. ويظهر أنه كان ذا ملكة أدبية وشعرية. وكانت للرشيد اليد الطولى في تشجيع حركة الترجمة.

---

(١) الاربلي ص ٨٠

(٢) التنبيه والإشراف ص ٢٩٩.

(٣) انظر كتاب المعارف لإبن قتيبة (القاهرة ١٩٣٥) ص ١٦٧ والطبري ج ١٠ ص ١٢١.

(٤) انظر عصر المأمون ج ١ ص ١١٥ ـ ٨ وقد تجاوزت شهرة الرشيد إلى الغرب، فيقول عنه دنيسن روس إنه «اشهر خلفاء بغداد» (جريدة التايمس، آب ١٩٣٣) ويقول فلبي انه صار رمز كل ما هو عظيم وجميل في تاريخ الإسلام (كتاب: هارون الرشيد بقلم فلبي، لندن ١٩٣٣ ص ١٠ بالإنكليزية)

(٥) الطبري ج ١٠ ص ١١٣.

(٦) التنبيه والإشراف ص ٢٩٩.

(٧) الفخري ص ١٤٣.

(٨) حضارة الإسلام (الطبعة الأولى) ص ٤٤.

(٩) الاربلي ص ٨٠.

ومما تجب ملاحظته هو أن هذه الصور المتباينة للرشيد كانت نتيجة لطبيعته، ولتربيته وللعصر الذي عاش فيه. فقد كان عصره عصر بذخ وإمعان في الحضارة، وكان هو حازماً درب في الحرب والادارة في خلافة والده فكانت فيه قوة الخلفاء الأولين واهتمامهم بالسياسة ونظرهم الى الدين كأساس للملك والدولة، يضاف إلى ذلك ميله للكرم مع وفرة الأموال. ومما يقرب تصرفاته الى أذهاننا أنه كان دقيق الاحساس حاد المزاج سريع التأثر الى درجة تفقده موازنته أحياناً، فقد يثور غضباً ويفرط في الانتقام، وقد ترق عواطفه فيبكي ويظهر رحمة متناهية وعطفاً عظيماً. وهكذا كانت تصرفاته تعكس هذه التيارات المختلفة، شخصية واجتماعية، وتمثلها خير تمثيل.

ولكني أرى أن مواهبه على العموم لا تقارن بمواهب المنصور في السياسة وبعد النظر فكان المنصور مبتكراً وكان الرشيد مقلداً.

ب - ولما بويع الرشيد بالخلافة، اعلن يوسف بن القاسم بن صبيح مجيئه الى العالم الاسلامي بكتاب ورد فيه:

«... ان الله عز وجل استأثر بخليفته موسى الهادي الامام فقبضه اليه، وولى بعده رشيداً مرضياً، أمير المؤمنين بكم رؤوفاً رحيماً من محسنكم قبولاً وعلى مسيئكم بالعفو عطوفاً. وهو - أمتعه الله بالنعمة وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة، وتولاه بما تولى أولياءه وأهل طاعته - بعدكم من نفسه الرأفة بكم والرحمة بكم من الجائزة مما افاء الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً غير مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم وحاملاً باقي ذلك للذب عن حريمكم، وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين الى بيوت الأموال حتى تعود الأموال إلى جمامها وكثرتها والحال التي كانت عليها. فاحمدوا الله وجددوا شكراً يوجب لكم المزيد في إحسانه اليكم بما جدد لكم من رأي أمير المؤمنين وتفضل به عليكم أيده الله بطاعته، وارغبوا الى الله له في البقاء ولكم في إدامة النعماء لعلكم ترحمون»(1).

ونلاحظ في هذا المنشور أن الرشيد أكد على سلطته المطلقة، وأنه وعد الرعية أن يعاملهم بالرأفة، وأن يتشدد في حفظ الأمن الداخلي وصيانة الحدود، ثم إنه أحدث سنة جديدة وهي توزيع عطايا اضافية للجند عند البيعة.

وهكذا سمع العالم الاسلامي عن الرشيد. ثم عرف فيما بعد أنه استخدم البرامكة واعتمد عليهم، فقال ليحيى بن خالد حينما تقلد الخلافة «يا أبت.. قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت، وافرض من رأيت وأسقط من رأيت فإني غير ناظر معك في شيء»(2). وسيرد تفصيل دور البرامكة فيما بعد.

---

(1) انظر عصر المامون ج ١ ص ١١٤ - ٥.

(2) الجهشياري ص ١٧٧.

٢ ـ المشاكل الداخلية:

نتجت المشاكل الداخلية في عهد الرشيد عن مصدرين: عدم اساءة الظن بالعمال وإطلاق أيديهم في الأمور، وعن خلافات حزبية مثل الخلافات مع العلويين والخوارج.

فمع إن الرشيد (كما يجمع المؤرخون) اقتفى آثار جده المنصور في السياسة، فإنه أهمل اتهام العمال في تصرفاتهم فخالف بذلك ركناً مهماً من أركان سياسة سلفه. وقد ظهرت نتيجة هذا الاهمال بصورة قوية في خراسان.

لقد اهتم اكثر ولاة خراسان بمصالحهم وإثرائهم دون أن يهتموا برفاه الرعية حتى أن بعضهم (كعبد الجبار بن عبد الرحمن والمسيب بن زهير) زادوا في الضرائب دون مسوغ، ولم يكن هذا التصرف مقتصراً على زمان الرشيد، ولكن وصل حداً بعيداً آنذاك. ولعل الوحيدين من ولاة خراسان اللذين سعيا لخيرها كانا الفضل بن سليمان الطوسي (٧٨٣ ـ ٧) والفضل بن يحيى البرمكي (٧٩٤ ـ ٥) وقد وليها الأخير في خلافة الرشيد[١].

يقول الجهشياري «لما صار الفضل الى خراسان ازال سيرة الجور وبنى الحياض والمساجد والرباطات، وأحرق دفاتر البقايا[٢] وزاد الجند والقواد (في العطاء)[٣]». ولكن نتيجة هذه السياسة كانت قلة الوارد من خراسان الى الخزينة ويظهر أن ذلك لم يرض الرشيد[٤].

ثم ولي الرشيد بعد الفضل علي بن عيسى بن ماهان، وكان من أقسى الولاة، «فظلم الناس وعسر عليهم»[٥]، واعتدى على أموال الناس، و «جمع أموالاً جليلة فحمل الى الرشيد الف بدرة معمولة من الوان الحريرة وفيها عشرة آلاف ألف درهم»، فلما وصلت الى الرشيد سر بذلك[٦]. فثبت علي بن عيسى مركزه وزاد حظوته عند الرشيد بهذه الوسيلة، واستمر على ظلمه، فيقول الطبري «فلما عاث علي بن عيسى بخراسان ووتر أشرافها وأخذ أموالهم واستخف برجالهم، كتب رجال من كبرائها ووجوهها الى الرشيد وكتب جماعة من كورها الى قراباتها وأصحابه تشكو سوء سيرته.. وتسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به». ولكن الظاهر أن هذه الشكاوى لم تقنع الرشيد حتى اقنعه بعض رجال الحاشية أن علي بن عيسى ينوي الثورة عليه وعندئذ توجه صوب خراسان سنة ١٨٩ هـ/ ٨٠٤م. ولعل علي بن عيسى شعر

---

(١) انظر بارتولد تركستان ص ٢٠٣.

(٢) يقصد بالبقايا ما لم يدفعه الزراع من خراج السنين الماضية لأسباب مختلفة كحصول مواسم زراعية رديئة وكانت البقايا تصل حداً مريعاً.

(٣) الجهشياري ص ٢٢٨.

(٤) انظر شرحه ص ٢٢٨ وبعدها.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٩٥.

(٦) الجهشياري ص ٢٢٨.

بالوشاية فقدم على الرشيد «بالأموال والهدايا والطرف من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب والفضة والسلاح والدواب وأهدى بعد ذلك الى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم»[1]. وبهذه الواسطة قضى على آثار الدسائس وأرضى الرشيد والحاشية. وعلى كل فقد استمر علي في ولايته عشر سنين (٧٩٦ ـ ٨٠٦م).

ولم تنكشف حقيقة علي بن عيسى للرشيد حتى افتضح أمره سنة ١٩١ هـ بعد ثورة أهل خراسان مع رافع بن الليث إذ أنه انسحب من بلخ الى مرو خوفاً من رافع أن يستولي عليها، وكان ابنه قد دفن في بستان له هناك ثلاثين مليوناً من الدراهم فوجدها أهل بلخ فلما بلغ الخبر الرشيد عزله «واستصفى أمواله فبلغت ثمانين مليوناً من الدراهم»[2]. ووصف تصرفاته في كتاب العزل كما يلي: «خالفت عهدي ونبذت وراء ظهرك أمري.. حتى ظلمت الرعية واسخطت الله وخليفته لسوء سيرتك». وهذا الكتاب،مع توصية هرثمة بن أعين (الذي خلف علياً في الولاية) ـ باستخراج أموال الخراج التي اغتصبها علي، وبإنصاف المسلمين والمعاهدين منه ورد حقوقهم ومعاملتهم بالحسنى، وأن يتقي الله ويهتدي بكتابه[3] ـ تدل على أن الرشيد استنكر تصرفات علي بن عيسى ولم يرض عنها، ولعله تظاهر بذلك، ولكن المهم هو أنه لم يكن مطلعاً الاطلاع الكافي على الوضع في خراسان ولم يكن شاعراً بأثر سياسة واليه.

وقبل عزل علي بن عيسى ثار رافع بن الليث وهو حفيد نصر بن سيار ولم تكن هنالك أحقاد قديمة بين العباسيين وبين آل نصر، فالطبري يسمي الليث والد رافع مولى المهدي.[4]. ويبين الطبري أن سبب الثورة شخصي ومباشر وذلك نتيجة جلد رافع لاتهامه بجريمة الزنا[5]. أما الدينوري فيجعل سبب خروجه «أن علي بن عيسى بن ماهان لما ولي خراسان أساء السيرة وتحامل على من كان بها من العرب وأظهر الجور فخرج عليه رافع»[6].

ولا يهمنا اختلاف المؤرخين في الأسباب التي دفعت رافع نفسه للخروج ولكن المهم هو كيف استطاع رافع أن يجمع السكان تحت لوائه ويحصل على تأييدهم فيستطيع أن يقتل والي سمرقند ويستولي عليها، ثم يضطر علي بن عيسى الى الانسحاب من بلخ فيحتلها

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٩٥ ـ ٦.
(٢) شرحه ج ١٠ ص ١٠٠.
(٣) شرحه ص ١٠٢.
(٤) بارتولد ص ٢٠٠.
(٥) الطبري ج ١٠ ص ٩٨.
(٦) الدينوري ص ٣٨٧.

أتباعه(١). لا شك أنه كان لظلم علي بن عيسى ولتذمر أهل خراسان منه أثر كبير في تأييدهم لرافع، ففي سنة ١٩١ كتب الى أهالي نسف الى رافع «يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل علي بن عيسى»(٢). ثم كان لكره الخراسانيين عامة لسياسة العباسيين أثر، فيبين اليعقوبي أن أهالي فرغانة واشروسنة وصغانيان وبخارا وخوارزم والختل كانوا من أنصار رافع(٣)، ولا يخفى أن بين أهالي بعض هذه الولايات ثار المقنع.

وأخيراً تحالف مع رافع بعض أعداء العباسيين وساعدوه عسكرياً فكان حاكم «الشاش والترك»(٤) مع رافع وأرسل التغزغز والقارلوق (وهم ترك) وأهل التبت نجدات لمساعدته(٥).

والخلاصة أن جميع العناصر المعادية للعباسيين اجتمعت حول رافع، ولم تنته الثورة حتى سنة ١٩٥ هـ/ ٨١٠م عندما كان المأمون في خراسان، وذلك لأن الترك تخلوا عن رافع سنة ٨٠٩ م، ولأن المأمون حاول بكل وسيلة أن يسترضي أهل خراسان وعندئذ ضعف موقف رافع فسلم للمأمون عندما سمع بعدالته (كما تقول بعض المصادر) فعفى عنه(٦).

ب ـ شمال أفريقية واليمن

أنشأ إدريس بن عبدالله العلوي الهارب من وقعة (فخ) مملكة مستقلة في المغرب الأقصى (مراكش) سنة ١٧٢ هـ ٧٨٨ م، وأعلن نفسه خليفة فكانت هذه أول خلافة للعلويين، وأول مرة نرى خليفتين في العالم الاسلامي. ولم يتمكن الرشيد من القضاء على هذه المملكة مع أنه نجح في سم إدريس سنة ١٧٧ هـ حسب مشورة يحيى البرمكي(٧). فانفصل المغرب الأقصى نظرياً وعملياً بصورة نهائية عن الدولة العباسية(٨).

وفي أول خلافة الرشيد (سنة ١٧٠ هـ) توفي القائد القدير يزيد بن حاتم المهلبي، وكان المنصور قد ولاه أفريقية (أي تونس) فلم يستطع من خلفه من الولاة ضبط الوضع فثارت الفتن وكان يقودها الخوارج وتوالى تعيين الولاة وعزلهم أو إخراجهم من قبل الثوار حتى أرسل الرشيد قائده المشهور هرثمة بن أعين سنة ١٧٨ لقمع الثورات ولتوطيد

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٩٨ ـ ١٠٠.

(٢) شرحه ص ١٠٠.

(٣) بارتولد ـ تركستان ص ٢٠٠، اليعقوبي ج ٣ ص ١٦٥.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ١٠٠.

(٥) بارتولد تركستان ص ٢٠٠، اليعقوبي ج ٣ ص ١٦٥.

(٦) انظر الجهشياري ص ٢٧٩، انظر اليعقوبي ج ٣ ص ١٦٥.

(٧) مقاتل الطالبيين ص ٣٢٥ ـ ٧.

(٨) انظر عن الادارسة.

Lane-poole- Dynasties (London 1893) p. 35;

Hitti- History of the Arabs (London 1937) p. 450 - I

الوضع، فنجح هرثمة في مهمته ثم عزل سنة ١٨٠ هـ(١)، فانتفضت الحالة من جديد حتى هدأها إبراهيم بن الأغلب وكان صاحب شرطة الوالي قبله. ويفهم من اليعقوبي وابن الأثير أن أهل أفريقية حملوه على أن كتب الى الرشيد يطلب الولاية. فكتب الى الرشيد يعد بتهدئة الوضع وأنه يستغني عن الاعانة المالية السنوية من مصر ومقدارها مائة الف دينار وأن يدفع سنوياً أربعين ألف دينار لبيت المال على أن تكون الولاية وراثية في أحفاده. فاستشار الرشيد ثقاته في الأمر، فنصح هرثمة الذي عرف طبيعة القطر وصعوبة ادارته بقبول هذا الطلب وأثنى على مقدرة إبراهيم وكفايته، فرضي الرشيد بتلك التسوية وولى إبراهيم سنة ١٨٤ هـ ٨٠٠م وبذلك انفصل الجزء الثاني من شمال أفريقية فعلاً عن العباسيين(٢).

وقامت ثورة في اليمن سنة ١٧٩هـ ضد الوالي حماد البربري الذي كان شديد الجور، واستمرت المعارك بينه وبين الثوار لمدة تسع سنين استطاع في نهايتها أن يقبض على الهيصم بن عبد المجيد الهمداني زعيم الثورة، ولكن الحالة لم تهدأ إلا بعد عزل حماد(٣).

ج ـ الرشيد والعلويون

رأى الرشيد أن يرفق بالعلويين وأن يزيل أثر سياسة الهادي العنيفة، فعند مجيئه للحكم «بذل الأمان للطالبيين»(٤) ورفع الحجر عمن كان منهم ببغداد سنة ١٧١هـ وسيرهم الى المدينة ما عدا العباس بن الحسن بن عبدالله(٥). ويروي الفضل بن الربيع أن الرشيد كانت له ميول علوية(٦)، فإن صح ذلك فإن ميوله لم تكن تتجاوز حدود العاطفة.

ولكن الصفاء لم يدم، فقد خرج يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن سنة ١٧٦هـ ببلاد الديلم وادعى الامامة. وكان يحيى ممن هرب من وقعة فخ كما يقول الأصفهاني(٧) ويخطىء الفخري في قوله أن يحيى خاف مما جرى على أخويه النفس الزكية وإبراهيم فمضى إلى هناك. وعلى كل فقد كثر أتباعه واشتدت شوكته واجتمع إليه الناس من الأمصار والكور(٨) فاضطرب الرشيد لهذا الخبر وذلك لبعد المنطقة ولمناعتها، فندب إليه الفضل بن يحيى في خمسين الف رجل ومعه صناديد القواد وولاه «جميع كور المشرق وخراسان وأمره بقصد يحيى والجد به وبذل له الأمان والصلة ان قبل ذلك»(٩).

(١) الطبري ج ١٠ ص ٦٢ وص ٦٨.

(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٤٢ ـ ٣، ابن الأثير ج ٦ ص ٥١، و Lane-poole p. 36-7 و Hitti p. 451.

(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ١٤٣ ـ ٤.

(٤) المقدسي ج ٦ ص ١٠٦.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٥١.

(٦) ابن طيفور الجزء السادس من كتاب بغداد باعتناء كيلر (ليبزج ١٩٠٨) ص ١٧.

(٧) مقاتل الطالبيين ص ٣١١.

(٨) الطبري ج ١٠ ص ٥٤، الفخري ص ١٧٦.

(٩) مقاتل الطالبيين ص ٣١٢.

واستعمل الفضل أساليب السياسة وحاول إقناع يحيى بقبول الصلح، ولعله اتبع هذه الطريقة حقناً للدماء ورفقاً بالعلويين(١). وبنفس الوقت استمال صاحب الديلم بتقديم كميات كبيرة من المال (الف الف درهم)(٢). فأجاب يحيى إلى الصلح لانحراف صاحب الديلم عنه، «ولما رأى من تفرق أصحابه وسوء رأيهم فيه وكثرة خلافهم عليه»(٣) ولكنه اشترط أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه وأن يشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم فرضي الرشيد بذلك وكتب الأمان على ما رسم يحيى وجعل منه نسختين الأولى أرسلها الى يحيى وحفظ الأخرى معه(٤).

ثم قدم يحيى على الرشيد، فسر بذلك «وأجازه بجوائز سنية»(٥) وبلغ الغاية في إكرام الفضل، فقال مروان بن أبي حفصة في ذلك:

ظفـرت فـلا شلت يـد بـرمكيـة رتقت بهـا الفتق الذي بين هـاشم
على حين أعيـا الراتقين التئـامـه فكفـوا وقـالوا ليس بـالمتـلائم(٦)

ولكن الرشيد لم يكن ليطمئن الى نيات يحيى، فوضعـه تحت إشراف الفضـل «وفي نفسه الحيلة على يحيى والتتبع له وطلب العلل عليه»(٧) ولعل يحيى شعـر بذلك، فـاثر على الفضل البرمكي فأطلقه هذا وذهب إلى الحجاز دون معرفة الرشيد. ثم أخبر الرشيد بذلك ودس إليه بأن يحيى «يدعو الى نفسه»، فأمـر بحمله الى بغداد وسجنـه في سرداب حتى مات. وكان يناظره بين حين وآخر، ثم أحضر الفقهاء ليناقشوا مشروعية الأمان، فلم يجرؤ أحد على نقضه إلا أبو البختري القاضي، فإنه افتى بعدم مشروعيته وأحـل للخليفة قتـل يحيى فقال له الرشيد «أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك» وكانت خاتمة حياة يحيى (التي يحوطها الغموض) بعد هذه الحادثة بحوالي شهر(٨).

أما القضية الأخرى فهي قضية الامام موسى الكاظم، وخلاصتهـا أن الرشيد كـان يراقب العلويين في الحجاز، فدس إليه جواسيسه أن النـاس يعتقدون بـإمامـة موسى بن جعفر وأنهم يحملون اليه خمس أموالهم، فاضطرب الرشيد ولمـا حج لاحـظ كثرة احتفـاء الناس بموسى، فجاء به الى العراق وسجنه، وكانت خاتمة حياته في السجن سنة ١٨٣هـ حينما كان الرشيد في الرقة. وهنا تضطرب الآراء في نهايته. والراجح أنه قتل وأن ذلك كان

---

(١) انظر شرحه ص ٣١٠ ـ ٣١٢.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٥٤.

(٣) مقاتل الطالبيين ص ٣١٣.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٥٤، مقاتل الطالبيين ص ٣١٣.

(٥) مقاتل الطالبيين ص ٣١٤.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٥٥.

(٧) مقاتل الطالبيين ص ٣١٤.

(٨) شرحه ص ٣١٩ ـ ٣٢٢، الطبري ج ١٠ ص ٥٧.

حسب رغبة الرشيد وبإغضائه، وأن المنفذ لرغبة الرشيد كان السندي بن شاهك. كما أن الأصبهاني يعطي يحيى بن خالد البرمكي دوراً رئيسياً في قتل الامام موسى[1]. ويبين اليعقوبي أن السندي أحضر بعض العدول والقواد والكتاب ومن حضر ببغداد من الطالبيين، فكشف عن الجثة وسئلوا «أترون به أثراً وما يدل على اغتيال؟ فقالوا لا»[2] وهذا السؤال في ذاته يؤكد الشكوك في مقتل الامام.

ومن هاتين الحادثتين يظهر أن الرشيد استعمل أساليب الخداع في علاقاته مع العلويين ولم يتجنب الغدر للقضاء عليهم فحفظ بذلك التقاليد المكيافلية التي خلفها المنصور.

د ـ الخوارج:

لثورات الخوارج أساس نظري، وهو العمل بكتاب الله وسنة النبي، وهم يمثلون النزعة البدوية التي تكره الخضوع لأية سلطة.

ولم تقم لهم قائمة في الشرق منذ سقوط الأمويين، وهذه ظاهرة تجلب الانتباه، ولعل الضربات الشديدة التي أصابتهم من مروان الثاني ومن أبي مسلم في خراسان أضعفتهم فلم يستجمعوا قواهم حتى هذا الوقت.

وفي سنة ١٧٨هـ خرج الوليد بن طريف الشاري على الرشيد في الجزيرة وجعل مركزه نصيبين، ففتك بعامل الرشيد هناك[3]، وهزم عدة جيوش وامتد سلطانه على أرمينية واذربيجان، وصار يهدد السواد. فأرسل الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني (وهو ابن أخي معد ابن زائدة) ضده. وكان يزيد يعرف شجاعة الخوارج وهجماتهم العنيفة، فاتبع معهم سياسة المخاتلة والتأني لينهكهم. ولكن البرامكة الذين كانوا يسعون لابعاد العرب عن مناصب الدولة وجدوا فرصة للوشاية بيزيد وقالوا للرشيد إن يزيداً يتحاشى قتال الوليد للقرابة بينهما إذ أن كلاً من بني تغلب وبني شيبان من وائل. فتأثر الرشيد بهذه الوشاية وهدد يزيد بن مزيد بالنكال إن لم يسرع، فدارت الحرب على أشدها، ثم قتل الوليد سنة ١٧٩هـ في مبارزة فردية مع يزيد، فتضعضع شأن الخوارج، وتولت القيادة ليلى أخت الوليد ولكن مقاومتها كانت قصيرة إذ استطاع يزيد أن يقنعها بنزع السلاح والخلود الى السكينة، وذلك بأن قال لها وهي تحارب «اعزبي عزب الله عليك فقد فضحت العشيرة، فاستحيت وانصرفت»[4].

هـ ـ الشام:

لم تخمد العصبية القبلية في الشام بعد سقوط الأمويين، وكان في وجودها فائدة

---

(١) الفخري ص ١٤٥ ـ ٦، مقاتل الطالبيين ص ٣٣٢ ـ ٣٣٦.

(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٤٥.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٦٢.

(٤) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٧. وهنا يعطي ابن الأثير تفاصيل لم ترد في الطبري.

للعباسيين لأنها تضعف كيان أعدائهم أهل الشام. ولكنهم من الجهة الأخرى لم يرتاحوا إليها تماماً لأنها تخل بسلطة الدولة وتهدد الأمن والمواصلات.

وقد ثارت العصبية بين المضرية واليمانية بقوة سنة ١٧٦هـ، فأرسل الرشيد موسى ابن يحيى، بن خالد الى الشام، فهدأها وأصلح بين أهلها[١]. ولكن الاضطراب تكرر ولعل الرشيد أهمله مدة ليضعف شأوة الخصوم، ولكنه بلغ درجة عنيفة سنة ١٨٠ هـ، فأرسل جعفراً البرمكي ليهدئه، مما يدل على خطورته. واستعمل جعفر الترغيب والارهاب[٢] «فأصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً فعادوا الى الأمن والطمأنينة»[٣].

٣ ـ السياسة الخارجية:

(أ) علاقة الرشيد بالبيزنطيين

أضفت حروب الرشيد مع البيزنطيين بهاء خاصاً على عصره، فهي من مآثر حكمه ورمز بطولته كجندي مجاهد. وقد اعارها الخليفة أهمية خاصة لا لفائدتها المادية لأن الخسائر في النفوس والأموال كانت تتجاوز كل نفع، بل للعظمة التي تلقيها على حكمه، ولأنها تظهر سطوة الاسلام وعناية خليفته بحرب أعدائه.

ولم تكن هذه الحرب تسير لهدف معين ولا تتبع خطة رشيدة، بل كانت غزوات انتهت دون أن تغير موقف الطرفين، ومن يستقرئها لا يرى فيها خطة لفتح منظم أو استيلاء دائم بل كان الخليفة يكتفي بأخذ الجزية. وكل ما نستنتجه منها هو أنها اثبتت تفوق العرب الحربي، ثم قصر نظر قوادهم في عدم متابعة الضغط على البيزنطيين وعدم إدراكهم لظروف أعدائهم الحرجة.

ومع ذلك فقد اهتم الرشيد بتنظيم حدوده المواجهة للبيزنطيين وبتحصينها. ففي سنة ١٧٠هـ فصل الثغور الشامية عن الجزيرة وسماها «العواصم» وجعلها منطقة عسكرية خاصة قاعدتها منبج، واهتم بتحصينها، وعمر مدينة طرسوس الشهيرة[٤]. وكان قصده من ذلك خلق وحدة عسكرية قوية من حدود سورية الشمالية. ويقول البلاذري «قال معاوية بن عمرو: وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون في الغزو ونفاذ بصيرته في الجهاد أمراً

---

(١) لطبري ج ١٠ ص ٦٠.
(٢) نظر خطاب جعفر في الجهشياري ص ٢٠٨ ـ ٩.
(٣) لطبري ج ١٠ ص ٦٦.
(٤) لطبري ج ١٠ ص ٥٠.

عظيماً، أقام من الصناعة ما لم يقم قبله وقسم الأموال في الثغور والسواحل»[1]. ولعل الرشيد اعتنى بالأسطول أكثر من أسلافه ويتضح هذا من الحركات البحرية فى خلافته.

كانت المناوشات مع البيزنطيين تحدث في كل عام تقريباً، ولم تكن متساوية في الأهمية، ولذا فسنكتفي بالاشارة إلى المهم منها.

ففي سنة ٧٩٠م (١٧٤هـ) أسر الروم بعض الجند الذين أبحروا من مصر الى سورية، فتحرك أسطول عربي من مصر إلى قبرص ومنها إلى آسيا الصغرى، والتقى بالأسطول البيزنطي في خليج Attalia، فهزمه واسر أمير البحر البيزنطي[٢].

وفي سنة ٧٩٧م (١٨١ ـ ٢هـ) غزا الرشيد بنفسه أرض البيزنطيين، فسار قسطنطين السادس (ابن ايريني) ضده، ولكن Stauracius حليف ايريني خاف أن يقوى مركز قسطنيطين ان انتصر فأشاع أن المسلمين تراجعوا، فرجع قسطنطين الى عاصمته، وكانت النتيجة ان خلع وسملت عيناه واعتلت أمه ايريني العرش (يسميها المؤرخون العرب ريني) باسم أغسطة. وفي نفس الوقت فتح الرشيد حصن الصفصاف، وتقدم عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة وافتتح (مطمورة) ورفض طلب ايريني للصلح[٣].

وفي سنة ١٨١هـ حصل أول فداء في العصر العباسي بين المسلمين والروم، وكان المتولي له القاسم بن الرشيد، أما عدد الأسرى المسلمين فبلغ حوالي ثلاثة آلاف وسبعمائة[٤].

وبعد سنتين هجم الخزر على أرمينيا، فقبل الرشيد طلب ايريني للصلح ودفع الجزية. واستمر الوضع على ذلك حتى أوائل سنة ١٨٧م (٨٠٢هـ) حين دبرت مؤامرة ضد ايريني فخلعت واعتلى نقفور العرش[٥].

وبينما كان نقفور منشغلاً بثورة داخلية (٨٠٢م) تقدم القاسم بن الرشيد الذي عين تلك السنة أميراً للعواصم، فحاصر حصن قرة (Corum) وحاصرت إحدى فرقة حصن سنان، ولكن قلة الماء والزاد جعلته يرضى بالتراجع مقابل إطلاق البيزنطيين ثلاثمائة وعشرين أسيراً[٦].

ولم يكتف نقفور[٧] بقطع الجزية بل أرسل رسالة الى الرشيد جاء فيها «من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت

---

(١) البلاذري ـ فتوح ص ١٦٨.

(٢) C. M. H. Vol. IV p. 125

(٣) شرحه والطبري ج ١٠ ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٣٥

(٥) C.M.H. Vol. IV p. 126.

(٦) شرحه، وابن الأثير ج ٦ ص ٦٠

(٧) الطبري ج ١٠ ص ٩٤.

نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليهـا، لكن ضعف النساء وحمقهن. فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك». فغضب الرشيد جداً وكان جوابه يدل على اعتزازه بقوته وعلى نظرته للبيـزنطيين، إذ أنـه دعا بـدواة فكتب على ظهر تلك الرسـالة «بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم، قـد قرأت كتـابك يـا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام».

وتقـدم الرشيد بنفسـه (في نيسان ٨٠٤م/١٨٧هـ) الى هـرقلة واحتلت بعض فرق جيشه حصن الصفصاف ودبسة وأخذت مقدمته أنقرة، فجاء نقفور لصده فدحر. ولعل تأخر الموسم جعل الرشيد يقبل الهدنة والجزية، وعلى أن لا يبني نقفور الحصون المهدومة[١]. وكان مقدار الجزية ديناراً عن كل حالم من الروم سوى نقفور وابنه[٢]. ولما رجع الرشيـد استغل نقفور شدة البرد فنقض الصلح، فرجع إليه الرشيد وقمعه واتفق على تبادل الأسرى ويظهر أن ذلك وقع في أوائل سنة ١٨٩هـ، «فلم يبق بأرض الروم مسلم الأفودي به»[٣].

وفي سنة ٨٠٥م (١٨٩هـ) استغل نقفور انشغال الخليفة بشؤون إيران، فخالف بنود الصلح وبنى أنقرة ودبسة والصفصاف، وأرسل جيشاً فتح طرسوس وخرب عين زربة (Anzarabus) ولكن حامية المصيصة هاجمته واسترجعت معظم الأسرى والأسلاب[٤].

فجاء الرشيد سنة ١٩٠هـ (٨٠٦م) بجيش ضخم يقدره الطبـري بـ «مائـة وخمسة وثلاثين ألف مرتزق سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له» وكانت فيه فرق من مختلف ولايات المملكة. فعبر الحدود البيزنطيـة في (١١ حزيـران) وأخذ هـرقلة (بعد حصار شهر) والطوانة Tyana حيث أمر ببناء مسجد، وافتتح قواده حصن الصقالبة ودبسة وحصن الصفصاف وملقوبية وسنان وصملة وحصن ذي الكلاع (Sideropolis). وكان نقفور آنئذ مهدداً من جانب البلغار فأرسل وفـداً يلتمس الصلح، فرضي الرشيـد على أن يدفـع نقفور جزية قدرها ثلثمائة الف دينار وان يدفع جزية شخصية عنه (٤ دنانير سنـوياً) وعن ابنه (دينارين سنوياً) وبذلك اعترف بأنه تحت ذمة الخليفة. واشترط الرشيد عليه أن لا يبني حصناً كما تعهد أن يرجع صملة وذا الكلاع وحصن سنان سالمة[٥].

وكان الرشيد قد ولى حميد بن معيوف سواحل البحر الأبيض. فأبحر حميد بأسطوله سنة ٨٠٥م إلى قبرص فدمر فيها وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً بينهم الأسقف وأقدمهم الرافقة، ولكنهم أرجعوا إلى قبرص بعد تجديد الصلح سنة ٨٠٦م. كما قـام حميد بغـارة

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٩٤، و C. M. H. Vol. IV p. 126.

(٢) الجهشياري ص ٢٠٧.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٩٧.

(٤) C. M. H. Vol. IV p. 126، الطبري ج ١٠ ص ٩٩.

(٥) نفس المصادر.

بحرية على رودس في السنة التالية.

ولكن نقفور نقض الصلح على عادته مستغلاً إنشغال الرشيد بخراسان، فتجددت الحرب دون نتيجة تذكر.

وفي سنة ١٩٢هـ (٨٠٨م) كان الفداء بالبدندون Podandus[١].

ج ـ هل حصلت صلات بين الرشيد وبين الهند والصين.

كان العرب على اتصال بالصين والهند وقد زاد ذلك في عصر الرشيد لتفشي الترف في المجتمع وتوسع حركة التجارة، فساعد ذلك على توسع شهرة العرب وإعلاء إسم خليفتهم. ولعل هذا يفسر لنا ما نسمع به من صلات سياسية بين الرشيد وبين الهند والصين.

يحدثنا ابن عبد ربه[٢] عن وفد من أحد ملوك الهند إلى الرشيد يحمل هدايا من «سيوف قلعية وكلاب سيورية وثياب من الهند وان الرشيد لم تعجبه إلا الكلاب السيورية أما بقية الهدايا فلم تكن إلا عادية بنظره» وأن الرشيد أكرم وفادتهم «ثم أمر بتحف كثيرة وأحسن جائزتهم به» وقد تصح هذه الرواية، ولكن فيها نص يثبت ضعفها، وهو أن الرشيد «لما أتته الرسل بالهدية أمر الأتراك فصفوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق، وأذن للرسل فدخلوا عليه»، ونحن نعرف أن اصطناع الأتراك بهذه الدرجة لم يحصل إلا في خلافة المعتصم.

وتشير التواريخ الصينية إلى ذهاب عدة سفارات عربية إلى البلاط الصيني في القرن السابع والثامن للميلاد مرسلة من (Han- Mi Mo- Mini) أي أمير المؤمنين أبي العباس (A-bu- lo- ba) ومن أبي جعفر المنصور (A-pu Ch'a- fo) ومن هارون الرشيد (A-lun) وهي تذكر ثلاثة وفود أرسلها الرشيد وصل أحدها سنة ٧٩٨م[٣].

ولكني أرى أن هذه الوفود كان يرسلها تجار العرب مع هدايا طريفة إلى البلاط لرفع مكانتهم، ويحدثنا المسعودي عن حصول سفارة من هذا القبيل في القرن التاسع الميلادي. ويجب أن نتذكر أنه كانت في بعض مواني الصين الكبيرة مثل كانتون جاليات تجارية عربية فارسية تدير شؤونها بنفسها تحت إشراف السلطات الصينية[٤].

ب ـ الصلات بين هارون الرشيد وشارلمان:

تخلو المصادر الشرقية، إسلامية ومسيحية من الإشارة إلى أية صلة بين الرشيد

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٠٠، ص ١٠٩ و C. M. H. Vol. IV p. 127

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٦١ ـ ٢.

(٣) عن علاقة العرب بالصينيين انظر Chau Ju-Kua (Petersburg 1911)

Berstschneider - Medieval Researches (London 1937) Vol. I p. 264-5

ويسمي الصينيون العرب Ta-shi وهي عن الفارسية القديمة Tazi محرفة عن طائي.

(٤) انظر قصة سليمان التاجر، في Chau Ju-kua وقد بحثت هذا الموضوع في رسالتي للدكتوراه ببعض التفصيل.

وشارلمان وتنفرد المصادر اللاتينية بذلك، ولكنها مضطربة وغامضة. فلا غرابة إن وجدنا تبلبل الكتّاب الغربيين ولجوءهم إلى الخيال لتفسير تلك الصلات. ولكنهم جميعاً (عدا بارتولد) يقررون صحتها ثم يختلفون في تفسير نتائجها.

تذكر المصادر اللاتينية (وهي حياة شارلمان لاينهارد، والأخبار الملكية ورواية الراهب سنت كول) أن شارلمان أرسل وفدين إلى الرشيد (سنة ٧٩٧م وسنة ٨٠٢م) ورسولاً إلى بطريق القدس (سنة ٧٩٩م)، فأجاب الرشيد بإرسال وفدين (سنة ٨٠١م وسنة ٨٠٧م)، بينما أرسل بطارقة القدس أربع سفارات على الأقل إلى شارلمان (سنة ٧٩٩م، سنة ٨٠٠م، وسنة ٨٠٣م، وسنة ٨٠٧م) وكان شارلمان هو البادىء بالمراسلة مع الرشيد.

ففي سنة ٧٩٧م أوفد شارلمان وفداً من ثلاثة: لانتفريد وسجسموند يصحبهما يهودي اسمه إسحق مترجماً وقضى الوفد في مهمته ثلاث سنوات توفي أثناءها الممثلان الأولان ورجع إسحق وحده مع فيل في سنة ٨٠٢م.

وفي سنة ٨٠١م (أي قبل وصول إسحق) جاء وفد إسلامي إلى بلاط شارلمان وكان يتألف من إثنين أحدهما فارسي عن الخليفة والثاني مغربي عن إبراهيم بن الأغلب، وأخبرا شارلمان برجوع إسحق مع فيل وهدايا.

وبينما كانت سفارة سنة ٧٩٧م في الشرق حصل تبادل هدايا وصلات ودية بين بطريق القدس وشارلمان وكان البادىء بها هو البطريق إذا أرسل إلى شارلمان راهباً يحمل هدايا رمزية، ولما رجع ذلك الراهب أرسل شارلمان معه القسيس زكريا يحمل هبات إلى الأراضي المقدسة. وفي كانون الأول سنة ٨٠٠م رجع زكريا إلى المغرب يصحبه راهبان عن بطريق القدس يحملان إلى شارلمان مفاتيح كنيسة القيامة ومفاتيح مدينة القدس وراية.

وفي سنة ٨٠٢م أرسل شارلمان وفده الثاني إلى الخليفة، وتشير الأخبار الملكية إلى هذا الوفد دون بيان مهمته. بينما يذكر إينهارد Einhard في كتابه (حياة شارلمان) Vita Caroli أن السفراء أخذوا هبات لكنيسة القيامة ثم ذهبوا إلى الرشيد، «وعندما عرض السفراء رغبات سيدهم على الرشيد أجابها، وفضلاً عن ذلك أوكل (الخليفة) إليه (شارلمان) أمر الأماكن المقدسة» ولكن هلفن Halphen محقق كتاب أينهارد يرى أنه لا يمكن الوثوق بمعلومات ذلك المؤرخ الذي كان همه تفخيم إسم سيده. وعلى كل فقد رجع هذا الوفد سنة ٨٠٦م. وفي خلال غيابه أرسل بطريق القدس جرجيس راهبين إلى شارلمان وصلا سنة ٨٠٣م ولكن مهمتهما غير معروفة ولا دليل على أن شارلمان رد على رسالتهما.

وفي أوائل سنة ٨٠٧م وصل بلاط شارلمان رسول عن الخليفة (يدعى عبدالله) وراهبان عن البطريق توماس. وكان مع رسول الخليفة هدايا نفيسة (صيوان ملون بديع وأقمشة حريرية وعطور وبلسم وساعة مائية عجيبة وأوانٍ نحاسية. ويرى جورنسن Joranson أنه لا دليل على أن ممثل الخليفة والراهبين أرسلوا لنفس المهمة إذ أن المصادر اللاتينية تميز بين البعثتين.

أما العوامل التي دعت الى إنشاء العلاقات (كما يراها الغربيون) فهي متعددة منها رغبة شارلمان في فتح الأندلس وحاجته الى تأييد الخليفة المعنوي لئلا يقف عرب الأندلس في وجهه كعدو للاسلام كما فعلوا سنة ٧٧٨م حين هاجم شمال الأندلس وفشل. ثم الخلاف بين شارلمان والبيزنطيين حول وراثة تاج الدولة الرومانية، ويزيد الأمر تعقيداً العداء بين البابا وبين بطريق القسطنطينية على السيادة الروحية للعالم المسيحي، ورغبة البابا (حليف شارلمان) بتقوية صلاته مع بطارقة الاسكندرية وأنطاكية والقدس ليقفوا بجانبه. ثم رغبة شارلمان في تسهيل الحج الى الأراضي المقدسة وفي تكوين نفوذ معنوي له في تلك البقاع.

أما مصالح الرشيد فهي ناتجة في زعمهم عن خصومته مع البيزنطيين ورغبته في القضاء على نفوذهم المعنوي بين مسيحيي الشام والجزيرة بتقوية صلاتهم بالغرب؛ ثم عدائه لأمويي الأندلس ورغبته في بسط سيادته عليهم(١).

وقبل أن نذكر تأويلات الغربيين لنتائج هذه الوفود، وهي تأويلات بنوها على التخمين غالباً، نذكر بعض الشكوك التي تساورنا في التفاصيل المذكورة والتي تجعلنا نميل لنفي وجود صلات سياسية.

فقبل كل شيء يكتنف المصادر اللاتينية الأولية غموض واضطراب، فالمصدر الأول المعاصر، وهو «الأخبار الملكية» Annales Regni Francorum مقتضب لا يساعد على تعيين الصلات، بينما قصد اينهارد في كتابه «سيرة شارلمان» تفخيم سيده ورفع اسمه، وفي الكتاب أخطاء كثيرة ولا يعتمد عليه. أما الراهب سنت كول St. Gall فهو من كتّاب الأساطير(٢). وقد اعتبر الأستاذ بارتولد هذه النقطة مع سكوت المصادر العربية حجة كافية لنفي وجود الصلات(٣).

ثم يظهر لي أن الباحثين فهموا ظروف شارلمان، ولم يفهموا وضع الرشيد وهل كان يستوجب فتح صلات من هذا القبيل. فقد كان الرشيد هو المنتصر على البيزنطيين قبيل فتح العلاقات حتى اضطرهم الى دفع الجزية سنة ٧٩٨م، كما أنه لا دليل على أن مسيحيي الشام كانوا خطراً يذكر على سلامة الدولة في عهده. ثم هل كان الرشيد يعرف قوة شارلمان مع بعد المسافة واختلاف الدين؟ وهل يمكن أن يضع الخليفة ثقته بذلك الغريب لاسترجاع

---

(١) انظر: Buckler- Harun al-Rashid and Charles the Great (Massachusetts 1931) p. 170 off.

مجيد خدوري ـ الصلات الدبلوماطيقية بين الرشيد وشارلمان (بغداد ١٩٢٩) ص ٢٣ وما بعدها.

Joranson-The Alleged Frankish Protectorate in Palestine. A. H. R. 1927 pp. 241-6;

S. Runciman- Charlemagne and Palestine. E. H. R. Oct. 1935 pp. 606 ff;

F.F. Schmidt- Karl der Grosse und Harun al-Rashid.

Der Islam Vol. III 1912 pp. 409-11.

(٢) انظر Runciman, o. c. p. 619 و Joranson, o. c. p. 251

(٣) Buckler, o. c. p. 34-7.

الاندلس؟ وهل يجوز لخليفة المسلمين أن يتفق مع مسيحي لضرب مسلمي الأندلس؟ وهل من المعقول أن يفكر الرشيد باسترجاع الأندلس في وقت اضطر فيه إلى أن يتخلى عن سلطته الحقيقية في أفريقية (تونس) والمغرب؟ كل هذه نقاط تنفي بصورة قوية وجود ما يدفع الرشيد لفتح صلات سياسية مع شارلمان. ومن الجهة الأخرى كانت علاقة شارلمان مع البيزنطيين حسنة في هذا الدور. ففي سنة ٧٩٨م أرسلت ايريني وفداً الى شارلمان للمفاوضة في عقد حلف[١] واقترحت عليه الزواج، ولعلها سلمت بإعطائه لقب امبراطور[٢]. ثم هل كان عرب الأندلس يدينون بالطاعة للخليفة العباسي وهم لم يبايعوه وقد حاربوا جده المنصور من قبل وهزموا جيشه؟ لا أرى ذلك.

وأخيراً يرى بارتولد أنه ليس من المعقول أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحق، بينما أرسل سفراءه مقدماً (بأياد فارغة)، ويرى أن اسحق كان من التجار اليهود المتاجرين بين الشرق والغرب، لا سفيراً[٣]. ويقوي رأيه هذا أن مصدرين لاتينيين يذكران أن غاية الوفد الأول كانت الحصول على فيل[٤].

أما فيما يخص نتائج الصلات، فيرى فاسيلييف Vasiliev أنه بينما حافظ الرشيد على سيادته على فلسطين، «صار لشارلمان بإذن الخليفة حق حماية المسيحيين والحجاج (في الأراضي المقدسة) وحق انشاء كنائس وخانات في فلسطين[٥]». أما برييه Bréhier فيستنتج من قول اينهارد بأن الرشيد أجاب رغبات شارلمان (حسب طلب الوفد الأول) وأعطاه حق حماية الأراضي المقدسة كما أن ارسال البطريق لمفاتيح كنيسة القيامة كان معناه تقديم الطاعة للحامي الجديد.

وقد بين الأستاذ جورانسن أن آراء برييه مبنية على التخمين لا على تدقيق علمي، وأنه لا توجد معلومات شافية عن غرض الوفد الأول، وأن مصدرين لاتينيين يبينان أن غرضه الحصول على فيل، فحصل عليه. وليس هناك ما يدل على أنه حصلت بينهم وبين الخليفة مفاوضة سياسية أو أنه كان بينهم وبين شارلمان اتصال بعد سفرهم، كما أننا لا ندري فيما إذا حصلت مفاوضة بين وفد هارون وبين شارلمان حتى أنه لا يوجد سجل بتاريخ رجوعه[٦]. أما تقديم المفاتيح والراية من قبل البطريق فلا يمكن أن يعطي معنى سياسياً لأن الرواة لا يعلقون عليه أهمية سياسية، بل يتفقون على أنه كان من باب الدعاء والتبريك «benedictionis causa» وإذن «فإعطاؤه معنى سياسياً هو تحميل المصادر ما ليس

(١) ibid p. 18.

(٢) ibid p. 20-21.

(٣) ibid p. 45.

(٤) Joranson, o. c. p. 243.

(٥) ibid p. 241.

(٦) Joranson, p. 242-5.

فيها». ولا دليل على وجود علاقة بين صلات الخليفة وصلات البطريق بشارلمان. ثم يستطرد جورانسن ويقول إن «الأخبار الملكية» لا تذكر مهمة الوفد الافرنجي الثاني، وأن اينهارد يضيف من عنده أن رسل شارلمان كانوا يحملون هبات لكنيسة القيامة وأنهم قدموا مطاليب فقبلها الرشيد ثم تكرم بمنح شارلمان حق الحماية على الأراضي المقدسة. ولكن اينهارد (في رأي جورانسن) لا يمكن الوثوق بـه كما أنـه يخلط بين هذه السفـارة وبين ارسال زكـريا بالهبات لكنيسة القيامة (سنة ٧٩٩م)، ثم إنه لا يعرف طلبات الوفد، بينما كان أمر الحماية تخميناً من عنده ولا قيمة له[١].

تبقى نقطة أخيرة وهي أن شارلمان أرسل صدقات وهبات الى فلسطين فاستعملت في تعمير بعض الكنائس، وأنشأ منزلاً للحجاج باسمه كما أنشأ مكتبة. ولكن ذلك لا يكفي، كما يرى جورانسن، للبرهنة على وجود حماية، خاصة وان اينهارد يذكر أن شارلمان «خطب ود الملوك وراء البحار لأنه أراد بالدرجة الأولى تحسين أحوال المسيحيين الذين يعيشون في ممالكهم» وهذا لا يقتصر على الرشيد[٢]. وهكذا يدحض جورانسن أسطورة حماية شارلمان على الأراضي المقدسة.

أما بكلر، فيعتقد أن الوفد الأول هو المهم، ومع أنه يعترف بأن تعاليم السفراء غيـر معلومة، فإنه يرى أن نجاح الرسالة يوحي بأنها كانت لغاية أو أكثر من ثلاث: (١) تحـديد وضع شارلمان حامياً للمصالح العباسية في الأندلس وفي غربي البحر المتوسط. (٢) عقد حلف مع الرشيد يرمي إلى التعاون المتبادل، فيقف شارلمان ضد الأندلس، ويقف الرشيد ضد البيزنطيين. أو السماح لايريني بأن تعقد الصلح مع العباسيين (لعله نسي أن الصلح عقد سنة ٧٩٨م). (٣) فتح الطريق للحجاج اللاتين لزيارة الأراضي المقدسة وحمايتهم من ظلم الأرثوذكس[٣]. وهكذا يبني بكلر نظريته على الحدس، وهو يعترف بأن حالة المسيحيين لم تكن سيئة ولكنه يقول إن سوء العلاقة بين الرشيد وبين نقفور استوجبت وضع تقييدات على المسيحيين ولذلك توسط شارلمان في الموضوع[٤] ويرى أن نتيجة المفاوضات كانت تعيين شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسي مستدلاً على ذلك بـارسال بطريق القدس مفـاتيح المـدينة والراية[٥]. وهذا المنصب لا يتـطلب (في زعمه) حضـور شارلمان إلى القدس بل يقوم الرشيد بذلك كوكيل له[٦]. وكذلك عين شارلمان «أمير استيلاء» على الأندلس[٧].

(١) Joranson, o.c. pp. 248-52.

(٢) ibid p. 255.

(٣) Buckler p. 22.

(٤) ibid pp. 26-9.

(٥) ibid p. 30.

(٦) ibid p. 29 n. I.

(٧) ibid p. 35.

ويقول بكلر إن هذه المفاوضات يجب أن تنظر بمنظار الدبلوماسية الاسلامية، وهو بذلك يجعل شارلمان والياً على القدس ضمن سيادة الخليفة العباسي، ومن جهة أخرى يجعل الخليفة وكيله في تنفيذ مهامه! ثم هو يجعل شارلمان «أمير استيلاء» على الأندلس مستنداً بذلك الى تفسير الماوردي لامارة الاستيلاء. ولكن الماوردي يبين أن امارة الاستيلاء «تعقد عن اضطرار، فهي أن يستولي الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير والخليفة بإذنه متقلداً لأحكام الدين»[1]. فكيف يرضى الخليفة أن يكون لشارلمان حكم الأندلس ثم يستأذن منه أن يطبق أحكام الدين؟ وهل كان الأمويون كفاراً ليرضى الرشيد بهذا الترتيب المزري؟ ثم كيف يطمح الرشيد باسترجاع الأندلس، ويعترف مقدماً بأن الحكم فيها سيكون لغيره؟ وأخيراً نقول أن التضييق على المسيحيين كان بعد المفاوضة المزعومة لا قبلها وذلك لضرورات عسكرية. وهكذا نرى بكلر يتخبط في موضوع لا يفهم كنهه، ويفرض فروضاً لا أساس لها في الفقه أو التاريخ الاسلامي.

أما رنسيمان فيرى في نظرية حماية شارلمان على فلسطين اسطورة، اخترعها المؤرخ الأسطوري الراهب سنت كول الذي كتب حوالي خمسين سنة بعد وفاة شارلمان إذ جمع المعلومات عن الهدايا التي أرسلها الخليفة والبطريق مع معلومات اينهارد المضطربة ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين وأرسل إليه وارداتها[2].

وهكذا يظهر وهي نظرية الحماية وأساسها الأسطوري. والذي أراه من هذه المعلومات المحدودة (ولم أظفر بالمصادر اللاتينية الثلاثة بالنص) احتمال وجود نوع من الصلات ولكنها صلات تجارية لا سياسية، وأن المسؤول عنها هم التجار اليهود العالميون الذين كانوا حلقة وصل بين الغرب والشرق، ولعلهم من اليهود الرادانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والأقطار الاسلامية والصين كما بين ابن خرداذبة[3]، خاصة وأن من أساليب التجار آنئذ أن يدّعوا بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم.

الرشيد والبرامكة:

كانْ البرامكة «من أهل بيوتات بلخ»[4] وكانوا سدنة معبد النوبهار فيها[5] ويرى بعض المؤرخين[6] أن معبد النوبهار كان بيتاً من بيوت النار الزردشتية الهامة، ولكن الأرجح أنه

---

(١) الماوردي ـ الأحكام السلطانية القاهرة ص ٢٧.

(٢) Runciman, o.c. p. 629.

(٣) ابن خرداذبة، المالك والممالك (باعتناء دي خويه، ليدن) ص ١٥٤.

(٤) المقدسي ج ٦ ص ١٠٤.

(٥) ياقوت ـ معجم البلدان (طبعة مصر) ج ٨ ص ٣٢١ ـ ٢.

(٦) كالمسعودي وابن خلكان ج ٢ ص ٢٤٣ ويميل الى هذا الراي براون ـ تاريخ فارس الأدبي ج ١ ص ٢٥٧، ويكلسون ـ الأدب العربي ص ٢٥٩).

كان معبداً بوذياً كما يتضح من أقوال ابن الفقيه والقزويني واحد الرحالة الصينيين الذي زاره ووصفه(١).

وينتسبون الى (برمك) وهو ليس اسم لشخص وإنما هو لقب لكبير سدنة النوبهار. فيقول المسعودي في حديثه عن النوبهار «وكان الموكل بسدنته يدعى البرموك، وهو سمة عامة لكل سدنته، ومن أجل ذلك سميت البرامكة لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت»(٢)، ويؤيده ابن الفقيه وياقوت في ذلك(٣).

وأول من اتصل بالعباسيين من البرامكة خالد بن برمك الذي كان متصلاً بمحمد بن علي ثم بإبراهيم الامام بعده(٤). وكان من رجال الدعوة البارزين، ويظهر أنه كان ادارياً قديراً(٥) فيذكر الجهشياري عنه أنه كان يتولى تقسيم الغنائم في عسكر قحطبة وأنه عهد اليه بتنظيم الخراج في خراسان(٦). وبعد بيعة أبي العباس ولي ديوان الخراج وديوان الجند(٧)، وبعد مقتل الخلال كان يقوم مقام الوزير(٨). ثم كان خالد من كبار مشاوري المنصور، فولي له ديوان الخراج(٩). وولي عدة ولايات كولاية فارس، ثم ولاية الري وطبرستان ودنباوند(١٠). ومما يذكر عنه أنه أشار على المنصور بعدم هدم إيوان كسرى عندما فكر بذلك لحاجته الى مواد البناء، فعلق المنصور على ذلك قائلاً «أبيت إلا الميل إلى أصحابك العجم»(١١).

وقد حافظ خالد على نفوذه في خلافة المهدي، فيذكر الجهشياري أن هذا الخليفة ولاه مقاطعة فارس «فقسط الخراج على أهلها ووضع عنهم خراج الشجر وكانوا يلزمون له خراجاً

---

(١) يقول عنه ابن الفقيه انه لعبادة الاصنام ص ٣٢٢، ويقول القزويني «كان بها (بلخ) النوبهار وهو أعظم بيت من بيوت الأصنام» ثم يقول «وملوك الهند والصين يأتون اليه» ص ٢٢١ ويؤيده ياقوت ج ٨ ص ٣٢١ وانظر مقال بارتولد عن البرامكة في دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٦٤.

(٢) مروج الذهب.

(٣) ابن الفقيه ص ٣٢٢ ـ ٣ يقول «فسموا سادتها (النوبهار) الاكبر برمكا» ويقول ياقوت ج ٨ ص ٣٢٢ «وكانوا يسمون السادن الأكبر برمكا». انظر دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٦٣.

(٤) ابن عساكر ـ التاريخ الكبير ج ٥ ص ٢٨.

(٥) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٨٠.

(٦) الجهشياري ص ٨٧.

(٧) شرحه ص ٨٩.

(٨) شرحه والفخري ص ١٥٩، ويقول البعض انه استوزره راجع المسعودي ـ التنبيه ص ٢٩٩، ابن خلكان ج ١ ص ٢٠٦ ـ ٧، ابن عساكر ج ٥ ص ٢٨.

(٩) الجهشياري ص ٩٩.

(١٠) شرحه ص ٩٩، ص ٢٣٦.

(١١) الطبري ج ٩ ص ٢٦٠، الفخري ص ١٤٠.

ثقيلاً» ثم غضب عليه الخليفة فشفعت له الخيزران فرد الى منزلته[1]، وهذه هي البادرة الأولى للتعاون بين البرامكة والخيزران.

وفي سنة ١٦١هـ (٧٧٧ ـ ٨م) عهد المهدي إليه بتربية ابنه هارون[2]. ولما قاد هذا الأمير الصائفة سنة ١٦٣هـ (٧٧٩ ـ ٨٠م) قلد المهدي خالداً كتابة ابنه ونفقاته وتدبير أمر عسكره فأنجز مهمته بنجاح وحسن أثره لدى الخليفة[3]. ثم توفي خالد سنة ١٦٥هـ (٧٨١ ـ ٢م).

واعتنى خالد بتربية ابنه يحيى، فلا عجب أن عين هذا كاتباً للأمير هارون الذي ولي على المغرب (الأراضي الواقعة غرب الفرات سنة ١٦٣هـ)[4].

ولما بويع الهادي أقر يحيى على وظائفه، فيذكر الجهشياري «أن الهادي أمر يحيى أن يقوم بأمر هرون أخيه وأقره على كتابته وتدبير الأعمال التي كانت إليه»[5] ولما عزم الهادي على خلع الرشيد لعب يحيى دوراً هاماً في إنقاذ هارون وفي نقل الخلافة إليه، كما أنه كان في تعاون تام مع الخيزران[6].

ومن هذا العرض الموجز يتضح لنا أن البرامكة لعبوا دوراً ذا شأن قبل خلافة الرشيد، ولكنه ثانوي بالنسبة لسلطتهم ونفوذهم في عهد هذا الخليفة.

فلما بويع الرشيد بالخلافة، عرف ليحيى فضله وخدمته فقلده وزارته وأعطاه سلطة تكاد تكون مطلقة وقال له «يا ابة أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي اليك، فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واسقط من رأيت فإني غير ناظر معك في شيء»[7]. ويقول الجهشياري «وكانت الدواوين كلها الى يحيى ابن خالد سوى ديوان الخاتم»[8]. ثم عهد هذا الديوان الى يحيى سنة ١٧١هـ «فاجتمعت له الوزارتان»[9]. وخص الرشيد يحيى بامتيازات جديدة، فهو «أول من أمّر من الوزراء.. وكانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تؤرخ باسم يحيى بن خالد ولم تكن تنفذ إلا عن الخليفة»[10]. ويقول عنه الفخري «وكان يحيى.. كاتباً بليغاً لبيباً أديباً سديداً صائب الآراء

---

(١) الجهشياري ص ١٥١.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة (برامكة).

(٣) الجهشياري ص ١٥٠.

(٤) دائرة المعارف الاسلامية مادة برامكة، الطبري ج ٩ ص ٣٢٤.

(٥) الجهشياري ص ١٦٩، أنظر الطبري ج ١٠ ص ٣٣.

(٦) أنظر الطبري ج ١٠ ص ٣٣ ـ ٥، الجهشياري ص ١٦٩ ـ ١٧١.

(٧) الطبري ج ١٠ ص ٥٠، الجهشياري ص ١٧٧، ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٣.

(٨) الجهشياري ص ١٧٧.

(٩) الطبري ج ١٠ ص ٥١.

(١٠) الجهشياري ص ١٧٧ ـ ٨.

حسن التدبير.. قوياً على الأمور جواداً حليماً عفيفاً»[1]. وقد استطاع بمساعدة ولديه الفضل، وهو الأكبر، وجعفر، من ادارة الأمبراطورية العباسية لمدة سبع عشرة سنة بين ١٧٠ ـ ١٨٧ هـ (٧٨٦ ـ ٨٠٣م).

والفضل هو أخو الرشيد بالرضاعة[2]، وهو جدّي بطبعه، وفي أخلاقه خشونة[3]. وكان أبوه يقدمه على جعفر[4] ويظهر أنه كان أكثر من أخيه أهمية في الادارة الفعلية، فيروي الفخري أن الرشيد قال يوماً ليحيى «يا أبي ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفراً بذلك؟ قال يحيى لأن الفضل يخلفني»[5]. وقد ولي الفضل ولايات هامة وانتدب لمهمات خطيرة، فهو الذي أخمد ثورة يحيى بن عبدالله العلوي بمهارة ودون سفك دماء. وولاه الرشيد سنة ١٧٦هـ (٧٩٢م) على الجبال وطبرستان ودنباوند وأرمينية[6]. وفي سنة ١٧٨ ـ ٩هـ ولاه على خراسان ويقول الطبري أنه أحسن السيرة فيها[7]. ويبين الجهشياري أنه أحرق «دفاتر البقايا» وزاد في رواتب الجند والقواد وأكرم الكتّاب[8]. وتنسب إليه بعض الأعمال العظيمة أثناء ولايته لخراسان كإنشاء جيش خراساني من خمسمائة الف سماهم العباسية، وبناء مساجد ورباطات كثيرة وحفر قناة ببلخ[9]. وهذا كثير إذا لاحظنا أن مدة ولايته كانت سنة واحدة وأنه كان مشغولاً في أول أمره بالانس والملذات حتى عاتبه والده على ذلك[10]. ولعل هذا مثل من أمثلة مبالغات الكتاب في أعمال البرامكة.

وقد عهد الرشيد الى الفضل بتربية الأمين[11]. ويقول الطبري أن الفضل لعب دوراً في البيعة للأمين إذ أنه «لما تولى خراسان أجمع على البيعة لمحمد.. فلما تناهى الخبر الى الرشيد بذلك وبايع له أهل المشرق بايع لمحمد وكتب الى الآفاق»[12]. ولكن اليعقوبي يبين

---

(١) الفخري (١٣١٧) ص ١٧٩.

(٢) شرحه ص١٨٣، الطبري ج ١٠ ص ٤٨.

(٣) الفخري ص ١٨٦.

(٤) الجهشياري ص ١٨٩.

(٥) الفخري ص ١٨٦.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٥٤.

(٧) شرحه ج ١٠ ص ٦٣.

(٨) الجهشياري ص ١٩٠.

(٩) الطبري ج ١٠ ص ٦٢ ـ ٣، دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٦٣.

(١٠) المسعودي ج ٣ ص ٢٨٤.

(١١) الجهشياري ص ١٩٣.

(١٢) شرحه، الطبري ج ١٠ ص ٥٣.

ان البيعة للأمين كانت في سنة ١٧٦هـ[١] وأخيراً نذكر أن الفضل كان أول من أشعل المصابيح في المساجد في شهر رمضان[٢].

وهكذا تتضح أهمية الدور الذي لعبه الفضل في الدولة، وأنه اقتصر على الأشغال الرسمية ولم يلعب دوراً مهماً في حياة البلاط لطبيعته الجدّية[٣]، فذكر ابن كثير أن الفضل أكبر رتبة عند الرشيد من جعفر وأن جعفراً أحظى عند الرشيد من أخيه وأخص[٤].

وأما جعفر فقد كان شاباً[٥] مترفاً ظريفاً اشتهر بفصاحته وبيانه، فيقول عنه الفخري «كان جعفر فصيحاً لبيباً ذكياً فطناً كريماً حليماً»[٦]. وكانت توقيعاته على رقاع المتظلمين نماذج للكتّاب. يقول الجهشياري «كان جعفر كاتباً بليغاً، وكان اذا وقع نسخت توقيعاته وتدورست بلاغاته»[٧]. وكان مشهوراً بالتأنق بلباسه ومسكنه[٨]، ومما يذكر عنه أنه أول من أدخل لبس الأطواق (الياخة) لطول رقبته[٩].

والظاهر أن جعفراً اختص بمنادمة الرشيد وخدمته لسهولة أخلاقه[١٠]، وكان يلازمه دائماً عدا سنة ١٨٠هـ حين ذهب لتهدئة العصبية القبلية في الشام. وهناك إشارات الى تولية جعفر على بعض الولايات ولكنه كان يرسل نواباً عنه. ففي سنة ١٧٦هـ ولاه الرشيد المغرب من الأنبار الى أفريقية فأرسل نائباً عنه[١١]. وكذلك انتدب من ينوب عنه حينما ولي خراسان سنة ١٨٠هـ[١٢]. ولهذا ولانشغاله بخدمة الرشيد فإنه يصعب معرفة مدى مشاركته في تسيير سياسة الدولة، وربما كان دوره السياسي ضعيفاً بالنسبة لدور أخيه وأبيه.

ولكن جعفراً كان واسع النفوذ لانه كان أكثر البرامكة اتصالاً بالرشيد صديقاً ونديماً. ويقول الجهشياري «وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة حتى صار لا يقدّم عليه أحداً»[١٣].

---

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ١٤٠.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٦٣.

(٣) يذكر الجهشياري أن الفضل لا يشرب النبيذ وكان يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي لما شربته ص ١٩٤، أنظر الطبري ج ١٠ ص ٨٢.

(٤) ابن كثير ـ البداية والنهاية في التاريخ (مطبعة السعادة) ج ١٠ ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(٥) كان سنه سبع وثلاثون سنة عندما قتل.

(٦) الفخري ص ١٨٦.

(٧) أنظر الجهشياري ص ٢٠٤ و ص ٢١٠.

(٨) أنظر ابن كثير ج ١٠ ص ١٨٩ والفخري ص ١٨٧.

(٩) الجاحظ البيان والتبيين ج ٣ ص ٢١٢.

(١٠) الفخري ص ١٨٦.

(١١) الجهشياري ص ١٩٠، انظر السيوطي ـ حسن المحاضرة (القاهرة ١٣٢١) ج ٢ ص ٨ ـ ٩.

(١٢) الطبري ج ١٠ ص ٨٦ وابن الأثير ج ٦ ص ٦١.

(١٣) الجهشياري ص ١٨٩.

وقد بالغ الكتاب في وصف تلك العلاقة فيقول الجهشياري أن الرشيد كان «يسمي جعفراً أخي ويدخله معه في ثوبه»[1] وقال آخر أنه «كان يجلس معه في حلة واحدة قد اتخذ لها جيبان»[2]. وبنتيجة هذه الالفة وصلت دالة جعفر على الرشيد حداً بعيداً، كما يظهر من وعد جعفر لعبد الملك بن صالح العباسي، وقد زاره مساء، بتنفيذ رغباته وهي «أن في قلب أمير المؤمنين هنة فتسأله الرضى عني، فقال: قد رضي عنك أمير المؤمنين. قال وعلي أربعة آلاف درهم تقضي عني، قال انها لعندي حاضرة ولكن اجعلها من مال أمير المؤمنين. قال وابني إبراهيم، أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخليفة، قال قد زوجه أمير المؤمنين الغالية. قال وأحب أن يخفق لواء على رأسه، قال قد ولاه مصر» وفي اليوم التالي نفذ الرشيد ما قاله جعفر[3]، وهذه الحادثة أثارت استغراب المؤرخين أنفسهم[4].

وهكذا بلغ جعفر منتهى التنفذ والادلال، فكان يحيى يخاف عاقبة هذه الصلة الشخصية حتى قال للرشيد يوماً «يا أمير المؤمنين إني أكره مداخل جعفر ولست آمن أن ترجع العاقبة عليّ في ذلك منك، فلو أعفيته واقتصرت على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكان أحب الي وأولى بتفضيلك وآمن عليه عندي»[5]. وكم نصح يحيى ابنه بالاقلاع عن اندفاعه ولكن دون جدوى[6].

ومما نوه باسم جعفر ان الخليفة أشركه معه بالنظر في المظالم[7]، وقلده مراقبة دور الضرب والطرز[8] والبريد[9]. وقد كانت توليته على دور الضرب بدعة جديدة، وامتيازاً عجيباً، ويشرح المقريزي ذلك فيقول «وهارون الرشيد أول خليفة ترفع عن مباشرة العيار بنفسه، وقد كان الخلفاء من قبله يتولون النظر في عيار الدراهم والدنانير بأنفسهم وكان هذا مما نوه باسم جعفر بن يحيى البرمكي إذ هو شيء لم يتشرف به أحد قبله». كما أن الرشيد أمر بكتابة اسم جعفر على الدنانير والدراهم بمدينة السلام وبالمحمدية[10]

وعهد إلى جعفر بتربية المأمون وتدريبه. ويقال إنه أشار على الرشيد بالبيعة لهذا

---

(١) شرحه ص ٢٠٤.

(٢) ابن بدرون ـ شرح قصيدة ابن عبدون (مطبعة السعادة بمصر) ص ٢٢٢ ـ ٣.

(٣) الجهشياري ص ٢١٣ ـ ٢١٤، الفخري (١٣١٧ هـ) ص ٨٧ ـ ٨، ابن خلكان ج ١ ص ١٠٥ ـ ٦.

(٤) أنظر اليافعي ـ مرآة الجنان ج ١ ص ٤٠٥ ـ ٦، الجهشياري ص ٢١٣ ـ ٤.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٨٣، الجهشياري ص ٢٢٥.

(٦) الجهشياري ص ٢٢٤ ـ ٥.

(٧) شرحه ص ٢٠٤.

(٨) الطرز (جمع طراز) وتعني في هذا العصر معامل النسيج الخاصة بالخليفة لحياكة الخلع والملابس والاعلام والستائر والشارات الرسمية. أنظر ملحق دائرة المعارف الاسلامية (مادة Tiraz).

(٩) الجهشياري ص ٢٠٤.

(١٠) المقريزي ـ شذور العقود في ذكر النقود (طبعة النجف) ص ١١ و ٢١.

الأمير بعد الأمين[١]. ويروى أنه أكد على الأمين إيمانه حين علق كتاب العهد[٢].

نرى من هذا العرض أن الرشيد أعطى البرامكة سلطات كبيرة، وأفسح لهم المجال في الأمور فكان لهم أثر مهم في تسيير دفة الدولة وخاصة في حياة الخيزران، ولكن يجب أن لا يستنتج من ذلك أن الرشيد كان عاملاً لا يعتد به أو أن البرامكة كانوا أحراراً في جميع تصرفاتهم وغير خاضعين لرقابة الرشيد، فهناك أمور تدل على أن الخليفة كان يراقبهم وأنهم لم يكونوا دائماً مسيطرين على كل شيء. ولعل تعليق الرشيد على رقعة أرسلها اليه يحيى من السجن (يستعطفه ويذكر له حرمته وتربيته له) تبين لنا وجهة نظره، إذ وقع على ظهر الرقعة إنما مثلك يا يحيى ما قال الله عز وجل: ﴿**وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾[٣]. كما أن يحيى في أوج عظمته لم يكن يستبد برأيه بل كان يستشير الخيزران (تلك المرأة الطموحة الدساسة) دائماً، فيقول الطبري «وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن أمرها»[٤] ويقول الجهشياري «وقام يحيى بالأمور وكان يعرض على الخيزران ويورد ويصدر عن أمرها»[٥].

وقد كان أوج عز البرامكة في حياة الخيزران، فلما توفيت سنة ١٧٣هـ (٧٨٩ ـ ٩٠م)[٦] فقد يحيى بوفاتها حليفاً هاماً. ويمكن ملاحظة أثرها من أن الرشيد أخذ الخاتم يوم وفاتها من البرامكة وسلمه الى عدوهم الفضل بن الربيع وقال له «وحق المهدي.. إني لأهم لك من الليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني أمي فأطيع أمرها»[٧] وفي سنة ١٧٩ صرف محمد بن خالد بن برمك من حجابته وقلدها الفضل بن الربيع[٨]. وفي السنة التالية ولّى علي ابن عيسى بن ماهان أحد أعداء البرامكة على خراسان ضد رغبة يحيى[٩] وإذا علمنا أن خراسان هي أهم ولايات المملكة استطعنا تقدير خطورة تلك التولية. ويذكر الجهشياري أن الرشيد أخذ الحرس من جعفر وقلده هرثمة بن أعين[١٠].

---

(١) الجهشياري ص ٢١١.
(٢) المسعودي ج ٣ ص ٢٧٢.
(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ١٥٣ ـ ٤.
(٤) الطبري ج ١٠ ص ٥٠.
(٥) الجهشياري ص ١٧٧.
(٦) الطبري ج ١٠ ص ٥١.
(٧) شرحه ج ١٠ ص ٥٢.
(٨) الجهشياري ص ٢٢٣.
(٩) انظر الجهشياري ص ٢٤٨.
(١٠) شرحه ص ٢٠٧.

وهكذا يظهر أن الرشيد بحكم ظروف بيعته وصداقة الخيزران والبرامكة أعطى هؤلاء سلطة كبيرة، فاشتطوا ثم توفيت أمه فأخذ يسعى بالتدريج لتشذيب تلك السلطة ولمعادلتها بتقريب أعدائهم ولكنه أدرك عظم خطرهم فأخذ يسعى إلى نكبتهم حتى نجح أخيراً سنة ١٨٧هـ.

وقبل البحث عن أسباب النكبة أقول إنه من الصعب اعطاء فكرة وثيقة عن الدور الذي لعبه البرامكة لأن الرواة يتعصبون لهم أو عليهم، فبينما يصفهم البعض بالديانة والميل لبناء المساجد وأعمال الخير، إذ يتهمهم خصومهم بالزندقة. ولكن أعداءهم في ميادين الأدب والتاريخ قليلون لدرجة تكون معدومة، بينما نجد أنصارهم لا يحصون ويرجع ذلك إلى وجود الكتاب الأعاجم المتعصبين لهم (مثل سهل بن هارون) الذين يطنبون في مدحهم. ثم إن المؤرخين يتعصبون للكتّاب والبرامكة كانوا كتّاباً بل ويعتبرون من مؤسسي هذه الطبقة فسكت الكتّاب عن أخطائهم، ولهذا، كما يقول بارتولد «لا يصح الاعتماد على القول بأن عصر الرشيد تدهور بزوال البرامكة»[1]. ولا ننس أثر كرم البرامكة على الناس عامة.

وهذا التطرف من خصوم البرامكة وأصدقائهم، مع شدة تكتم الرشيد في الاقدام على عمله[2] فسح المجال للأراجيف والاشاعات، وجعل بعض المؤرخين يتخبطون في ظلام من أمر النكبة، ويختلفون في تعليلها فيقول المسعودي «واختلف في سبب ذلك»[3]. ويقول اليعقوبي «وأكثر الناس في أسباب السخط عليهم مختلفون»[4] ويقول الطبري أما سبب غضبه عليه ـ جعفر ـ الذي قتله عنده فإنه مختلف فيه»[5] ويقول أبو الفداء «وقد اختلف الناس في سبب ذلك (نكبة البرامكة) اختلافاً كثيراً»[6].

ولنستعرض الآن الآراء والروايات المختلفة. وأول ما يتبادر الى الذهن قصة العباسة أخت الرشيد التي انتشرت بين العامة قديماً وحديثاً لمسحتها العاطفية، وأول من أفرد لها كتاباً خاصاً هو الأتليدي (إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس) ويكفي الباحث أن يقرأه ليرى شكله الأسطوري واضطرابه وبعده عن الدقة. ثم انتشرت القصة في الوقت الحاضر بتأثير رواية زيدان (العباسة أخت الرشيد) ورواية (الرشيد والبرامكة) للأب انطون اليسوعي[7]، وقد نغض النظر عن هذين الكتابين إذ ذهب التدقيق التاريخي فيهما ضحية

---

(١) أنظر مقال «البرامكة» في دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٦٤ وما بعدها.

(٢) أنظر اليعقوبي ج ٣ ص ١٥٢، ابن خلكان ج ١ ص ١٠٨، الطبري ج ١٠ ص ٨٦.

(٣) مروج الذهب ج٣ ص ٢٨٤.

(٤) اليعقوبي ج ٣ ص ١٥٤ وانظر الفخري [٢١٧هـ] ص ١٩٠.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٧٩.

(٦) تاريخ أبي الفداء [القاهرة ـ المطبعة الحسينية] ج ٢ ص ١٦.

(٧) الأب أنطون رباط اليسوعي ـ الرشيد والبرامكة، بيروت ١٩١٠.

التسليـة والمتعة، وإن كنـا نلوم المؤلفين على اتخـاذ موضـوع كهذا لتـرقية فن الروايـة التاريخية.

وقد أرخى بعض المحدثين الذين كتبوا في التاريخ كالمدور[١] وخدابخش[٢] العنان لخيالهم وقبلوا القصة بشكلها الأسطوري. ولكني لا أشك في أنها موضوعـة، فالدينـوري (الأخبار الطوال) واليعقوبي، ذلك المؤرخ العراقي الذي عرف الشؤون الداخلية جيداً، لا يذكرانها، والجهشياري وهو من فحول مؤرخي العراق ومن أوثق المصادر يفندها إذ يروي أن عبيدالله بن يحيى بن خاقان سأل مسروراً الكبير[٣] في خلافة المتوكل عن سبب إيقاع الرشي بالبرامكة، فأجاب مسروراً «كأنك تريد **ما تقوله العامة فيما ادّعوه من أمر المرأة..** لا والله ما لشيء من هذا أصل»[٤]، وابن كثير يقول «ومن العلماء من أنكـر ذلك (أي قصة العباسة)»[٥]. ويفهم من ابن قتيبة أن العباسة كانت متزوجة، إذ يقول «أما العباسة فزوجها هارون محمد بن سليمان فمات عنها فزوجها من إبراهيم بن صالح بن علي»[٦]. وأخيراً جاء ابن خلدون فنبذها بكل احتقار مبيناً أنها مدسوسة.

وهناك نقطة مهمة، وهي أن نكبة البرامكة لم تكن فجائية كما يتصور البعض، ولا كانت نتيجة لثورة عاطفية أو عصبية كما يقول بعض الكتاب[٧] بل بعد تفكير طويل. فيـروي ابن عبد ربه عن إسحق بن علي بن عبدالله بن العباس أن الرشيد أخبره بشكـه في تصرفـات البرامكة وشاوره في أمرهم «ثم كان قتلهم بعد ست سنين من تاريخ ذلك اليوم»[٨]. ويروي اليعقوبي عن اسماعيل بن صبيح الكاتب أنه قال «بعث الي الرشيد يوماً فقال: إني أريد أن أوقع بآل برمك إيقاعاً ما أوقعته بأحد واجعلهم أحدوثة ونكـالاً الى الأبد.. ثم حـال الحول وحول ثان ثم حول ثالث، فلما كان رأس الحول الرابع قتلهم»[٩]. ويـروي الجهشياري عن السندي بن شاهك (صاحب الشرطة) أن الرشيد أسرّ إليه أن يستعد للقبض على البرامكة

---

(١) حضارة الاسلام في دار الاسلام [الطبعة الثانية] ص ٣٦٣.

(٢) Khuda Bukhsh- Islamic Civilisation, Vol II (Calcutta 1930) pp. 116-7.

(٣) مسرور هو الذي قتل جعفر، وكان موضع ثقة الرشيد ورئيس البريد أو قل رئيس الشرطة السرية.

(٤) الجهشياري ص ٢٥٤.

(٥) ابن كثير ـ البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨٩.

(٦) كتاب المعارف ص ١٦٦.

(٧) أمير علي ـ مختصر تاريخ العرب ص ٢١٠ Bukhsh o. c. II. P. 117، أنظر (براون) الجزء الأول ص ٢٥٧.

(٨) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٦٣ ـ ٤.

(٩) اليعقوبي ج ٣ ص ١٥٢ ـ ٣.

وحجز أموالهم قبل سنة من تنفيذ العقوبة[١] وهذه الروايات تبين أن الرشيد تروّى مدة طويلة قبل نكبة البرامكة.

ولبارتولد رأي طريف في نكبة البرامكة، مجمله أن المذهب الشيعي انتشر في إيران بين الطبقات العامة لأنها وجدت فيه وسيلة لمقاومة الأمويين السنة، وأن الأرستقراطية الفارسية اتفقت موقتاً مع العامة واجتمعت تحت راية أبي مسلم «وهو أحد رؤساء الشيعة» وحاربوا الأمويين، «ولما بلغوا الغاية تباينت المنافع فقتل أبو مسلم وقام أنصاره ضد العباسيين، وقد ثابر البرامكة ممثلو الطبقة الأرستقراطية على العمل لصالح الخلفاء العباسيين الى أن صاروا ضحية رد الفعل الديني في أواخر خلافة هارون الرشيد»[٢]. وفي هذا الرأي نقطتان الأولى وهي أن النزاع الطبقي في إيران بين العامة والأرستقراطية والنزاع السياسي بين الفرس والعرب بدا بثوب مذهبي بشكل نزاع بين الشيعة والسنة، والثانية هي أنه بعد القضاء على الأمويين رجع النزاع الطبقي الذي نُسي أثناء النضال ضد الأمويين. ولكن بارتولد انحرف عن الصواب في هذا التفسير لأن المذهب الشيعي لم ينتشر في إيران بشكل واسع آنئذ[٣] ولأن الدعوة كانت عباسية والشيعة شيعة بني العباس لا شيعة العلويين كما أوضحنا في الفصل الأول، وثانياً إن سلمنا جدلاً أن الأرستقراطية انضمت موقتاً للمذهب الشيعي فإن الخلافات رجعت بعد الانتصار على الأمويين ورجع الأرستقراطية (وممثلوهم البرامكة) الى الاتحاد مع الدولة الحاكمة (كما يقول بارتولد) وفي تلك الحالة لا يمكن اعتبار البرامكة شيعة. ثم ليس هناك ما يدل على أن الرشيد كان يغضي عن الشيعة العلوية أو يتسامح معهم وأنه حصل لديه رد فعل ديني في أواخر أيامه. وأخيراً يجب أن نميز بين وجود ميول علوية عند البرامكة وبين تسميتهم شيعة فالفرق كبير بين الحالتين.

أما رأي الدكتور الرفاعي[٤] بأن البرامكة كانوا معتزلة فأدى ذلك إلى نكبتهم فليس هناك ما يؤيده ولم يبين لنا الدكتور ما حمله على ذكر رأي كهذا.

هذه مجمل الآراء والاشاعات التي صادفتها في تفسير نكبة البرامكة. وأنا أرى أنها نتجت عن أسباب متنوعة مشتبكة أثرت على الرشيد خلال فترة استخدامه للبرامكة، ويمكن اجمالها بما يلي:

١ ـ **السبب السياسي**: فقد أظهر البرامكة ميولاً سياسية خطرة على سلامة الدولة. وأخطر مثل لذلك جعفر (أو الفضل) ليحيى بن عبدالله من السجن «حرماً لدماء أهل البيت

---

(١) الجهشياري ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) بارتولد ـ الحضارة الاسلامية ص ٦٥ ـ ٦.

(٣) انظر جبريالي «المأمون والعلويون» (بالايطالية).

(٤) الرفاعي ـ عصر المأمون ج ١ ص ١٨٥.

بزعمه ودالة على السلطان في حكمه»(١) دون معرفة الرشيد، فأخبره الفضل بن الربيع بذلك. وعندئذ استفسر الخليفة من جعفر فاعترف بما فعل، فلم يظهر له تأثره بل قال «نعم فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي»، ثم قال بعد ذهاب جعفر «قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك»(٢). ويقول الطبري عند إيراد هذه الرواية «ذكر أبو محمد اليزيدي، وكان فيما **قيل من أعلم الناس بأخبار القوم** قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر ابن يحيى **بغير** سبب يحيى بن عبدالله بن حسن فلا تصدقه». مما يدل على أهمية هذه الحادثة. ويبين الجهشياري أن الرشيد اتهم يحيى البرمكي بأنه أرسل مئتي ألف دينار الى يحيى بن عبدالله عندما خرج بالديلم(٣).

ويذكر الأصبهاني أن الرشيد غضب على الفضل بن يحيى لأنه دفع إليه الامام موسى ابن جعفر وأراد منه فعل شيء «فلم يفعله وبلغه أنه عنده في رفاهية وسعة». فأرسل إلى السندي بن شاهك ببغداد (والرشيد آنئذ بالرقة) بجلد الفضل، وصرح بحضور يحيى «أيها الناس إن الفضل قد عصاني وخالف طاعتي، فرأيت أن ألعنه»، ولكن يحيى أرضى الرشيد في الأخير(٤). ويؤيد الجهشياري هذه الرواية إذ يقول «ثم ظهر من الرشيد سنة ١٨٣ هـ سخط على الفضل بن يحيى، فشخص الى الرقة ومعه أمه.. فرضي عنه.. ولم يرد إليه شيئاً من أعماله»(٥).

ويروي الطبري أن علي بن عيسى بن ماهان «اتهم موسى بن يحيى البرمكي عند الرشيد في أمر خراسان وأعلمه طاعة أهلها له ومحبتهم إياه وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال إليهم والوثوب به معهم، فوقر ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه». وقد أثرت هذه التهمة على الرشيد حتى أمر بسجن موسى سنة ١٨٦هـ، ثم أطلقه بعد توسط أم الفضل، وبعد وعد يحيى بأن ابنه لن يقوم بسوء(٦).

وهكذا نرى تكدر العلاقة بين الرشيد وبين البرامكة نتيجة لتصرفات جعفر ولاتهام الفضل وموسى في الناحية السياسية مما ولد عند الرشيد شكاً عميقاً بنياتهم. حتى قال الأربلي «وقيل أرادت البرامكة إفساد الملك فقتلهم الرشيد لذلك»(٧).

٢ ـ **السبب المالي**: تسلط البرامكة على أموال الدولة، وتطرفوا في إنفاقها حسب

---

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة مصطفى محمد عن طبعة بيروت) ص ١٦.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٨٠ ـ ١.

(٣) الجهشياري ص ٢٤٣.

(٤) مقاتل الطالبيين ص ٣٣٤ ـ ٥.

(٥) الجهشياري ص ٢٢٧.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٨٣.

(٧) التبر المسبوك ص ١٠٦.

ميولهم وقيدوا الرشيد في هذه الناحية. فيقول ابن خلدون «إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واجتحافهم أموال الجباية حتى كان يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه». ثم يقول «وتسيرت الى خزائنهم في سبيل التزلف ولاستمالة أموال الجباية»[١]. ويبين الجهشياري مدى سيطرة البرامكة في الناحية المالية حين يقول «وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه له من المال للحوادث سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله، وأنه طلب من جعفر عشرة آلاف درهم فقال لا توجد عندنا دراهم»[٢]، هذا مع العلم بأن وارد الدولة بلغ في عهد الرشيد (٥٣٠,٣١٢,٠٠٠) درهماً[٣]. ويروي الجهشياري أن الرشيد طلب مرة من يحيى مليون درهم، وكان قد ورد من فارس ستة ملايين درهم، فلم يجب طلبه ثم أخذ يحيى منها مليوناً ونصفاً وفرقها في عماله[٤].

ومن الجهة الأخرى امتلك البرامكة الضياع وأسرفوا في العطايا والهبات حتى أوغروا صدر الرشيد ونافسوه في الأبهة والجاه. فقد بنى جعفر داراً أنفق عليها عشرين مليوناً من الدراهم[٥]. ويقول الدميري «قتل جعفر لأنه قد حاز ضياع الدنيا لنفسه وكان الرشيد إذا سافر لا يمر بضيعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر»[٦]. ويروي الجهشياري ان يحيى لما أحس بتغير الرشيد عليه شاور في أمره صديقاً له من الهاشميين فقال هذا « إن أمير المؤمنين قد أحب جمع المال وكثر ولده، فأحب أن يعتقد لهم الضياع وقد كثر على أصحابك عنده فلو نظرت الى ما في أيديهم من ضياع وأموال فجعلتها لولد أمير المؤمنين، وتقربت بها اليه رجوت لك السلامة»، ولكن يحيى لم يرض بذلك[٧]. ويروى أن الرشيد قال لمسرور إن البرامكة «قد نهبوا مالي وذهبوا بخزائني»[٨]. ويذكر الاتليدي أن الرشيد كان يقول «أغنيناهم (أي البرامكة) وافقروا أولادنا ولم تكن لأحد من أولادنا ضيعة من ضياع البرامكة»[٩]. وقد ضرب الرشيد يحيى مائتي سوط ليقر له بما أخفاه من الأموال[١٠].

ويمكننا الحصول على فكرة تقريبية لما أخذه البرامكة من أموال الدولة إذا نظرنا إلى واردهم السنوي وإلى عظم الهبات التي وهبوها. فيذكر ابن عبد ربه وابن قتيبة أن مبلغ

---

(١) المقدمة ص ١٥ ـ ٦.

(٢) الجهشياري ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٣) شرحه ص ٢٨٨.

(٤) شرحه ص ٢٤٣.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٨٢.

(٦) الدميري ـ حياة الحيوان.

(٧) الجهشياري ص ٢٧٧.

(٨) شرحه ص ٢٤٢.

(٩) الاتليدي ـ اعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس ص ١١٥.

(١٠) الجهشياري ص ٢٤٤.

جباية البرامكة سنوياً بلغت عشرين مليون درهم، وأن مقدار ما قبضه الرشيد من أموالهم بلغ ثلاثين مليوناً وستمائة وستين الف درهم، (أو ستمائة الف وست وسبعين ألف درهم) بالاضافة «الى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم والدقيق والجليل من مواهبهم فإن ذلك لا يوصف أقله ولا يعرف أيسره إلا من أحصى الأعمال وعرف منتهى الآجال»[١]. ويروي الجهشياري أن مسروراً الخادم وجد أكثر أموال البرامكة على شكل ضياع وجوهر، بينما انفقوا أكثر الدراهم في المكارم[٢].

أما عطايا البرامكة وهباتهم فهي أشهر من أن تذكر[٣]. وقد ضرب جعفر دنانير خاصة للصلات يقلد بها الخلفاء، فيذكر الخطيب البغدادي أنه وجد في خزانة لجعفر بن يحيى في صرة الف دينار قيمة كل دينار مائة دينار ودينار، ويقول أن جعفراً أمر أن تضرب دنانير في كل منها ثلاثمائة دينار[٤]. ويذكر الجهشياري أنه وجد في بركة لجعفر أربعة آلاف دينار وزن كل دينار مائة دينار ودينار[٥].

أفتستغرب إذاً استنكار الرشيد لتبذير البرامكة لأموال الدولة واستئثارهم بها بينما قيدوه في نفقاته!

٣ ـ ثم إن ميول البرامكة الفارسية أفسحت المجال لاتهامهم، وقد ظهرت هذه الميول في مناسبات مختلفة رغم تحفظهم. فيحيى قرب بني سهل وهم مجوس وعرّف المأمون بالفضل بن سهل وكان مجوسياً آنئذ، وطلب من المأمون تقريبه وقال عنه «في كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة وأنت (يخاطب الفضل) عندي منهم»[٦]. وحادثة هدم إيوان كسرى مشهورة، فينسب الطبري المشورة بعدم هدمه الى خالد بينما ينسبها الجهشياري الى يحيى زمن الرشيد ويقول إن الرشيد علق على رأي يحيى قائلاً «هذا من ميلك إلى المجوسية»[٧]. وأي الروايتين صحت (وأنا أميل الى الأولى) فإنها تتفق وميول البرامكة الفارسية[٨]. ويقول ابن النديم أن البرامكة تكره محمد بن الليث لأن فيه ميلاً على العجم[٩].

وقد حاول البرامكة إبعاد العرب عن مناصب الدولة الهامة، ويتضح ذلك في وشايتهم

---

(١) ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة (مطبعة النيل) ج ٢ ص ٢٣٢ ـ ٤، العقد الفريد ج ٣ ص ٢٦١.

(٢) الجهشياري ص ٢٤٢.

(٣) أنظر الجهشياري ص ١٩٢، الطبري ج ١ ص ٦٢، الخطيب البغدادي ج ٧ ص ١٥٢ والجهشياري ص ٢٢٢ ـ ٣.

(٤) الخطيب البغدادي ج ٧ ص ١٥٦.

(٥) الجهشياري ص ٢٤١.

(٦) شرحه ص ٢٣٢.

(٧) شرحه ص ٢٢٩.

(٨) أنظر براون ج ١ ص ٢٥٩.

(٩) الفهرست ص ١٧٥.

ضد القائد العربي يزيد بن مزيد الشيباني الذي أرسله الخليفة لقتال الوليد بن طريف، وكان يزيد يرى استعمال التأني والمخاتلة مع الخوارج، «وكانت البرامكة منحرفة عنه، فقالوا للرشيد إنما يتحاشى قتال الوليد لوجود الرحم بينهما وهوّنوا أمر الوليد فغضب عليه الرشيد»(١). ويذكر البيروني أن الفرس اجتمعوا الى يحيى بن خالد وسألوه أن يؤخر النوروز (الانقلاب الصيفي وموعد الجباية) نحو الشهرين ليتفق موعد الجباية ونضوج الحاصل كما كان الحال زمن الساسانين «فعزم (يحيى) على ذلك فتكلم اعداؤه فيه وقالوا أنه يتعصب للمجوسية فأضرب عن ذلك»(٢).

ولعل هذه السياسة ولدت تكتلاً بين رجالات العرب ضدهم، فيرى بارتولد أن البرامكة شكلوا شبه حزب فارسي في الدولة، وقابلهم العرب بالمثل فتشكل حزب ضدهم وترأسته زبيدة زوج الرشيد(٣). وكانت زبيدة تكره البرامكة كثيراً وتشتكوهم الى الرشيد بينما كان يحيى يضايقها ويقيد تصرفاتها فعاتبه الرشيد مرة على أثر شكاية لها «فقال امتهوم في حرمك، قال (الرشيد) لا. فقال لا تقبل قولها علي»(٤). وذكر المسعودي أن زبيدة اضطغنت على جعفر البرمكي لأنه أكد على الأمين في الكعبة بأن لا يغدر بأخيه المأمون «فكانت أحد من حرض الرشيد على أمره وبعثه على ما نزل به»(٥).

ثم ان استئثار البرامكة بالوظائف وحصرها في اقاربهم وأتباعهم(٦) جعل بعض الشخصيات غير العربية كعلي بن عيسى بن ماهان الذي لم يكن من حزبهم، والفضل بن الربيع الذي لم يكن من صنائعهم تتعاون مع الكتلة العربية لاسقاطهم والتنكيل بهم.

٤ ـ وأثار البرامكة مخاوف الرشيد بجاههم وتعاظم نفوذهم، فيقول الفخري «وقيل إن جعفراً والفضل ظهر منهما من الادلال ما لا تحمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك»(٧). ويقول ابن خلدون «وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب»(٨). ويرى ابن العماد أن الرشيد نكب البرامكة لأنه رأى إقبال الناس عليهم وكثرة أتباعهم وأشياعهم مع الادلال العظيم منهم(٩). ويذكر اليانعي خوف الرشيد منهم لأنه

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٥٧، الأغاني ج ١١ ص ٨ ـ ٩.

(٢) البيروني ـ الآثار الباقية ص ٣٢ ـ ٣.

(٣) البرامكة ـ دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٦٣.

(٤) اليافعي ـ مرآة الجنان ج ١ ص ٤٠٦ ـ ٧.

(٥) مروج الذهب ج٦ ص ٢٧٢.

(٦) أنظر المقدمة ص ١٦ ويروي ابن خلدون ان بني قحطبة وهم اخوال جعفر كانوا من اعداء البرامكة، ولعل ذلك ناتجاً عن كون القحاطبة عرباً يمانيين.

(٧) الفخري ص ١٥٦ ـ ٧.

(٨) المقدمة ص ١٦.

(٩) شذرات الذهب ج ١ ص ٣١١.

«رأى.. أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم وآمالهم فيهم ونظرهم اليهم دونه»[1]. ويمكننا لمس شعور الرشيد في هذه الناحية من رواية الجهشياري بأن الرشيد كان في أوائل حكمه جالساً على شرفة قصر الخلد فسمع صيحة عظيمة، وعندما عرف أنها خارجة عن المتظلمين الذين اجتمعوا حول يحيى بن خالد قال «بارك الله عليه وأحسن جزاءه فقد خفف عني وحمل الثقل دوني وناب منابي» وعندما سمع نفس الضجة من نفس المحل بعد سنين عديدة قال «فعل الله بيحيى وفعل (يذمه ويسبه) استبد بالأمر دوني وأمضاها على غير رأيي وعمل بما أحبه دون محبتي»[2].

وبالإضافة الى ما ذكرنا، كانت علاقة جعفر بالرشيد خطرة لأنها كانت تستند الى العواطف (الصداقة)، والعواطف معرضة للتقلب. وقد أدرك يحيى ذلك فشكا الى الرشيد قائلاً «والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك عليّ منك، فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتي وآمن لك عليّ». وحاول أن ينبه ابنه الى خطورة تصرفاته فلم يفد ذلك ولما يئس من إرشاده قال له «إني إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا شوى لها»[3].

وكان للوشاية أثرها في نكبة البرامكة ـ إذ حاول خصومهم انتهاز كل فرصة لإيغار صدر الخليفة عليهم. وقد لعب الفضل بن الربيع الدور الأكبر وساعده على ذلك كونه حاجب الرشيد وعلى اتصال دائم به. يقول ابن خلكان «وسعى الفضل بهم، وتمكن بالمجالسة من الرشيد فأوعز قلبه عليهم وملأه بها على ذلك كاتبهم اسماعيل بن صبيح»[4]. وكان يضع الفضل العيون عليهم وقد أخبره أحد جواسيسه بإطلاقهم ليحيى بن عبدالله[5]. ووشى علي ابن عيسى بموسى بن يحيى واتهمه بالتآمر مع أهل خراسان ضد الخليفة. واتهمهم الأصمعي وآخرون بالزندقة. ويذكر ابن خلكان ان رجلاً أوصل الى الرشيد قصيدة جاء فيها تحذير له من نفوذ البرامكة وعظم سلطتهم وانذار له من وثبتهم على السلطان، وأنها أثرت على الرشيد. وجاء محمد بن الليث الى الرشيد يذكره بواجباته ويبين له خطأه في تفويض الأمور الى يحيى و «ان يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً وقد جعلته فيما بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه فسألك عما عملت في عباده وبلاده، أترى تحتج

---

(١) مرآة الجنان ج ١ ص ٤١٠.

(٢) الجهشياري ص ٢٤٥ ـ ٦.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٨٣.

(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١٢.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٨١.

(٦) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٨.

بحجة يرضى بها؟» ويبين الطبري أن هذا القول كان له أثر في نكبة البرامكة(١).

وهكذا جاء خصوم البرامكة من جهة السياسة والدين والدولة حاولوا إثارة شكوك الرشيد في تصرفاتهم. إلا أن أثر هذه الوشايات قوي بعد تنكر الرشيد للبرامكة(٢).

إجتمعت العوامل المذكورة ودفعت الرشيد الى نكبة هذه الأسرة، فاستعمل طريق الحكمة في ذلك بأن بدأ بتشذيب سلطتهم وتدرج حتى نكبهم أخيراً سنة ١٨٧هـ/٨٠٢م، «وأمر بالنداء في جميع البرامكة ألا أمان لمن آواهم الا محمد بن خالد وولده وحشمه وأهله فإنه استثناهم لما ظهر من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة»(٣) مما يبين أن الجريمة اعتبرت عامة وأنها تتعلق بسلامة الدولة. وقد عوملوا أول الأمر بشيء من اللطف والترفيه، ثم اتهموا بهد سنة بالتآمر مع عبد الملك بن صالح ضد الخليفة فعوملوا بعد ذلك بشدة(٤). وتوفي يحيى سنة ١٩٠هـ، والفضل سنة ١٩٣ (قبيل وفاة الرشيد) في السجن(٥). ولما أفضت الخلافة الى الأمين أطلق محمداً وموسى بن يحيى من الحبس بالرقة «ووصل جماعة آل برمك الرجال والنساء وأكرمهم» ولكنه لم يستخدمهم(٦). وأكرمهم المأمون أيضاً.

هذه نهاية البرامكة وهي رمز للتضارب بين سلطة الوزراء وبين سلطة الخلفاء، كما أنها دليل على التباين بين مصلحة الخلفاء العباسيين وبين ميول وزرائهم الفرس ذلك التباين الذي ظهر جلياً في تصرفات الخلال من قبل، وفي تصرفات بني سهل في خلافة المأمون.

ويبالغ البعض في أثر نكبة البرامكة ويرون ان انحلالاً سرى في المملكة بعدهم(٧). وهذا ضرب من التحين، لأن دور فعالية الرشيد في حروبه مع البيزنطيين كان بعد نكبتهم كما لاحظنا، كما أنه أبدى همة في إدارة الدولة، فعزل علي بن عيسى عن خراسان وأصلح الحال هناك، وخرج سنة ١٩٣هـ لمحاربة رافع بن الليث بنفسه(٨). ولكني أرى أن سقوطهم أدى الى زيادة الخصومة بين الفرس والعرب، فظهرت قوية أثناء النزاع بين الأمين والمأمون.

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٨٠.

(٢) شرحه.

(٣) شرحه ج ١٠ ص ٨٥.

(٤) ابن الاثير ج ٦ ص ٧١.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ١٠٩.

(٦) الجهشياري ص ٢٩٧ ـ ٨.

(٧) انظر الجهشياري ص ٢٦٥ و ص ٢٥٨، ابن خلكان ج ٢ ص ٢٤٦ المدور (الطبعة الثانية) ص ٣٥٨ ـ ٦٠.

(٨) يرى بارتولد ان سقوط البرامكة لم يؤثر في الدولة كثيراً (دائرة المعارف الاسلامية ج ١ ص ٦٦٣).

الاداريات

رجع نفوذ الحرم الى قوته في خلافة الرشيد، فقد كانت أمه الخيزران تتدخل في شؤون الدولة وكان لها صوت مسموع، ويظهر أن ابنها لم يكن يستطيع مخالفة رغباتها(١). كما أن زوجته زبيدة أخذت تتدخل في السياسة بعد وفاة الخيزران. ولم يكن الرشيد متشدداً في محاسبة العمال ان لم يظهر منهم ما يدل على العصيان، ففظائع علي بن عيسى ابن ماهان مشهورة. وهذا الفضل بن يحيى البرمكي، أثناء ولايته على خراسان يهب عامله على سجستان خراج منطقته (أربعة ملايين درهماً وخمسمائة الف درهم) بالإضافة الى الغنائم التي غنمها ذلك العامل من غزوة كابل وقدرها سبعة ملايين درهماً(٢). وربما كانت قلة المحاسبة متعلقة بإهمال شؤون البريد في خلافة الرشيد، فيذكر الجهشياري «ان أمور البريد والأخبار في أيام الرشيد كانت مهملة وأن مسروراً الخادم كان يتقلد البريد والخرائط ويخلفه عليه ثابت الخادم. قال فحدثني ثابت ان الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة لم تفض»(٣).

وفي خلافة الرشيد استحدث منصب قاضي القضاة. واهتم الخليفة بالعدل بين الرعية، «وأقام رجال العدالة في جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع» لحفظ حقوق الناس في معاملاتهم وديونهم، وجعل لهم دكاكين ومصاطب خاصة في المحلات العامة ليسهل وصول الناس اليهم(٤). واهتم بحفظ الأمن في العاصمة بدس شبكة من العيون بأمرة صاحب الشرطة لمنع الاضطراب الذي يحصل من كثرة الوافدين اليها، وأقام الحراس بالليل لمحافظة الدروب(٥).

وفي هذا العهد حفر نهر القاطول، وكذلك نهر أبي الجند وانفق عليه عشرون مليون درهم(٦). وخفف الخليفة سنة ١٩٢هـ ضريبة الخراج في السواد، إذ «وضع.. عن أهل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف»(٧).

ويروي الجهشياري أن الرشيد «أمر باجراء القمح على أهل الحرمين وتقدم بحمله من مصر اليهم. وأجرى على المهاجرين والأنصار وعلى وجوه أهل الامصار وعلى أهل الدين والآداب والمروءات» وسعى لنشر العلم، فأنشأ «كتاتيب» لليتامى(٨).

---

(١) أنظر الطبري ج ١٠ ص ٥٤.

(٢) شرحه ج ١٠ ص ٦٤.

(٣) الجهشياري ص ٢٦٥.

(٤) المدور ـ حضارة الاسلام (طبعة ثانية) ص ١٣٣ ـ ٤، أنظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥.

(٥) المدور ص ١٣٤.

(٦) الجهشياري ص ١٧٧

(٧) الطبري ج ١٠ ص ٥١.

(٨) الجهشياري ص ١٧٧.

واهتم الرشيد بقضية ولاية العهد، وكان لظروف حكمه ولوضع الحاشية حوله أبلغ الأثر في السياسة التي انتهجها في هذا الباب. فقد مرت خمس سنوات من حكمه دون أن يعهد لأحد، فحرك ذلك أطماع البارزين من بني العباس، وجعله يسرع في الأمر. يقول الطبري «وكانت جماعة بني العباس قد مدوا أعناقهم الى الخلافة بعد الرشيد لأنه لم يكن له ولي عهد فلما بايع له (أي للأمين) انكروا بيعته لصغر سنه»[1]. وكان المنتظر أن يعهد لابنه عبدالله (المأمون) لأنه يكبر محمداً (الأمين) بسنة ولكنه عدل عنه الى الأمين نزولاً عند رغبة زبيدة وبني هاشم أخوال محمد، فيروي الأربلي على لسان الرشيد «ولولا أم جعفر، وميل بني هاشم إليه (أي الأمين) لقدمت عبدالله عليه»[2] ويؤيده المسعودي الذي يبين ان الرشيد عرف أن بني هاشم «مائلون الى محمد بأهوائهم» ولذلك بايع له[3]. وهكذا «عقد الرشيد (سنة ١٧٥ ـ هـ) لابنه محمد بمدينة السلام من بعده ولاية عهد المسلمين وأخذ له بذلك بيعة القواد والجند. وله يومئذ خمس سنين»[4].

ثم بايع الرشيد سنة ١٨٣هـ لابنه عبدالله بولاية العهد بعد الأمين وسماه المأمون وولاه خراسان وما يتصل بها من حد همذان الى آخر المشرق[5]. ويظهر أنه كان لجعفر يد في ذلك، فقد روي عن الأمين أنه قال «إن رأي الرشيد (في البيعة للمأمون) كان فلتة شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره واستماله برقاه»[6]. ولعل الرشيد أراد أن يؤكد رأيه فبايع للمأمون بعد أن جعله الهاشميون يقدم الأمين، وهناك احتمال ثالث وهو رغبة الرشيد في حفظ الخلافة في نسله فدفعه ذلك الى البيعة للمأمون بعد الأمين لأن الأمين كان آنئذ صغير السن والمستقبل غامض. أما الرأي الذي تردده المصادر وهو أن انحلال أخلاق الأمين ونبل المأمون دفع الرشيد الى البيعة للمأمون ففيه نظر لأن كلاً من وليي العهد كان حدثاً لم تظهر مزاياه بكاملها في ذلك الوقت[7]. وفي سنة ١٨٦ بايع الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون ولقبه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم، وكان ذلك بتأثير عبد الملك بن صالح مربي القاسم[8].

وهكذا أعاد الرشيد خطأ أسلافه في العهد، ويعلق ابن الأثير على ذلك قائلاً «وهذا

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٥٣.

(٢) الاربلي ص ٨٧.

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧١.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٥٣، اليعقوبي ج ٣ ص ١٤٠. وعلى رواية اخرى(ضعيفة)يجعلها الطبري (ج ١٠ ص ٧٢) سنة ١٧٣هـ.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٧٢، ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ١٣٦.

(٧) انظر المسعودي ج ٣ ص ٢٧١.

(٨) ابن الأثير ج ٦ ص ٦٩، الطبري ج ١٠ ص ٧٢.

من العجائب فان الرشيد قد رأى ما صنع أبوه (المهدي) وجده (المنصور) بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد، وما صنع أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد فلو لم يعاجله الموت لخلعه، ثم هو يبايع للمأمون بعد الأمين وحبك الشيء يعمي ويصم»[1]. ولكن الرشيد زاد الطين بلة بتقسيمه الامبراطورية بين أولاده الثلاثة، وحصره منطقة الأمين بالعراق والمغرب[2]. ولعل ذلك نتيجة لرغبته في تنفيذ وصيته ومنعاً لنكث الأمين ببنود عهد شذب سلطة ذلك الأمير.

وفي سنة ١٨٦هـ حج الرشيد «ومعه ولداه وقواده ووزراؤه وقضاته. فلما قضى مناسكه كتب لعبدالله المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما، أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه وتسليم ما ولّى عبدالله من الأعمال وصير اليه من الضياع والغلات.. والأموال. والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبدالله على محمد وعليهم» وعلق الكتابين في الكعبة ليزيد في قدسية عهده وليؤكد تنفيذه[3].

ومن هذا نرى أن التباين بين رغبة الرشيد الخاصة وبين ميول الحاشية وبني هاشم أدى الى هذا التخليط وجر الويلات على الدولة العباسية كما سنرى.

كلمة أخيرة:

يمكننا، بعد القاء نظرة عامة على حكم الرشيد، أن نعتبره في مصاف أعاظم ملوك العالم، إذ كان قائداً موفقاً، وخليفة يهتم بخير الرعية فكان أول من طلب من الفقهاء كتابة رسالة في الخراج وطرق جمعه وصرفه بأساليب عادلة، ويعتني بنشر العدل ويشجع حركة الترجمة، ولم يتوان في القيام بواجبه.

ولكنه ترك بذرة شقاق بولاية العهد حتى أدرك الناس خطر الانفجار في حياته، فيروي الطبري «قال بعض العامة قد أحكم أمر الملك. وقال بعضهم بل قد ألقي بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة»[4].

وسمح للحرم بالتدخل في شؤون الدولة بعد أن وضع الهادي حداً لذلك.

وأبدى قصر نظر في علاقته بالبيزنطيين لأنه لم يستفد من مشاكلهم الداخلية ولم يحاول اتباع انتصاراته بل كان يكتفي بالجزية، ولعل هذا يبين أنه كان مقلداً في سياسته ولم يكن بانياً أو مبتكراً مثل المنصور.

---

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٦٥.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٧٢.

(٣) شرحه ج ١٠ ص ٧٣.

(٤) شرحه ج ١٠ ص ٧٢.

وأفسح المجال كثيراً لعواطفه في سياسته، وخاصة في علاقته بالبرامكة فكان لذلك أثر في شدة نكبتهم، وفي تكوين حزبين سياسيين في البلاط تتناحر بالدسائس مما عاد بالضرر الجسيم على الدولة بعد وفاته.

وفي عصره كان بدء التفسخ السياسي في الدولة، فانفصلت مراكش نهائياً وأصبحت أفريقية (تونس) شبه مستقلة.

وأخيراً نقول إن بغداد وصلت حداً بعيداً من العظمة في خلافته، كما تقدمت الحضارة والعلوم، ولكن أوج بغداد كان في القرن الثالث كما أن دور نضوج الحضارة والمؤسسات الاسلامية كان في دور متأخر.

الفصل السابع

الخلاف بين الأمين والمأمون

(١٩٣هـ - ١٩٨هـ)

---

١ ـ مقدمة:

ا ـ صعوبة التوفيق بين الأخوين

ب ـ وجود الأحزاب.

جـ ـ تحزب المصادر.

٢ ـ اخلاق الأمين

٣ ـ الخلاف

ا ـ أسبابه

ب ـ دور الدبلوماسية فيه

جـ ـ النزاع المسلح

٤ ـ كلمة أخيرة

دخلت عوامل متعددة في إثارة النزاع بين الأمين والمأمون، بعضها ناتج عن ظروف أحاطت بالأخوين ولم تكن من صنعهما (وهذا ما سأذكره في المقدمة) وبعضها كان من تدبيرهما وإن كان مرتبطاً بالأوضاع السابقة.

فقد كان عهد الرشيد صعب التحقيق لاختلاف ميول وليي العهد من جهة ولصعوبة بعض شروط العهد من جهة أخرى. إذا اقتصرت سلطة الخليفة الأمين على جنوب العراق والشام وشبه الجزيرة ومصر وقيد في علاقته مع المأمون بشكل جعل أخاه مستقلاً فعلاً في الولايات الشرقية، ولعل الفقرات الآتية من العهد توضح ذلك: «ليس لمحمد بن أمير المؤمنين أن يحول عنه (عن المأمون) قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم اليه من أصحابه الذين ضمهم اليه أمير المؤمنين ولا يحول عبدالله بن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاه اياها هارون.. ولا يولي عليها أحداً ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره بنداراً ولا محاسباً ولا عاملاً ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره»[(١)]. وهذه بذرة خلاف أكيدة لأنه «لا يجتمع فحلان في أجمة» كما قال الأمين[(٢)]. وقد أدرك بعض المعاصرين هذا الخطر.

وكان بنو هاشم حزباً مع الأمين يؤيدونه ويلتفون حوله وقد اعترف الرشيد نفسه بقوة

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٧٤.

(٢) شرحه ج ١٠ ص ١٤٥.

نفوذ أنصار الأمين[١]. وكان الفضل بن سهل يشعر بقوة هذه الكتلة، فيقول الجهشياري إنه كان في نية الرشيد ابقاء المأمون ببغداد عندما أراد السير ضد رافع بن الليث، ولكن الفضل حذر المأمون «لا تقبل وسله ان يشخصك معه، فإنه عليل، وغير مأمون أن يحدث عليه حادث أن يثب عليك أخوك فيخلعك وأمه زبيدة وأخواله من هاشم»[٢]. وقد لا تسمى هذه الجماعة حزباً ولكنها على كل حال كانت كتلة تضم بني هاشم والكتلة العربية التي تكونت في خلافة الرشيد، مع بعض العناصر الفارسية المنحرفة عن المأمون وبني سهل لأسباب نفعية كعلي بن عيسى بن ماهان.

ومن الجهة الأخرى هناك بوادر تبين أن الفرس كانوا يؤيدون المأمون ويشكلون كتلة معادية لجماعة الأمين. فالفضل بن سهل مثلاً يشجع المأمون في خراسان على الثبات ويبين له قوة مركزه قائلاً «وكيف بك وأنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم.. اصبر وأنا أضمن لك الخلافة»[٣]. وفي أواخر أيام الأمين، ثار الأبناء (الخراسانيون ببغداد) ضده وبايعوا للمأمون وسهلوا لطاهر دخول بغداد[٤]. ونجد الأمين بعد فشل جيوشه في قتال طاهر يتبع اقتراح عبد الملك بن صالح في أن «يقدم أهل الشام لحربه، فهم أجرأ من أهل العراق، وأعظم نكاية في العدو»[٥] ولكن الخراسانيين في جيشه لم يرتاحوا لهذه السياسة واختلفوا مع الشاميين، ثم رجعوا مغضبين الى بغداد بزعامة حسين بن علي بن عيسى بن ماهان، ثم تطرف حسين اذ «أغرى الناس بخلع الأمين وحذرهم من نكثه»[٦]، مع أنه أحد قواده. وكان الخراسانيون يشيرون الى المأمون بـ «ابن أختنا» ولا ننسى أن نواة هذه الكتلة تكونت في زمن البرامكة.

ويتمثل هذان الحزبان في الفضل بن الربيع خصم البرامكة وعدو النفوذ الفارسي الألد، وفي الفضل بن سهل ربيب البرامكة الذي كان مجوسياً فأسلم، والذي أراد «جعل الملك كسروياً»[٧].

ومن هذا يتضح بأن وجود حزبين وتقييد سلطة الخليفة الجديد جعل تطبيق بنود العهد أمراً عسيراً.

وقبل البحث في مشكلة الخلاف، يجب ملاحظة روح التحزب ضد الأمين عند مختلف المؤرخين والحذر منهم، لأن الذي يغلب على الكتاب والشعراء مناصرة الغالب والمبالغة

---

(١) الاربلي ص ٨٧، المسعودي ج ٣ ص ٢٧١.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٢٨.

(٣) الجهشياري ص ٢٦٦.

(٤) اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٠.

(٥) ابن خلدون ـ التاريخ (طبعة بولاق) ج ٣ ص ٢٣٦.

(٦) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٢٣٦ ـ ٧.

(٧) الجهشياري ص ٣١٢.

بفضائله وذم المغلوب. فهم يسمون الأمين «المخلوع» ويرمونه بكل قبيح، حتى قال ابن الأثير، «لم نجد للأمين شيئاً من سيرته نستحسنه فنذكره»(١). بينما نجدهم يرفعون المأمون الى السماء، حتى أنهم نسبوا الى الرشيد القول الآتي «والله إني لاتعرف في عبدالله (المأمون) حزم المنصور ونسك المهدي وعزة نفس الهادي، فلو شاء أن أنسبه في الرابعة (الكرم؟) اليَّ لنسبته»(٢). ولا بأس بإيراد بعض الأمثلة لتوضيح ذلك. يروي المسعودي أن الرشيد قال ليحيى البرمكي قبل العهد للمأمون: «قد عنيت بتصحيح هذا العهد وتسييره الى من أرضى سيرته وأحمد طريقته واثق بحسن سياسته وآمن ضعفه ووهنه وهو عبدالله، وبنو هاشم مائلون الى محمد بأهوائهم. وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والامآء في رأيه»(٣). ألا يكون هذا غريباً إذا عرفنا أن المأمون لم يصل الثالثة عشرة من عمره والأمين دون ذلك؟ وهل كان الرشيد يعلم الغيب؟ ويذهب الدينوري أبعد من هذا في التخليط، فيذكر أن الرشيد استشار الفضل بن الربيع في أمر العهد وقال له «إني عينت بتولية العهد ومثبت الأمر في محمد وعبدالله، وقد علمت أني إن وليت محمداً مع ركوبه هواه وانهماكه في اللهو والملذات خلط على الرعية وضيع الرأي... وإن صرفت الأمر الى عبدالله ليسلكن بهم المحجة وليصلحن المملكة وان فيه لحزم المنصور وشجاعة المهدي»(٤). فإن قبلنا روايته على علاتها كان سن المأمون آنئذ ست سنين وسن الأمين دون ذلك، فهل يمكن وصف الأميرين الصغيرين بتلك الأوصاف؟ ولم يتحرج بعض المؤرخين من اللجوء الى الأساطير لاسناد الضعف الى الأمين، فيروي الدينوري أن زبيدة أمرت جاريتها خالصة بأن تطلب من الأصمعي، مؤدب الأمين، ان يرفق به فلما استفسر عن السبب قالت له الجارية «ان لرقة السيدة سبباً.. وإنها في الليلة التي ولدته رأت في منامها كأن أربع نسوة أقبلن اليه فاكتنفنه عن يمينه وشماله وأمامه ووراءه. فقالت التي بين يديه: ملك قليل العمر ضيق الصدر عظيم الكبر واهي الأمر، كثير الوزر شديد الغدر، وقالت التي من وراءه ملك قصاف، مبذر متلاف قليل الانصاف كثير الاسراف، وقالت التي عن يمينه ملك ضخم، قليل الحلم كثير الاثم قطوع للرحم، وقالت التي عن يساره ملك غدار كثير العثار سريع الدمار»(٥). وهذا ولا شك تحزب وتضليل متطرف.

ولكننا لا نستغرب هذه التشويهات إذا لاحظنا أهمية الدعاية وأثرها آنئذ، خاصة وأن المأمون استخدمها بكل مهارة «حتى سارت الركبان في الآفاق بغدر محمد وبحسن سيرة

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٢١.

(٢) الاربلي ص ٨٧.

(٣) المسعودي ج ٣ ص ٢٧١.

(٤) الدينوري ص ٣٨٥.

(٥) شرحه ص ٣٨٣.

المأمون، فاستوحش الناس منه وانحرفوا عنه وسكنوا الى المأمون ومالوا اليه»[1]

ولا بد للباحث أن يلاحظ أهمية الشعر في دراسة الخلاف، فمع أن شعراء المأمون بالغوا في ذم الأمين، الا أن أنصار هذا الخليفة دافعوا عن سيدهم وذكروا مزاياه دون تهيب، وعلى سبيل المثال نورد ما يلي.

قالت لبابة ابنة علي بن المهدي:

أبكيك لا للنعيم والأنس   بل للمعالي والرمح والترس[2]

وقال الحسين بن الضحاك:

يا خير أسرته، وان زعموا   إني عليك لمثبت أسف
فلقد خلفت خلائفاً سلفوا   ولسوف يعوز بعدك الخلف
هتكوا بحرمتك التي هتكت   حرم الرسول ودونها السجف[3]

وقال أيضاً:

أضل العرف بعدك متبعوه   ورفه عن مطايا الراغبينا
هو الجبل الذي هوت المعالي   لهدته وريع الصالحونا
ستندب بعدك الدنيا جواراً   وتندب بعدك الدين المصونا[4]

أخلاق الأمين

وهنا يرتبك الباحث بين تضليلات وأكاذيب المؤرخين، ولكن معرفة أخلاق الأمين وصفاته ضرورية لبيان أثرها في فشله.

نشأ الأمين نشأة مترفة، بحكم محيطه الذي تربى فيه. وعني والده بتثقيفه في سن مبكرة وذلك قبل أن يبلغ الخامسة[5]، واحضر له خيرة علماء عصره كالكسائي والأصمعي، وأشرف على تعليمه بنفسه. فيذكر الأصمعي أن الرشيد قال له «لا تعلمه (الأمين) ما يفسد عليه دينه». ثم يحدثنا عما درسه الأمير عليه فيقول «فأقمت معه (الأمين) حتى قرأ القرآن وتفقه في الدين وروى الشعر واللغة وروى أيام الناس وأخبارهم، واستعرضه الرشيد فأعجب به»[6]. ويروي الدينوري عن الأصمعي أن الرشيد طلب إليه أن يختبر الأميرين الأمين والمأمون، قال «فكنت لا ألقي عليهما شيئاً من فنون الأدب إلا أجابا فيه وأصابا. فقال

---

(١) الجهشياري ص ٢٩٢.
(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢١٠.
(٣) شرحه.
(٤) شرحه، انظر ايضاً ص ٢١١، ٢١٢، ٢١٤.
(٥) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة (القاهرة ١٩٣٨) ج ٢ ص ٢٢.
(٦) شرحه ج ٢ ص ٢٢ ـ ٣

(الرشيد): كيف ترى أدبهما؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما رأيت في ذكائهما وجودة ذهنهما»[١].

وإذن، فقد كان الأمين ذكياً مثقفاً، له اطلاع حسن في اللغة والفقه والأدب والتاريخ.

ثم عهد الرشيد الى الفضل البرمكي (أقدر أولاد يحيى) تدريب الأمين في الادارة والسياسة. ولكن هذا التدريب كان نظرياً لم يصحبه التمرين العملي. فنحن نلوم الرشيد لأنه أهمل سنّة أسلافه فلم يدرب أبناءه في قيادة الجيوش أو الادارة الفعلية، ولعله حاول ذلك في آخر سنة من حكمه ولكن بعد فوات الأوان، فكانت عاقبة ذلك وخيمة على الأمين، بينما عوّض عن نقص المأمون في هذه الناحية وزيره الفضل بن سهل كما سنرى.

ومع ذلك فهناك دلائل تشير الى مقدرة الأمين كخليفة، ففي وصيته لعلي بن عيسى بن ماهان حين أرسله ضد المأمون ما يدل على دهاء سياسي، إذ قال له «امنع جندك من العيث بالرعية والغارة على أهل القرى، وقطع الشجر وانتهاك النساء.. ومن خرج اليك من جند خراسان ووجوهها فأظهر اكرامه وأحسن جائزته.. وضع عن أهل خراسان ربع الخراج»[٢]. ويفهم من الطبري أن الأمين كان يقضي الليالي الطويلة في النظر في شؤون الدولة[٣]. وهذا خصمه طاهر بن الحسين يعترف له بالمقدرة بعد أن تغلب عليه، فيقول أنه ليس بضعيف ولكنه «مخذول»[4].

ولكن تربية الأمين المترفة جعلته قليل الصرامة، بعيداً عن تقاليد العباسيين المكيافلية. وخير مثل لذلك أن أسد بن يزيد التمس منه أن يقبض على ولدي المأمون اللذين كانا في بغداد وأن يستعملهما كوسيلة لتهديد المأمون، فإن أجاب هذا الى الطاعة فيها وإلا «أنفذ فيهما أمره». فغضب الأمين لسماعه ذلك وقال «وتدعوني الى قتل ولديّ وسفك دماء أهل بيتي؟ إن هذا للمذمة والتخليط»[٥]. ثم انظر معاملته لحسين بن علي بن عيسى بن ماهان الذي ثار عليه في بغداد سنة ١٩٦هـ وقبض عليه وسجنه ووالدته زبيدة وأخذ البيعة للمأمون، فلما أطلق بمساعدة أهل الحربية لم يعاقب قائده الخائن بل عفا عنه وقلده قيادة فرقة لمحاربة طاهر فنكث حسين من جديد[٦]. اليس في هذا قلة صرامة وقلة خبرة؟

وكنتيجة طبيعية لتربية الأمين ولبيئته، ميله للترف. ولعل المؤرخين بالغوا في وصف هذا الميل. فيذكر الطبري: «لما ملك (الأمين).. وجه الى جميع البلدان في طلب الملهين.. ونافس في ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقواده.. وأمر ببناء مجالس لمنتزهاته ولهوه بقصر الخلد، وأمر بعمل خمس حراقات

---

(١) الدينوري ص ٣٨٤.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٥٠.

(٣) شرحه ج ١٠ ص ١٤٥.

(٤) المسعودي ج ٣ ص ٣٠٨.

(٥) انظر عصر المأمون ج ١ ص ٢٠٥ ـ ٦.

(٦) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٢٣٦ وما بعدها.

(قوارب) في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس»[1]. ولهذا التفنن في اللهو معنى آخر، فهو مظهر من مظاهر اهتمام الخلفاء بالأبهة ورغبتهم في السمو عن الرعية.

ولا تهمنا أوصاف الأمين الجسمية، ونكتفي بالمسعودي، إذ يقول «كان الأمين في نهاية القوة والشدة والبطش»[2].

ولا بأس بإيراد مجمل آراء بعض شعرائه عنه، فهو «خير أسرته» و «سوف يعوز بعده الخلف». وهو حامي الدين الذي أصبح بفقده «مطرحاً مهيناً» وهو ملك حازم سامي النفس «تقصر أيدي الملوك عن همه». وهم يرون فيه عز العرب وقائدهم في النزاع مع الفرس، ولذلك ذل العرب والاسلام بمقتله كما يقول ابن أبي الهداهد:

تعقد عز متصل بكسرى ... وملته وذل المسلمونا[3]

ولا بد للباحث، لتقدير دور الأمين، من التمييز بين أخطائه وبين تخليط حاشيته وقلة وفائهم الذي لعب دوراً بعيداً في فشل سيدهم، حتى قال المأمون «أما أنه أول من يؤخذ بدمه (الأمين) يوم القيامة ثلاثة.. وهم الفضل بن الربيع وبكر بن المعتمر والسندي بن شاهك. هم والله ثار أخي وعندهم دمه»[4].

الخلاف

بالإضافة الى مشكلة العهد والى وجود الحزبين العربي والفارسي، لعبت أطماع ومطامع مشاوري الأمين والمأمون دوراً مهماً في الخلاف.

والذي يفهم من المصادر هو أن حاشية الأمين (خاصة الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان) هي التي دفعته الى نكث العهد بينما كانت نيته الوفاء لأخويه. فيقول الجهشياري «ولما استوثق الأمر لمحمد زين له الفضل بن الربيع خلع المأمون، وكان يخافه أن أفضى الأمر اليه، وعاون الفضل على ذلك علي بن عيسى بن ماهان»[5]. ويقول اليعقوبي «فأفسد قوم قلب محمد على المأمون وأوقعوا بينهما الشر وكان الذي يحرضه علي بن عيسى بن ماهان والفضل بن الربيع وزينا له أن يبايع لابنه بولاية العهد بعده ويخلع المأمون ففعل ذلك وبايع لابنه موسى»[6]. ويؤيده الطبري إذ يبين أن الفضل خاف أن ينكل به المأمون إن صار خليفة، وذلك بعد أن رجع بالجيش من طوس الى بغداد خلافاً لعهد

---

(1) الطبري ج ١٠ ص ٢١٥.

(2) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠٧.

(3) انظر الطبري ج ١٠ ص ٢١٠ ـ ٢١٤.

(4) ابن طيفور ج ٦ ص ٢٧.

(5) الجهشياري ص ٢٣٧.

(6) اليعقوبي ج ٣ ص ١٦٦

الرشيد «فسعى في اغراء محمد به (بالمأمون) وحثه على خلعه وصرف ولاية العهد من بعده الى ابنه موسى ولم يكن ذلك من رأي محمد ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه.. بما كان أخذه عليه لهما والده من العهود والشروط فلم يزل الفضل به يصغر في عينيه شأن المأمون ويزين له خلعه حتى قال له ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك فإن البيعة كانت لك متقدمة قبلهما وإنما أدخلا فيها بعدك واحداً بعد واحد، وأدخل في ذلك من رأيه معه علي بن عيسى بن ماهان والسندي وغيرهما ممن بحضرته فأزالا محمداً عن رأيه»(١). ويذكر الفخري خوف الفضل بن الربيع من المأمون ويقول «فحسن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى، واتفق مع الفضل جماعة على ذلك فمال الامين الى أقوالهم وشرع في خدع المأمون»(٢). ويقول ابن الأثير «وألح الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى على الأمين في خلع المأمون والبيعة لابنه موسى»(٣)

ومع أني لا أنكر أهمية دور الحاشية في الخلاف لكني أرى أن بنود العهد نفسه جعلت الأمين هو البادىء بفكرة نقض بعض تلك البنود فحاول أول الأمر بسط نفوذه على ولايات أخويه ثم تقديم ابنه عليهما في البيعة، وأن حاشيته شجعته وأيدته في ميوله. ولا تعوزنا الأدلة لاثبات ذلك. فيذكر الجهشياري أن جعفراً البرمكي طلب من الأمين في البيت الحرام «أن يقول خذلني الله إن خذلته (المأمون) فقال ذلك ثلاث مرات» ولما خرج قال لابن الربيع «يا أبا العباس. كنت أحلف وأنا أنوي الغدر»(٤). ويروي الطبري أن الأمين قال «إن رأي الرشيد كان فلتة شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره واستماله برقاه. فغرس لنا غرساً مكروهاً لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتثاثه والراحة منه»(٥). ويذكر أيضاً أن عمرو بن حفص قال: «سمعت محمداً يقول للفضل بن الربيع، ويلك يا فضل لا حياة مع بقاء عبدالله وتعرضه ولا بد من خلعه والفضل يعينه على ذلك ويعده أن يفعل وهو يقول: فمتى ذلك إذا غلب على خراسان وما يليها»(٦) مما يبين بوضوح أن الفضل كان يجاري الأمين. كما أن علي بن عيسى نفسه لم يوح الفكرة للأمين، كما يظهر من قول الطبري «فيقال إنه (علي بن عيسى بن ماهان) أول القواد أجاب الى خلع عبدالله وتابع محمداً على رأيه»(٧). ولا ننسى أن الأمين هو الذي أرسل بكر بن المعتمر بكتب سرية الى

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٣٠.

(٢) الفخري ص ١٥٦.

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٩٢.

(٤) الجهشياري ص ١٧٥.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ١٣٦.

(٦) شرحه ج ١٠ ص ١٤٥.

(٧) شرحه.

طوس قبيل وفاة الرشيد يطلب من الفضل بن الربيع والقواد الرجوع الى بغداد عند وفاة والده وعدم تسليم الجيش للمأمون[1]. ولم يكن لعلي بن عيسى شأن آنئذ كما أن ابن الربيع كان بعيداً عنه، ولا شك أن هذا العمل كان أول ضربة لعهود الرشيد.

ولكن أطماع حاشية الأمين والمأمون كانت عوامل أسرعت بتقدم الخلاف وشجعت على تعقيده. فابن الربيع يرجع بالجيش الى بغداد عند وفاة الرشيد قائلاً «لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره»[2]. وابن سهل يشجع المأمون على رفض طلبات الأمين مدفوعاً بمطامح قومية وأخرى شخصية. فيروي الجهشياري أن أبا محمد اليزيدي ذكر للفضل بن سهل حسن رأي المأمون (وكان أميراً آنئذ) فيه وأضاف «وإني لأرجو أن يبلغك الله مبلغاً تتمكن منه معه وتملك الف الف درهم» فغضب الفضل بن سهل وقال «والله ما صحبت هذا الأمير لأكسب معه مالاً قل أو كثر وان همتي لتتجاوز كل ما يجوز أن يملك» وأوضح أنه خدمه «ليجوز طابع هذا (يشير الى الخاتم) في الشرق والغرب. لهذا خدمته ولهذا صحبته»[3].

وقد مر النزاع بين الأمين والمأمون في دورين، الأول دبلوماسي سلمي انتهى سنة ١٩٥هـ. والثاني علني عسكري انتهى بمقتل الأمين سنة ١٩٨هـ.

دور الدبلوماسية في الخلاف

لعل خير تعليق على هذا الدور قول كشاجم:

هنيئاً لأصحاب السيوف بطالة ... تقضي بها أوقاتهم في التنعم
ولكن ذوو الأقلام في كل ساعة ... سيوفهم ليست تجف من الدم

فقد لعبت الدعاية من جهة، والمناورات السياسية من جهة أخرى دوراً يعدل أو يزيد على أهمية الجيوش. وتلك المناورات لها أهميتها لأنها تعطي فكرة عن أساليب السياسة في العصر الذي نكتب عنه، وخاصة وأنها مسجلة في الرسائل المتبادلة بين الطرفين.

ويبدأ هذا الدور بمرض الرشيد بطوس. إذ أنه جدد البيعة للمأمون وأشهد بأن يكون من معه من الجند والمال والأثاث والسلاح للمأمون إن حدثت به حادثة. ولما علم الأمين بمرض والده بعث من يأتيه بخبره كل يوم، ثم أرسل بكراً بن المعتمر «وكانت معه كتب ظاهرة بعيادته (الرشيد) وكتب باطنة الى القوم بالقفول والاحتياط على ما في العسكر» وجعل له في كل يوم ألف دينار[4]. ولما فطن الرشيد لوجود كتب سرية استجوب بكراً فأنكرها رغم تهديده وتقييده. ومن تلك الكتب واحد للمأمون بأخذ البيعة على الناس لهما ولأخيهما المؤتمن، وكان

---

(١) انظر الجهشياري ص ٢٧٣.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٢٨.

(٣) الجهشياري ص ٢٨٠.

(٤) الجهشياري ص ٢٧٣، الطبري ج ١٠ ص ١٣٤.

المأمون آنئذ بمرو. وكتب الى أخيه صالح يأمره بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه[١] وأوصاه «وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرم أمراً إلا برأي شيخك وثقة آبائك الفضل بن الربيع»[٢]. وكتاب الى الفضل يأمره «بالحفظ والاحتياط على ما معه من الحرم والأموال وغير ذلك» وآخر الى اسماعيل بن صبيح[٣].

ولم يتردد الفضل بن الربيع، بل رجع بالعسكر وما فيه «ولم يعرج على المأمون ولا التفت اليه»[٤] وهذه أول مخالفة ظاهرة لوصية الرشيد، فاستنكرها المأمون وشعر بعدم استقامة نية الأمين تجاهه. ولما سمع بالخبر عقد مجلساً لبحث القضية، فأشير عليه بأن يلحق الفضل بن الربيع بجيش من ألفي فارس لرده[٥]، ولكن الفضل بن سهل حذر عاقبة ذلك وقال «إذا فعلت هذا لم آمن أن يقبضوا عليك ويجعلوك هدية الى محمد، ولكن تقيم وتكتب إليهم كتاباً وتوجه إليهم رسولاً يذكرهم البيعة». فقبل المأمون رأيه وأرسل رسولين الى ابن الربيع فعوملا معاملة عدائية، وأخبرا المأمون بذلك. ولكن ابن سهل شجع المأمون قائلاً «هؤلاء أعداء استرحت منهم»[٦].

وأخذ الفضل بن سهل يشجع المأمون ويسعى لتثبيت مركزه باسترضاء أهل خراسان من مختلف الطبقات، فأشار عليه: «والرأي أن تجمع الفقهاء وتدعوهم الى الحق والعمل به واحياء السنة وأن تقعد على اللبود (الصوف) وتواصل النظر في المظالم» ليثير بذلك أمل الخراسانيين بإنشاء حكم العدل الذي لم يحققه أسلاف المأمون من بني العباس. ثم أشار عليه باسترضاء الطبقة الارستقراطية «وتكرم القواد والملوك ففعل ذلك» وباسترضاء عامة الشعب بأن «حط عن خراسان ربع الخراج» فحسن موقع ذلك من الناس وسروا به وقالوا «ابن اختنا وابن عم رسول الله»[٧].

وبنفس الوقت أظهر المأمون التودد لأخيه «وأهدى اليه هدايا كثيرة وتواترت كتب المأمون الى محمد بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان»[٨].

أما الأمين فلم يتسرع في تنفيذ مشروعه الأول وهو بسط نفوذه على أخويه وتقديم ابنه في البيعة بل سعى بالتدريج نحو غايته. فبدأ بعزل القاسم عن الجزيرة سنة ١٩٣هـ

---

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٨٩.

(٢) الجهشياري ٢٧٦.

(٣) شرحه ص ٢٧٣، ابن الأثير ج ٦ ص ٨٩.

(٤) الجهشياري ص ٢٧٧.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ١٢٨.

(٦) الجهشياري ص ٢٧٧

(٧) شرحه ص ٢٧٨ ـ ٩، الطبري ج ١٠ ص ١٢٩.

(٨) الطبري ج ١٠ ص ١٢٩.

واقرة على قنسرين والعواصم[1] ثم عزله سنة ١٩٤هـ عن كل ما بيده واستقدمه الى بغداد. ثم «كتب (سنة ١٩٤هـ ٨٠٩م) الى جميع العمال بالدعاء لإبنه موسى بالأمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم»[2]. ولما سمع المأمون بعزل القاسم، وبالدعاء لابن أخيه أدرك أن الأمين ينوي تغيير العهد «فقطع البريد عن محمد وأسقط اسمه من الطرز»[3].

ولكن الأمين لم يظهر نواياه بل نوى أن يطلب من المأمون أن يتنازل له عن بعض أجزاء ولايته ليقلل من قوته فحذره القاسم بن صبيح من ذلك لأنه «توكيد للظن وتقوية للتهمة ومدعاة للحذر» وقال «ولكن تكتب إليه وتعرفه حاجتك إليه وشوقك إلى قربه وإيثارك الاستعانة برأيه ومشورته وتسأله القدوم عليك فإن ذلك أحرى أن لا يوحشه»[4] وأضاف «فإذا قدم عليك وفرقتْ بينه وبين جنده كسرت حده وظفرت به وصار رهناً في يديك فأت في أمره ما أردت»[5]. فاستحسن الأمين رأيه، وكتب الى أخيه في هذا المعنى رسالة أرسلها (على قول الدينوري) مع وفد ليقنع المأمون بالقبول. فلما وصل الوفد أكرمه المأمون، ثم استشار وزيره الفضل بن سهل في الأمر وأبدى حذره من الأمين، ومخاوفه من حرج الوضع الذي يجد نفسه فيه، فقوىّ الفضل عزيمته ونصحه بتقوية جيشه وبالاعتذار عن الذهاب الى بغداد[6]. وفي اليوم التالي أوصى المأمون رجال الوفد أن «يحسنوا أمره عند الأمين ويبسطوا من عذره» وزودهم برسالة جاء فيها «أما بعد فإن الامام الرشيد ولاني هذه الأرض على حين كلب من عدوها ووهي من سدّها وضعف من جنودها ومتى أخللت بها أو زلت عنها لم آمن انتقاض الأمور فيها وغلبة أعدائها عليها بما يصل ضرره الى أمير المؤمنين حيث هو. فرأي أمير المؤمنين أن لا ينقض ما أبرمه الامام الرشيد»[7].

فلما يئس الأمين من مجيء المأمون، عاد الى رأيه الأول وكتب الى أخيه «يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها، وأن يوجه العمال اليها من قبل محمد، وأن يحتمل في توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب اليه بخبره»[8]. وأراد بذلك أن يضعف المأمون وأن يجعله بالفعل تابعاً له وخاضعاً لرقابته. فاضطرب المأمون لهذا الطلب وعقد مجلساً للشورى حسب اقتراح الفضل بن سهل، «فأشاروا عليه جميعاً بإجابته (الأمين) الى ما سأل» إلا الفضل بن سهل فإنه ذكرهم «ان محمداً تجاوز الى طلب ما ليس له بحق»،

---

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٩٠.
(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٢٩.
(٣) شرحه ج ١٠ ص ١٣٠، ابن الأثير ج ٦ ص ٩١. كتابة الاسم على الطرز رمز الولاء للسلطان.
(٤) الجهشياري ص ٢٩١ ـ ٢.
(٥) الدينوري ص ٣٨٣.
(٦) الطبري ج ١٠ ص ١٤٧ ـ ٨.
(٧) الدينوري ص ٢٩٠ ـ ١.
(٨) الطبري ج ١٠ ص ١٣٢، الجهشياري ص ٢٨٩.

ثم سألهم «وهل تثقون بكفه (أي الأمين) بعد إعطائه ذلك الَّا يتجاوز بالطلب الى غيره؟ قالوا، لا ولكنا نرجو السلامة». فبين الفضل ضعف رأيهم واقترح الرفض، فوافقه المأمون على ذلك وكتب الى أخيه:

«.. وما أمر رآه أميرالمؤمنين أحد يجاوز أكثره، غير أن الذي جعل إليّ الطرف الذي أنا به لا ظنين في النظر لعامته ولا جاهل بما أسند إليّ من أمره. ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التي أنا عليها من أشراف عدو مخوف الشوكة وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال وطرف من الأفضال لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يجب من لم أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته ويستصلحه ببذل كثير من ماله، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ووكدته مأخوذة العهد! وإني لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت لم يطلع ما كتب بمسألته. ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله»(١).

وبنفس الوقت حاول المأمون سد المجال أمام دعاية الأمين لاستمالة أهل خراسان، فوضع ثقات الحراس على الطرق و «منع الاشتات من جواز السبل» وأمر بتفتيش الرسائل، وأوصى الحرس بأن «لا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمناء، ولا يدعه يستعلم خبراً ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحداً، ولا يبلغ أحداً قولاً ولا كتاباً». فكانت النتيجة أن «حصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أو أن تودع صدورهم رهبة أو أن يحملوا على منوال خلاف أو مفارقة»(٢).

أما الأمين فإنه كتب رسالة جديدة يؤكد فيها طلبه الأول، مبيناً للمأمون أن الرشيد أضاف الى ولايته «كوراً من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها. فالحق أن تكون مردودة في أهلها ومواضع حقها»، و «أن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدي لنا علم ما نعني به من خبرطرفك». وختم قائلاً «فائذن عن همك اثن عن مطالبتك»(٣) وأرسل الرسالة مع وفد أوصاه بالتشنيع على المأمون ونشر بذور الخلاف ضده وباستمالة بعض الشخصيات الهامة بالأموال والوظائف. ولكنهم لم يوفقوا في مهمتهم لأنهم «لما صاروا الى حد الري وجدواتدبيراً. مؤيداً...وأخذتهم الأحراس من جوانبهم فحفظوا من أن يخبروا أو يستخبروا... حتى صاروا الى المأمون»(٤).

وبعد الاطلاع، رفض المأمون برسالة لينة حازمة جاء فيها: «فلا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك، وأنا مذعن بطاعتك ولا على قطيعتك، وأنا على إيثار ما تحب من صلتك.

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٣٢.

(٢) شرحه، ابن الأثير ج ٦ ص ٩٢.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ١٣٢. لا بد من التنبيه الى الاضطراب المربك في اعطاء الرسائل دون مراعاة زمن ارسالها في الطبري وفي غيره من المصادر. وقد أدى بي اجتهادي الى ترتيبها كما هو مثبت اعلاه.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ١٣٣.

وارض بما حكم الحق في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك والسلام». وكذلك أوصى رسل الأمين «اعلموه أني لا أزال على طاعته حتى يضطرني بترك الحق الواجب الى مخالفته»، وأكد عليهم تأدية ما قال دون تبديل. ويعلق الطبري على هذا قائلاً: «فانصرف الرسل فلم يثبتوا لأنفسهم حجة ولم يحملوا خبراً يؤدونه الى صاحبهم»(١).

وقد أثارت هذه الرسالة غضب الأمين، فكتب الى أخيه بلهجة قوية قائلاً «أما بعد فقد بلغني كتابك غامطاً لنعمة الله عليك فيما مكن لك في ظلها، متعرضاً لحراق نار لا قِبَلَ لك بها، ولحضك عن الطاعة كان أودع. وإن كان قد تقدم مني متقدم فليس بخارج عن مواضع نفعك، إذ كان راجعاً على العامة من رعيتك وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة.. فاعلمني رأيك أعمل عليه»(٢) وهكذا هدد الأمين أخاه مبيناً فوائد الاذعان، ومذكراً إياه بأنه استمر على المفاوضة رأفة به وإلا فالبطش به يسير.

ولكن المأمون لم يتزعزع، بل أجاب برسالة قوية الحجج، رفض فيها مطالب أخيه وذكره بأنه صار «منكراً لأبائي منزلة تهضمني بها وأرادني على خلاف ما يصلح من الحق فيها.. فأولى به أن يدير الحق في أمره ثم يأخذ به ويعطي من نفسه.. وأما ما وعد من بر طاعته وأوعد من الوطأة بمخالفته فهل أحد فارق الحق في فعله فأبقى للمتبين موضع ثقة بقوله!»(٣).

والآن وصلت العلاقة دوراً لم يبق فيه مجال للمجاملات، وأصبح التصريح ضرورياً. فأرسل الأمين وفداً سياسياً، يتألف من ثلاثة أشخاص، أحدهم العباس بن موسى بن عيسى، إلى المأمون ليفاوضه في تقديم موسى بن الأمين عليه في العهد. ويذكر الطبري أن العباس بن موسى قام خطيباً وأخذ يهون على المأمون تقديم موسى عليه، وذكر له تنازل عيسى بن موسى عن ولاية العهد مرتين، فصاح به الفضل بن سهل «اسكت فإن جدك كان في أيديهم أسيراً، وهذا (أي المأمون) بين أخواله وشيعته»(٤). وانتهت محاولات الوفد بالخيبة، ولكن الفضل بن سهل استطاع بدهائه أن يستميل العباس بن موسى حتى أخذ عليه البيعة للمأمون. ويشرح ابن سهل ذلك فيقول: «قلت للعباس لك عندي ولاية الموسم وولاية أشرف منها ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئت. فما برح حتى أخذت عليه البيعة للمأمون بالخلافة. فكان بعد ذلك يكتب إلينا بالأخبار ويشير علينا بالرأي»(٥). وهذا الحادث دليل صريح على مدى اخلاص حاشية الأمين له، ومثل من أمثلة المناورات السياسية.

---

(١) الطبري ج١٠ ص ١٣٤.

(٢) شرحه.

(٣) شرحه ج ١٠ ص ١٤٣.

(٤) شرحه ج ١٠ ص ١٣١.

(٥) شرحه.

وبعد فشل هذا الوفد أصبح النزاع المسلح أمراً محتماً. ففي أوائل سنة ١٩٥هـ ٨١٢م أمر الأمين بالامساك عن الدعاء للمأمون وأعلن البيعة لابنه موسى، ولقبه «الناطق بالحق»،وضرب دراهم ودنانير تذكارية نقش عليها بالاضافة الى إسم ولي العهد ما يلي:

كل عز ومفخر فلموسى المظفر

ملك خص ذكره في الكتاب المسطر(١)

ولم ينته دور الدبلوماسية بانتهاء المراسلات بل استمر اثناء النزاع المسلح. فقد أرسل المأمون سفيراً الى أعيان أهل العسكر ببغداد طالباً منهم تأييده ضد الأمين أو الوقوف موقف الحياد على الأقل، فوصل السفير وقت خلع المأمون، ومكث في بغداد يحاول استمالة القادة ويكتب الى المأمون بالأخبار. وقد كتب الى المأمون بعد فحص الوضع ببغداد ما يلي: «وجدت أكثر الناس ولاة السريرة (للمأمون) ونفاة العلانية، ووجدت المستمالين بالرغبة (الى الأمين) لا يحوطون الا عنها ولا ينالون ما احتملوا فيها (أي قليلي الثبات)، والمنازع مختلج الرأي لا يجد دافعاً عن همه.. والقوم على جد فلا تميلوا للتواني»(٢).

وعندما سير الأمين علي بن عيسى بن ماهان لقتال أخيه، حاول المأمون أن يستميله الى جانبه، أو أن يثبط عزمه عن الحرب، فأرسل له رسالة وصف فيها موقف علي بأنه «طعن في عقدة كنت (الخطاب لعلي) القائم بشدها وبعهود توليت معاقد أخذها، يبدأ فيها بالأخصين حتى أفضى الأمر الى العامة من المسلمين بالايمان المحرجة والمواثيق المؤكدة، وما طلع مما يدعو الى نشر كلمة أو تفريق أمة أوشت جماعة. وتتعرض لتبديل نعمة، وزوال ما وطأت الأسلاف من الأئمة» ثم يحذره سوء العاقبة قائلاً «ومتى زالت نعمة من ولاة أمركم وصل زوالها اليكم» (٣).

وهذا الأمين يكتب في أواخر أيامه، وجيش طاهر يضيق عليه الخناق، رسالة الى طاهر ابن الحسين ينذره فيها قائلاً «.. اعلم أنه ما قام لنا مذ قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف فانظر لنفسك أو دع» وقد أثرت هذه الرسالة كثيراً في نفس طاهر حتى أنه لما رجع الى خراسان أخرجها الى خاصته وقال لهم «والله ما هذا كتاب مضعوف ولكنه كتاب مخذول»(٤).

ثم لاحظ تصرف المأمون، فهو لا يجهر بخلع أخيه ويكتفي بتسمية نفسه بالامام(٥)

---

(١) المقريزي ـ شذور العقود. (النجف) ص ١٢.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٣٦.

(٣) شرحه ج ١٠ ص ١٤٣.

(٤) المسعودي ج ٣ ص ٣٠٨.

(٥) هذه اول مرة يستعمل فيها العباسيون لقب إمام، ولعل المأمون استعمله لانه فيه تأكيد على الناحية الدينية لا الدنيوية من سلطة رئيس المسلمين. انظر الطبري ج ١٠ ص ١٣١.

الى أن انتصر جيشه على جيش علي بن عيسى سنة ١٩٦هـ وعندئذ خطب في الخراسانيين وأكثر من العهود والوعود التي تذكر بعهود أسلافه من بني العباس عند أول مجيئهم الى الحكم فقال في خطابه «أيها الناس إني جعلت لله على نفسي إن استرعاني أموركم أن أطيعه فيكم ولا أسفك دماً عمداً لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه ولا آخذ لأحد مالاً ولا أثاثاً ولا نحلة تحرم علي، ولا أحكم بهواي في غضبي ولا رضاي إلا ما كان في الله له. جعلت ذلك كله لله عهداً مؤكداً وميثاقاً مشدداً، إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمي ورهبة في مسألته إياي عن حقه وخلقه. فإن غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلاً وللنكال متعرضاً، وأعوذ بالله من سخطه وأرغب اليه في المعونة على طاعته وأن يحول بيني وبين معصيته»(١). فكان هذا الخطاب بمثابة عهد أعظم فرضه المأمون على نفسه للخراسانيين ولبقية الناس لينال تأييدهم الكلي وليكسب قضيته ثوب الحق والعدل. ولهذا العهد أهمية في المستقبل لأن فشل المأمون في تنفيذ ما وعد به كان آخر معول في هدم التعاون بين الخراسانيين وبين العباسيين. فصار أهل خراسان يعتقدون أنه لا فائدة من وعود العباسيين، وظهرت عندهم النزعة الانفصالية بشكل شامل فأدت أخيراً الى استقلال خراسان وبقية إيران بالتدريج.

ولعلنا وضحنا في هذا القسم روح الدبلوماسية في العصر العباسي الأول وأساليبها ومدى أثرها في سير الحوادث.

حوادث الحرب (١٩٥ ـ ١٩٨هـ).

وهي مفصلة في كتب التاريخ ولا داعي لسردها، ويكفي ملاحظة بعض النقاط التي أثرت في سيرها.

فهناك ضعف معنوية جيش الأمين وقلة ثباتهم، فجيش علي بن عيسى مزّق مع أنه يبلغ أضعاف جيش طاهر بن الحسين. ورجع الجيش الثالث الذي أرسله الأمين ضد طاهر بقيادة أحمد بن مزيد دون قتال لأن طاهر بث فيه دعاية ولدت الشقاق وأدت الى تفريقه.

ثم إفساد الأمين لجنده بكثرة العطايا والأموال التي قدمها لهم دون التأكيد على بث روح الطاعة والنظام فيهم فأصبح همهم الحصول على الأموال. فمثلاً نراهم بعد مقتل علي ابن عيسى وهزيمة جيشه يشاغبون ويطلبون بكل وقاحة الزيادة في الأرزاق، فيمنع الأمين من تأديبهم ويأمر بتوزيع الأموال عليهم(٢).

ويظهر من المصادر أن الأمين لم يحاول جدياً استصفاء قلوب الرعية كما حاول المأمون، أو أنه لم ينجح في ذلك، ولهذا حصلت اضطرابات داخلية ضده في عاصمته بنفس الوقت الذي كان فيه جيشه ينازع جيش المأمون. فأصبح بين نارين فتنة داخلية وحرب خارجية.

---

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ١٦٧ ـ ٨، انظر الجهشياري ص ٢٧٩.

(٢) ابن خلدون (بولاق) ج ٣ ص ٢٣٤.

ولا شك أن الأمين أخطأ في تولية علي بن عيسى بن ماهان قيادة الجيش الأول لحرب الخراسانيين، مع أنهم أعدى الناس له لأنهم لم ينسوا ظلمه وفظائعه وهذا زاد في استماتتهم في القتال وأثر في تحطيم جيش الأمين.

وفي الختام يظهر لي من دراسة كل من الأمين والمأمون أن المؤرخين بالغوا في تمجيد قابليات المأمون وفي تفضيله على الأمين، وأنكروا على الأمين مقدرته التي تتجلى أثناء الخلاف خاصة وأنه هو الذي كان يضع الخطط العامة ويدبر الأمور، ونسوا دور الفضل بن سهل ذلك السياسي العبقري الذي كان يشجع المأمون على الثبات دائماً في وجه أخيه بعد أن كاد يستسلم أمام تهديداته. فهذا الطبري يروي أن الأمين لما طلب من المأمون القدوم عليه الى بغداد «اسقط في يده وتعاظمه ما ورد عليه منه ولم يدر ما يرد عليه» وعندما أشار عليه الفضل بالرفض قال«وكيف يمكنني التمسك بموضعي ومخالفة محمد ومعظم القواد والجنود معه وأكثر الأموال والخزائن قد صارت اليه مع ما قد فرقه في أهل بغداد من صلاته وفوائده..» فينصحه الفضل بالمقاومة فإما الظفر أو الموت الشريف(١). وهذا التنوخي يبين كيف أن بعض القواد شغبوا على المأمون يطلبون الأرزاق بعد أن أرسل طاهراً لمقاتلة علي بن عيسى، فأراد المأمون أن يهرب إلا أن الفضل ثبته(٢). ويكفي فحص أعمال المأمون في مرو لنرى أن ابن سهل كان الرأس المفكر الذي سدد خطى المأمون في كل حركة من حركاته.

ثم كان المأمون موفقاً من ناحية قواده، فلم يكن لدى الأمين قائد يقارن بطاهر بن الحسين، حتى يروى عن الأمين أنه قال «وهل كان المأمون لو اجتهد بنفسه وتولى الأمر برأيه بالغاً عشر ما بلغه طاهر له!»(٣). وكان جيش المأمون متجانساً متحداً وجيش الأمين غير متجانس وكان ذلك لحد كبير ناتجاً عن الظروف المحيطة بكل منهما.

وكان أتباع المأمون يناضلون عن عقيدة قوية إذ أحيا المأمون آمالهم بوعوده، وبوجوده في خراسان، فصاروا يتطلعون الى إرجاع عزهم ويأملون انتقال السلطة اليهم فناضلوا عن اخلاص، بينما كان أتباع الأمين من ساسة وجند لا يهتمون إلا بالمال وبمصالحهم الشخصية، فأين موقف الفضل بن سهل من موقف العباس بن موسى الذي يخون سيده ويصبح جاسوساً عليه؟ أو موقف حسين بن علي بن عيسى الذي يثور ضد سيده ويسجنه، أو موقف الفضل بن الربيع الذي يتخلى عن الأمين في أحرج ساعاته! فيذكر الجهشياري «ولما رأى الفضل بن الربيع قوة المأمون، واتصال ضعف محمد.. وانفلال

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٤٩.

(٢) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٧ ـ ٨.

(٣) المسعودي ج ٣ ص ٢٦١.

الناس عنه، وتمزق الأموال التي كانت في يده استتر في رجب سنة ١٩٦هـ»[١] عندما كان الأمين في أحوج ما يكون الى النصحاء والمخلصين.

وقبل الانتهاء أقول أن هذا الخلاف أدى الى اختلال التوازن من جديد بين العرب والفرس في الدولة والى تعاظم النفوذ الفارسي لدرجة خطرة على سلامة الدولة كما سنرى.

---

(١) الجهشياري ص ٢٠١ ـ ٢.

الفصل الثامن

المأمون

١٩٨ ـ ٢١٨هـ ٨١٤ ـ ٨٣٣

---

١ ـ وضع المأمون ومزاياه

٢ ـ المشاكل الداخلية:

أ ـ ثورات العلويين

ب ـ البيعة للرضا

ج ـ وجهة نظر أهل بغداد

٣ ـ المأمون وبنو سهل

٤ ـ المأمون وبنو طاهر

٥ ـ المأمون «والبيزنطيون»

٦ ـ العهد

٧ ـ تقدير

٨ ـ المأمون خاتمة العصر العباسي الأول

شعر المأمون باستفظاع الرأي العام لمقتل أخيه فأراد أن يبرر ذلك وأمر وزيره الفضل بن سهل أن ينشىء كتاباً عن طاهر بخبره ليقرأ على الناس، فكتب الفضل كتاباً نسخته: «أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه في الولاية والحرمة، لمفارقته عصمة الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين.. يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح، ولا صلة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله، وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع ورداه رداء نكثه وأحصن لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظره من وعده. فالحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين حقه الكائد له من ختر عهده، ونقض عقده، حتى رد الله به الألفة بعد فرقتها وأحيا به الإعلام بعد دروسها وجمع به الأمة بعد فرقتها والسلام»[١].

ويمكن تقدير حراجة الوضع إذا علمنا أن المأمون جاء بعد فتنة داخلية ضعضعت سلطان بني العباس مادياً وأدبياً وقسمت الناس إلى قسمين متناحرين. فلم يكن عهد الأمين أمراً مقبولاً لدى قسم كبير من الناس لأنه نكث صريح ولأن إبن الأمين طفل لا يعقل، ومع ذلك فقد كان الأمينُ رمز آمال أكثر العرب لخالص عروبته ولأن أسمه أصبح عنواناً لمقاومة النفوذ الفارسي. ومن الجهة الأخرى أدى إنتصار المأمون إلى تقوية نفوذ الفرس

---

(١) الجهشياري ص ٣٠٤ والطبري باختلاف بسيط ج ١٠ ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

واستيلائهم على المناصب الرئيسية من عسكرية ومدنية فاجتمعت لهم رياسة السيف ورياسة القلم على حساب العرب.

كما ان الإنحلال الداخلي الذي تلى الخلاف أفسح المجال لكل ناعق أو متذمر لإظهار نواياه فأدى ذلك إلى انتشار الفتن والثورات في مختلف بقاع المملكة.

وربما كان من المفيد ذكر بعض مزايا المأمون التي تلقي ضوءاً على حكمه. فيقول الفخري «كان المأمون من أفاضل خلفائهم (بني العباس) وعلمائهم وحكمائهم»[١] ويؤيده المسعودي بقوله «كان (المأمون) عالماً كاملاً»[٢]، ولا شك أن المأمون كان مثقفاً، وقد ظهر أثر ذلك في تشجيعه لحركة الترجمة ونشر العلم، وفي تدخله في قضايا الكلام.

ويصفه الذهب بأنه «كان ذكياً.. فيه دهاء وسياسة»[٣] ويقول المسعودي إنه «كان حسن التدبير.. لا تخدعه الأماني ولا تجوز عليه الخدائع»[٤] وهذا يشير إلى أنه كان سياسياً واقعياً لا يتردد في إمضاء ما تقتضيه مصلحة الدولة، وخير مثل لذلك علاقته ببني سهل.

ويوصف أيضاً بأنه «عظيم العفو كريم المقدرة» (٤) وقد كان كذلك ولكن تجاه أعدائه الذين لا يرى فيهم خطراً عليه كما يظهر من عفوه عن الفضل بن الربيع، وإبراهيم بن المهدي.

وكان المأمون يميل لآل أبي طالب. فيقول المسعودي «كان المأمون يظهر التشيع»[٥] ويؤيده الطبري في هذا. ويذكر الذهبي أنه سنة ٢١١هـ «أظهر المأمون التشيع وأمر أن يقال خير الخلق بعد النبي ﷺ علي..»[٦] ويروي اليعقوبي أنه رد فدك إلى آل فاطمة[٧]. ولعل هذا الميل كانت نتيجة لإتصاله بالبرامكة، وعلى كل فقد كان ميلاً عاطفياً دينياً[٨] في أوله وسنرى أثره فيما بعد.

المشاكل الداخلية

يمكن أن نقول أن المأمون إرتكب خطأة خطيرة في بقائه في مرو بمحل قصيّ من مملكته، وكان الأجدر به أن يرجع إلى بغداد معقل السلطة العباسية ورمزها، فكان لعمله هذا

---

(١) الفخري ص ١٦١.

(٢) المسعودي التنبيه والاشراف ص ٣٠٤.

(٣) الذهبي –مختصر دول الاسلام ج ١ ص ١٠٢.

(٤) التنبيه ص ٣٠٤.

(٥) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٨ ـ ٩.

(٦) مختصر دول الاسلام ج ١ ص ١٠٠.

(٧) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٥ ـ ٦.

(٨) جبريالي ـ المأمون والعلويون (بالايطالية)..

نتائج سيئة على الدولة. ولعل الظروف جعلت المأمون يبقى في مرو، أذ أنه لم يكن مطمئناً من أهـل بغداد أنصـار أخيه، ويجب أن لا ننسى أثـر بني سهل وميـولهم الفارسيـة وهم يفضلون أن يكون مركز الدولة بين الفرس في خراسان.

وكان لتفويض المأمون إدارة البلاد إلى الفضل بن سهل أثر هام في إحداث مشاكل أخرى للخليفة. هذا بالإضافة إلى سخط بعض العناصر العربية على السياسـة الفارسيـة الجديدة وإلى العداء المتأصل بين العلويين والعباسيين.

إذ انتهز العلويون الفوضى الشاملة بعد مقتل الأمين فقاموا بثورات واسعة المدى في العراق والحجاز واليمن، وأخطرها ثورة أبي السرايا (السري بن منصور الشيباني) ومعـه إبن طباطبا بالكوفة سنة ١٩٩هـ ٨١٥م، واستطاع العلويون موقتاً أن يحتلوا البصرةوواسط والحجاز واليمن في سنة ٢٠٠هـ، وكان جميع الثوار على اتصال مباشر أو غير مباشر بثورة أبي السرايا[١].

وقد كان أساس هذه الثورات قبل كل شيء طموح العلويين وسنوح فرصة مناسبـة لضرب العباسيين، فيـذكر الطبـري أنه بعـد انتصارات أبي السـرايا الأولى ضـد جيوش الحسن بن سهـل «إنتشر الطالبيـون في البلاد»، وعنـدما دحـر جيشه لأول مـرة من قبل الحسن بن سهل «وثب محمد بن محمد ومن معه من الطالبيين على دور بني العباس ودور مواليهم وأتباعهم بالكوفة، فانتهبوها وأخربوها وأخرجوهم من الكوفة وعملوا في ذلك عملاً قبيحاً»[٢]. وأرسل أبو السرايا كسوة إلى الكعبة مكتوباً عليها «أمر به (بإرسال الكسوة).. أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام وأن يطرح عنـه كسوة الظلمـة من ولد العباس»[٣] وكذلك نكل العلويون بالعباسيين في البصرة[٤].

وانضم إلى طموح العلويين عامل آخر وهو سخط العنـاصر العـربية ضـد سياسـة الفضل بن سهل الفارسية، إذ بعد صرف طاهر بن الحسين عن العراق وتعيين الحسن بن سهل لولايته (سنه ١٩٨هـ) «تحدث الناس بالعـراق بينهم أن الفضل بن سهـل غلب على المأمون وإنه يبرم الأمور على هواه ويستبد بالرأي دونه، فغضب لذلك من كان بها من بني هاشم ووجوه الناس، وأنفوا من غلبة الفضل بن سهل على المأمـون.. وهاجت الفتنـة في الأمصار، فكان أول من خرج بالكوفة إبن طباطبا (صاحب أبي السرايا)»[٥].

يرى جبريالي Gabrielli أن ثورة أبي السرايا كانت ثورة عربية عراقية صرفة وأنها

---

(١) أنظر التفاصيل في الطبري ج ١٠ ص ٢٢٧ وما بعدها ـ واليعقوبي ج ٣ ص ١٧٣ وما بعدها. وانظر الأصفهاني ص ٣٥٠.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٢٨ ـ ٩.

(٣) شرحه.ج ١٠ ص ٢٣٢.

(٤) شرحه ج ١٠ ص ٢٣١.

(٥) شرحه ج ١٠ ص ٢٢٧.

كانت حركة عامة لكل القوات العلوية في العراق، وهو يؤكد نقطة قوية وهي أن الشيعة كانت آنئذ عربية وأن الثورة هذه هي ثورة عربية ضد بني العباس[1].

ومما ساعد على توسع الثورة في العراق، ضجر الناس من فتنة الأمين والمأمون فصار بعضهم يتمنى الخلاص من ذلك الوضع السيء، ويظهر أن العلويين أدركوا ذلك فنجد إبن طباطبا يدعو الناس إلى «كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسيرة بحكم الكتاب»[2]. وقد كان لرفع يد طاهر الحديدية من العراق وضعف الحسن بن سهل أثر في استفحال الفتنة.

ويظهر أن أبا السرايا كان هو القائد الحقيقي للثورة أما العلوي فكان شخصية ثانوية معنوية بجنبه، ويعطي الطبري أبا السرايا شخصية مشاغب مغامر، بينما يضفي عليه الأصفهاني صورة بطل شيعي[3]. ويرى جبريالي أنه كان «فارساً عربياً من الطراز القديم» وأنه كان قديراً جداً ونشيطاً. وقد لاقى أبو السرايا أول الأمر نجاحاً كبيراً، ولكن تسليم قيادة الجيش العباسي إلى القائد الكبير هرثمة بن أعين وتخاذل الكوفيين في نصرة أبي السرايا، ثم تخلي إشرافهم عنه وتهادنهم مع هرثمة[4] أدى إلى فشل الحركة. وربما كان لوفاة إبن طباطبا الفجائية[5] أو سمّه من قبل أبي السرايا[6] أثر في تضعضع الحركة. واستمرت الثورة من جمادى الآخرة سنة ١٩٩هـ وكانون الثاني سنة ٨١٥م حتى مقتل أبي السرايا في ذي القعدة سنة ٢٠١هـ حزيران سنة ٨١٦م.

وما إن انتهت سنة ٢٠١هـ حتى قضى العباسيون على ثورات العلويين، ولم يبق في العراق أية مقاومة سوى السخط من ولاية الحسن بن سهل، ولم يكن لهذا أي لون علوي. ثم جاء خبر البيعة للرضا التي اقترن بها تقريب العلويين لمدة قصيرة، فوقع ذلك وقوع الصاعقة على أهل بغداد.

البيعة لعلي الرضا:

يقول جبريالي إن الرأي الشائع وهو أن انتصار المأمون معناه انتصار النزعة الفارسية، وأن هذه النزعة تتضمن تأييد العلويين ـ هو رأي خاطيء من وجهتين، الأولى أن التشيع آنئذٍ كان عربياً؛ وأن النزعة الفارسية في حقيقتها لم تكن جزء من سياسة المأمون

---

(١) جبريالي ـ المأمون والعلويون.

(٢) الأصفهاني ـ مقاتل الطالبيين ص ٣٤٣.

(٣) شرحه ص ٣٤٩.

(٤) جبريالي ـ المأمون والعلويون.

(٥) اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٣، الأصفهاني ص ٣٤٩.

(٦) يقول الطبري ج ١٠ ص ٢٢٨ «علم أبو السرايا انه لا امر له معه (ابن طباطبا) فسمّه.

وإنما هي سياسة الفضل بن سهل. ثم يبين أن المأمون وإن كان له ميل عاطفي ديني سابق للعلويين، إلا أن هذا الميل ظهر بصورة فجائية ولأول مرة في الحقل السياسي في البيعة للرضا[١]. وهذا رأي يجدر التفكير به في هذا الباب.

ولكن قضية البيعة للرضا ليست بالمسألة السهلة وهي تحتاج إلى تحقيق، خاصة وإنها لم تبحث بحثاً شافياً[٢].

يقول الفخري عن المأمون «ومن إختراعاته نقل الدولة من بني العباس إلى بني علي»[٣]. ويكتفي اليعقوبي بالقول بأن المأمون أشخص الرضا من المدينة إلى خراسان وبايع له بولاية العهد من بعده يوم الإثنين، السابع من رمضان سنة ٢٠١هـ ولا يوضح السبب[٤]. ويفسر الطبري هذه البيعة بقوله «إنه (المأمون) نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه وأنه سماه الرضا من آل محمد»[٥]. والظاهر أن الطبري يورد التفسير الذي وضعه المأمون لعمله، فقد ورد في المنشور الذي أصدره المأمون عند مبايعته للرضا أنه «بعد استخارته الله وإجهاده نفسه في حقه وبلاده» إختار من البيتين العلوي والعباسي علي بن موسى بن جعفر «لما رأى من فضله البارع وعلمه الناصع وورعه الظاهر وزهده الخالص وتخليه من الدنيا وتسلمه من الناس.. وسماه الرضي إذ كان رضياً عند أمير المؤمنين»[٦] ولهذا لا نستطيع قبول رواية الطبري على علاتها. والفخري نفسه يقوي هذا الشك حين يقول إن المأمون «فكر في حال الخلافة بعده وأراد أن يجعلها في رجل يصلح لها لتبرأ ذمته، كذا زعم» وإنه وجد علي الرضا أطيب رجال البيتين[٧]. فهو يقلل من قيمة هذه الرواية بعبارة «كذا زعم». كما أن صفات علي الرضا الممتازة لا تكفي لشرح اتخاذ المأمون خطوة سياسية بعيدة المغزى كهذه.

والذي أراه هو أن المأمون لم يقدم على البيعة للرضا لأنه أفضل البيتين، خاصة وأن المأمون يناقض نفسه بادعـآته، لأنه قال للحسن بن سهل قبيل البيعة للرضا «إني عاهدت الله أن أخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرت بالمخلوع»[٨]. ومن ذلك يفهم أنه قرر نقل الخلافة للعلويين ولم تكن المسألة مسألة اختيار أصلح رجال البيتين. وأنا أميل إلى أن

---

(١) جبريالي ـ المأمون والعلويون.

(٢) هناك مقال في مجلة الجامعة المصرية (كلية الآداب) للأستاذ حسن ابراهيم حسن (مايو ١٩٣٣) تقتصر فائدته في أنه استفاد من مخطوطتين، ولكنه لم يستفد من المصادر المطبوعة الا قليلاً.

(٣) الفخري ص ١٦٣.

(٤) اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٦.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٢٤٣.

(٦) رسائل العرب ج ٣ ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٧) الفخري ص ١٦٢ ـ ٣.

(٨) مقاتل الطالبيين ص ٣٦٩، النسيبي ـ مجلة كلية الآداب في الجامعة المصرية (١٩٣٣) ص ٨٥.

تأثير الفضل بن سهل ووجود المأمون في خراسان هما اللذان إضطراه لاتخاذ هذه الخطة.

فالفضل بن سهل هو الذي أوحى الفكرة للمأمون، ويقر الفخري هذا بقوله «وكان الفضل بن سهل هو القائم بهذا الأمر (أي البيعة للرضا) والمحسن له»(١). والجهشياري يبين حماس الفضل لهذه الفكرة وإلحاحه على مشاوري المأمون بقبولها(٢). واليعقوبي يبين أن رجاء إبن أبي الضحاك «قرابة الفضل بن سهل» كان رسول المأمون إلى الرضا وهو الذي جاء به من المدينة(٣). ونعيم بن خازم يصرح بحضرة المأمون بأن الفضل بن سهل هو الذي حمل المأمون على البيعة للرضا(٤). والبغداديون إحتجوا على البيعة وقالوا «إنما هذا دسيس من الفضل بن سهل»(٥). وقد أشار الفضل بهذا الرأي لا حباً بعلي الرضا وإنما كان ذلك نتيجة لرغبته في إرجاع السلطة للفرس لأن نقل الخلافة إلى علوي معناه إبقاء مركز الخلافة في خراسان إذ أن أهل بغداد لا يرضون بمبايعة علوي مطلقاً. ويؤيد هذا قول نعيم بن خازم للفضل «إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسروياً»(٦). وهذه النظرة تفسر لنا الخلاف بين الفضل بن سهل وبين علي الرضا فيما بعد.

وهناك عامل ثان وهو مهم أن الخراسانيين بعد تأييدهم للعباسيين وجدوا من جور عمالهم الشيء الكثير، كما لاحظوا تنكيل العباسيين بزعمائهم كالخلال وأبي مسلم والبرامكة، فانقلبت ميولهم مع خصومهم العلويين. ولدينا شواهد على ذلك كاحتفاء الخراسانيين العظيم بعلي الرضا(٧). وكما حصل بعد مقتل الفضل بن سهل حين شغب الخراسانيون على المأمون وهجموا على داره. ولم يهدأوا إلا بعد أن طلب منهم الرضا أن يتفرقوا(٨). ثم إن الطريقة التي سلكها المأمون لإقناع الرضا بقبول العهد تدل على أن الخليفة كان مضطراً لتنفيذ خطته، فقد امتنع الرضا أول الأمر، فهدده المأمون قائلاً «لا بد من قبولك ما أريد فإني لا أجد محيصاً عنه. أن عمر بن الخطاب جعل الشورى في ستة أحدهم جدك.. وشرط فيمن خالف أن تضرب عنقه»(٩)، وهذا يُشعر بأن المأمون كان مرغماً على مجاراة الخراسانيين. ومن جهة أخرى أراد المأمون أن يسير خطوة جديدة في إحياء حكم العدل

---

(١) الفخري ص ١٦٣.

(٢) الجهشياري ص ٣١٢.

(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٦.

(٤) الجهشياري ص ٣١٣.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٢٤٣.

(٦) الجهشياري ص ٣١٣.

(٧) مجلة كلية الآداب المذكورة ص ٨٨.

(٨) شرحه ص ٩٢ ـ ٣.

(٩) مقاتل الطالبيين ص ٣٦٩، انظر مجلة كلية الآداب المذكورة ص ٨٦.

الذي وعد به الخراسانيين، فصرح لهم إنه إختار للخلافة خير من يصلح لها من بني هاشم ولذلك لقب علي بن موسى «الرضيّ من آل محمد».

ويمكن إضافة عامل له أهمية ثانوية. إذ أن انتصار المأمون كان ضربة لبني العباس أخوال الأمين، ودحراً لآمالهم. ثم إن تذمر العلويين المستمر وثوراتهم هدده بفقدان تأييد الفرع الثاني من بني هاشم. وإذا تذكرنا ميول المأمون العلوية ورغبته في اكتساب تأييدهم وجدنا أنه كان عنده بعض الإستعداد للتفاهم مع العلويين.

وكانت البيعة في رمضان ٢٠١هـ مارت ٨١٨م. ولكن العلاقة بين الفضل بن سهل وبين الرضا ساءت وذلك لتباين إتجاههما. فالرضا بما عرف عنه من ورع واستقامة لم يرض عن سياسة الفضل بن سهل فكان ينتقده عند المأمون، وأخذ الفضل بدوره يشاغب علي الرضا[١] فاستفاد المأمون من هذا الوضع.

وقد كان وقع البيعة في بغداد وقع الصاعقة. إذ أن مجرد بقاء المأمون في مرو، ولد حرباً داخلية وفتناً في تلك المدينة لأن أهاليها خشوا أن يضيع نفوذهم، وأنفوا من أن يكون واليهم (الحسن بن سهل) أجنبياً، كما أنهم «أنفوا من غلبة الفضل بن سهل على المأمون»[٢]. فلما سمعوا بالبيعة للرضا ثار أهل محلة الحربية ضد الحسن بن سهل وأخرجوه من بغداد، وذهبوا إلى صالح بن المنصور وقالوا له «نحن انصار دولتكم وقد خشينا أن تذهب هذه الدولة بما حدث فيها من تدبير المجوس. فهلم نبايعك فإنا نخاف أن يخرج هذا الأمر عنكم»[٣]. ويقول الطبري إنهم إحتجوا و «قال بعضهم لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس، وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل»[٤]. ثم بايعوا لإبراهيم إبن المهدي (بعد رفض محمد بن صالح المنصور) في ذي الحجة ٢٠١ هـ تموز ٨١٦م[٥].

ولم يطلع المأمون على الحالة في بغداد حتى سنة ٢٠٢هـ حين أخبره الرضا، وفهم عندئذ نوايا بني سهل ووضعه الخطر، فأدى ذلك به إلى محاولة التخلص من الرضا، فيقال إنه سمه (بالعنب أو بعصير الرمان) في الطريق إلى بغداد في أول سنة ٢٠٣هـ في قرية نوقان قرب طوس[٦].

وأخيراً نقول إن البيعة ذاتها لم تقرب جميع العلويين من المأمون، ولكنها أرضت

---

(١) شرحه ص ٨٩.
(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٢٧.
(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٩.
(٤) الطبري ج ١٠ ص ٢٤٣.
(٥) اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٩
(٦) شرحه ج ٣ ص ١٨٠، مقاتل الطالبيين ص ٣٧١.

قسماً منهم فقط، كإبراهيم بن موسى بن جعفر المتغلب على الحجاز فإنه بايع للمأمون حالما سمع بالتولية(١).

علاقة المأمون ببني سهل

لاحظنا أن الفضل بن سهل لعب الدور الرئيسي في تغلب المأمون على أخيه فأظهر الخليفة الجديد إعترافه بهذه الخدمات بأن أطلق يد وزيره في الأمور «وسماه ذا الرياستين، ومعنى ذلك رياسة الحرب ورياسة التدبير»(٢). أي أنه أصبح مطلق التصرف تقريباً في كل ناحية من نواحي الإدارة والسياسة والحرب. ويشير الحسن بن سهل (في جوابه على تعزية المأمون له بعد قتل أخيه) «إلى ما نفذه (المأمون) من أمره (أي الفضل بن سهل) في جميع سلطانه وملكه من مشارق الأرض ومغاربها»(٣).

وقد كتب المأمون للفضل بن سهل توقيعاً قال فيه «أغنيت يا فضل بن سهل بمعاونتك إياي على طاعة الله وإقامة سلطاني، فرأيت أن أغنيك.. وقد أقطعتك السيّب بأرض العراق.. عطاء لك ولعقبك لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتي ولما قمت به من حق الله وحقي، فلم تأخذك في لومة لائم ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره. **وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت أمرتك** به من العمل لله ولنبيه، والقيام بصلاح دولة أنت ولي بقيامها»(٤).

ولم يتوان الفضل بن سهل في القبض على مقاليد الأمور بيد حديدية حتى أنه «إستولى على المأمون» كما يقول الفخري وقطع عنه الأخبار وعاقب من حاول إخباره بخبر ما وذلك ليستولي على الأمور وليصرفها حسب سياسته الفارسية، ولم يتردد في تشويه الأخبار حتى أنه فسر ثورة البغداديين وبيعتهم لإبراهيم بن المهدي بانهم «صيّروا إبراهيم بن المهدي أميراً يقوم بأمرهم»(٥) لا خليفة. وعين أخاه الحسن والياً على العراق ليكون متأكداً من السيطرة على القسم الغربي من المملكة وحرم من هذه الولاية طاهر بن الحسين مع أنه هو الذي ثبت أركان حكم المأمون عسكرياً، وأرسله لمحاربة نصر بن شبث الثائر في الجزيرة.

أما اتجاه سياسة الفضل بن سهل فكان فارسياً شكلاً وحقيقة، فمن مظاهر تقليده للساسانيين ما يرويه الجهشياري حين يقول «وكان ذو الرياستين يجلس على كرسي مجنح

---

(١) اليعقوبي ٣ ج ص ١٧٣.

(٢) الجهشياري ص ٣٠٥.

(٣) رسائل العرب ج ٣ ص ٤٠٧.

(٤) الجهشياري ص ٣٠٦ ويظهر أن هذا التوقيع هو ما يسميه اليعقوبي (ج ٣ ص ١٧٩) بكتاب الشرط والحياء.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٢٥٠.

ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه، فإذا وقعت وضع الكرسي ونزل عنه فمشى وحمل الكرسي حتى يوضع بين يدي المأمون، ثم يسلم ذو الرياستين ويعود ويقعد عليه.. وإنما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الأكاسرة فإن وزيراً من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي ويقعد بين أيديها عليه»[١] ولعل الجناحين هما أجنحة أهورا مزدا إله الخير عند الزرادشتية.

وهناك بعض الأمثلة التي تبين أن هذه السياسة كانت في حقيقتها فارسية تسعى لاحياء مجد الفرس ولإرجاع السلطة إليهم. فأهل بغداد إحتجوا على تصرفات بني سهل أمام محمد بن صالح بن المنصور قائلين «وقد خشينا أن تذهب هذه الدولة بما حدث فيها من تدبير المجوس»[٢] ولعل أصرح وصف لهذه السياسة هو ما قاله نعيم بن خازم حين استشاره المأمون في أمر البيعة للرضا، فاستنكر ذلك وقال للفضل «إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسروياً، ولولا إنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده وهي البياض إلى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس» ثم التفت إلى المأمون وقال «الله الله يا أمير المؤمنين! لا يخدعنك عن دينك وملكك»[٣] وقد ذهبت هذه الصرخة سدى لأن نفوذ الفضل كان قوياً فنفى نعيم بن خازم.

وقد ذهب هرثمة بن أعين، القائد العربي، ضحية لسياسة الفضل بن سهل إذ قدم إلى خراسان بعد اضطراب الأحوال في بغداد وفي الولايات الغربية «وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل بن سهل ويكتم عنه من الأخبار وألا يدعه حتى يرده إلى بغداد.. ليتوسط سلطانه ويشرف على أطرافه»[٤]. وقد تمكن هرثمة، رغم دسائس ابن سهل من مقابلة المأمون فلامه على اتجاه سياسته قائلاً «قدمت هذا المجوسي (يقصد الفضل بن سهل) على أوليائك وأنصارك»[٥] وحاول تبيان خطر هذه السياسة واتجاهها الفارسي، ولكن الفضل بن سهل لم يفسح له المجال، فسجن هرثمة وقتل في السجن بدسيسة الفضل بن سهل[٦] ومجيء هرثمة هذا ونهايته دليل واضح على أن سياسة الفضل بن سهل كانت فارسية في اتجاهها وأن بقاء المأمون في خراسان كان بتأثير وزيره. ويروي اليعقوبي أن الفضل بن سهل كان يتمثل بالأبيات الآتية:

لئن نجوت أونجت ركائبي   من غالب ومن لفيف غالب
إني لنجاء من الكرائب

(١) الجهشياري ص ٣١٦.
(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٩.
(٣) الجهشياري ص ٣١٣.
(٤) الطبري ج ١٠ ص ٢٣٦.
(٥) اليعقوبي ج ٣ ص ١٧٨.
(٦) قارن الطبري ج ١٠ ص ٢٣٦ والجهشياري.٣١٣ وص ٣١٧.

ويقصد بغالب قريشاً[1] وبهذا يعترف الفضل بالخلاف الجوهري بين سياسته الحقيقية وبين مصالح العباسيين.

ويتفق المؤرخون على أن الرضا هو الشخص الوحيد الذي تجرأ على أخبار المأمون «بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه، وبما كان الفضل بن سهل يستتر عنه من الأخبار وأن أهل بيته والناس نقموا عليه أشياء»[2] كالبيعة له بولاية العهد وتغيير لباس السواد[3] وأخبره عن بيعة البغداديين لإبراهيم بن المهدي، فأنكر المأمون ذلك وسأل قواده فأكدوا ما قاله الرضا وأشاروا عليه «الرأي أن تسير بنفسك إلى بغداد وتستدرك أمرك وإلا خرجت الخلافة من يدك»[4].

وعند ذلك إنتبه المأمون للخطر المحدق به إذ شعر بالإضافة إلى الإضطرابات في مصر والجزيرة، بخطر حرب أهلية جديدة بين أعضاء العائلة المالكة كما أنه أدرك مغزى سياسة الفضل بن سهل فاتجه إلى بغداد سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م. وهذا الإتجاه لم يكن مجرد تبديل للعاصمة، بل كان انقلاباً على السياسة التي تمثلها العاصمة الأولى، ومعنى ذلك لزوم التخلص من الفضل بن سهل ومن ولي العهد. ولذلك دس إلى الفضل بن سهل من قتله في الطريق في مدينة سرخس (شعبان سنة ٢٠٢هـ) ثم تخلص من ولي العهد في قرية النوقان (قرب طوس) أول سنة ٢٠٣هـ[5]. وهاتان الحادثتان تدلان بوضوح على أن المأمون كان منصورياً (نسبة إلى المنصور) في سياسته.

ثم وصل المأمون بغداد في ربيع الأول سنة ٢٠٤هـ[6]. وبعد وصوله بمدة تتراوح بين ثمانية أيام وتسعة وعشرين يوماً (حسب اختلاف المصادر)[7] ترك الخضرة ورجع إلى السواد. ولكنه لم يقطع صلته ببني سهل بل اتبع سياسة تدريجية حكيمة، فاستوزر الحسن بن سهل لمدة قصيرة، وتزوج بابنته بوران (وكانت صغيرة)[8] ترضية له، ولكنه كان في الحقيقة يشرف على الأمور بنفسه. ثم أحب قطع آخر صلة بالحسن بن سهل، فصرفه عن الوزارة وإستعمل الدهاء في ذلك. فيذكر المسعودي أن سبب تنحية الحسن هو المرض ويقول «فلما أظهر الحسن العجز عن الخدمة لعوارض من العلل ولزم منزله عدل

---

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ١٨١.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٥٠.

(٣) الفخري ص ١٦٤.

(٤) شرحه.

(٥) اليعقوبي ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٦) ابن طيفور ـ تاريخ بغداد ج ٦ ص ١١.

(٧) انظر الطبري ج ١٠ ص ٢٥٥، وابن طيفور ص ٣.

(٨) انظر عن تفاصيل الاحتفال كتاب لطائف المعارف، واليعقوبي ج ٣ ص ١٨٦.

المأمون إلى استكتاب كتّاب..»[1] ويصف الفخري مرضه بأنه «سوداء كان أصلها جزعه على أخيه فانقطع بداره ليتطبب واحتجب عن الناس»[2]. ولكن يظهر أن هذه مجرد مظاهر إذ نستدل من المحاورة التي جرت بين المأمون وبين الوزير الجديد أحمد بن أبي خالد الأحول على أن المأمون أشاع هذه الأقوال أو أن الحسن لزم داره حين أراد المأمون صرفه، إذ قال أحمد للمأمون «يا أمير المؤمنين إعفني من التسمي بالوزارة وطالبني بالواجب فيها»[3]. وقال له أيضاً «واجعل بيني وبين الناس منزلة يرجوني لها صديقي ويخافني بها عدوي، فما بعد الغايات إلا الآفات»[4]. ومن هذا نستنتج أن عزل الحسن لم يكن لعامل مرضي، ويذكرنا موقف أحمد بن أبي خالد بموقف خالد البرمكي في زمن أبي العباس بعد مقتل الخلال.

ولكن المأمون كما يظهر لم يستفد كل الفائدة من تجربته مع بني سهل إذا اعتمد على عائلة فارسية أخرى (وهي عائلة طاهر بن الحسين) وأسند إليها إدارة أهم جزء من الأمبراطورية فانتهى بها الحال إلى أن انفصلت فعلاً في خراسان وكونت الإمارة الطاهرية هناك.

المأمون وبنو طاهر

عندما ولي الفضل بن السهل أخاه على العراق بعث الحسن بن سهل طاهر بن الحسين لمحاربة نصر بن شبث بالجزيرة، فغضب طاهر وقال «حاربت خليفة وسقت الخلافة وأومر بمثل هذا؟ وإنما ينبغي أن توجه لهذا قائداً من قوادي» وكان ذلك سبب الخصومة بين طاهر والحسن[5]. واتخذ طاهر الرقة مركزه، فلما رجع المأمون إلى بغداد دعاه إليه حالاً[6]. ثم ولاه على المغرب كله بعد دخوله بغداد بشهر[7]. وفي ذي القعدة سنة ٢٠٤هـ ولاه الشرط ببغداد ومعاون السواد[8] وفي ذي القعدة من سنة ٢٠٥ ولاه «على خراسان والجبال من حد حلوان إلى خراسان»[9].

ويبين الطبري وإبن طيفور أن تولية طاهر على خراسان كانت برغبة منه، وأن سببها

---

(١) التنبيه والاشراف ص ٢٠٤.

(٢) الفخري ص ١٦٨.

(٣) المسعودي ـ التنبيه ص ٣٠٤.

(٤) الفخري ص ١٦٨.

(٥) ابن طيفور ص ٢٣.

(٦) شرحه ص ٢.

(٧) شرحه ص ٥٥ انظر اليعقوبي ج ٣ ص ١٨٢.

(٨) الطبري ج ١٠ ص ٢٦٤، ابن طيفور ص ٥٥ وص ٣١.

(٩) الطبري ج ١٠ ص ٢٥٧.

هو حذره من قرب المأمون الذي لم ينس مقتل أخيه إذ أنه بكى يوماً بحضرة طاهر، فتمكن هذا بعدئذ من معرفة سبب بكائه بعد أن قال لأحد ثقات الخدم، «إني ذكرت محمداً أخي وما ناله من الذلة فخنقتني العبرة فاسترحت إلى الافاضة ولن يفوت طاهراً مني مـا يكره»[1].
ولكني أرى أن طاهراً كان مدفوعاً بطموحه العظيم لطلب هذه التولية لأن خراسان كانت أهم ولايات الامبراطورية، فيروي إبن خلكان «وقيل لطاهر ببغداد لما بلغ ما بلغ: ليهنك ما أدركته من هذه المنزلة التي لم يدركها أحد من نظرائك بخراسـان. فقال ليس يهنيني ذلك لأني لا أرى عجائز بـوشنج (بخـراسان) يتـطلعن إليَّ من أعالي سـطوحهن إذا مررت بهن» (إبن خلكان ج١ ص ٢٣٦) وكان ذلك الطموح يقلق المأمون نفسه كما يظهر من المحاورة التي جرت بينه وبين وزيره، إذ علق الخليفة على الإقتراح بتولية طاهر قائلاً «هو والله خالع»[2] أو «إني أخاف أن يغدر ويخلع»[3] ولم يكن المأمون ليـلام في ذلك الحذر لأنـه عرف شعـور الخراسانيين الذين خيب العبـاسيون آمـالهم بعد مجيئهم إلى الحكم، ثم خيبهـا هو ثـانية بالرجوع إلى بغداد، فصاروا يشعرون بأن خير طريقة لسعادتهم هي الإنفصال ولذلك كانوا أرضاً خصبة لطموح الطامحين.

وكانت تولية طاهر بإشارة من صديقه الوزير أحمد بن أبي خالد، ويذكر اليعقوبي أن طاهراً أعطى الوزير ثلاثة ملايين درهم[4]. فيروى أن الوزير أتى إلى المأمون وحـذره من ضعف والي خراسان، وهو غسان بن عباد إبن عم الفضل بن سهـل[5]، وهناك روايـة في اليعقوبي مضمونها أن الوزير زور رسالة على لسان غسان يستعفي فيها من الولايـة، وأن المأمون لم يكتشف ذلك إلا فيما بعد[6]. ولما أبدى المـأمون مخـاوفه من عصيـان طاهر، ضمن الوزير حسن تصرفه. ولم تمض مدة طويلة حتى «أنكر المأمون»[7] على طاهر «أموراً وكتب إليه كتاباً يتهدده فيه، فكتب طاهر جواباً أغلظ فيه للمأمون». ثم تطور سوء العلاقة إلى عصيان حين قطع طاهر إسم الخليفة من الخطبة في يوم جمعة من سنـة ٢٠٧هـ. فيروي صاحب بريد المأمون في مرو قال «حضرت الجمعة فصعد طاهر المنبر فخطب، فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له وقال: اللهم أصلح أمة محمد ﷺ بما أصلحت به أولياءك واكفها من بغى فيها وحسد عليها من لم الشعث وحقن الدماء وإصلاح ذات البين»[8] ومعنى

---

(١) ابن طيفور ص ٣٢، الطبري ج ١٠ ص ٢٥٧.
(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٥٨، ابن طيفور ص ٣٢.
(٣) الفخري ص ١٦٨.
(٤) اليعقوبي ـ ج ٣ ص ١٨٣.
(٥) ابن طيفور ص ٣٢، ص ٥٤.
(٦) اليعقوبي ج ٣ ص ١٨٣.
(٧) الفخري ص ١٦٨.
(٨) ابن طيفور ص ١٣٠ ـ ١.

هذا أنه أعلن إنفصاله التام عن مركز الخلافة واستقلاله.

وتتفق أكثر المصادر على أن المأمون لام وزيره وأمره بتنفيذ ضمانه، ولكن طاهر بن الحسين لاقى حتفه فجأة. ورغم اضطراب الروايات في كيفية وفاته فالراجح أنه اغتيل أو سم بإيعاز المأمون أو بإيعاز وزيره[٤]. ويظهر أن رغبة المأمون في نفي أي تهمة عن نفسه، وكذلك قوة نفوذ العائلة في خراسان جعلا الخليفة يولي طلحة بن طاهر محل والده[٢].

أما عبدالله بن طاهر، فكان أقدر أبناء طاهر وأكثرهم دهاء فلما ولى والده على خراسان، إستخلفه على الشرط ببغداد وعلى معاون السواد[٣]. ثم ولاه المأمون على «الجزيرة والشام ومصر والمغرب، وصير إليه جميع أهلها وأمره بمحاربة المتغلبين، فنفذ عبدالله سنة ٢٠٦»[٤]. وقد نجح عبدالله في تهدئة الحال في تلك الولايات كما سنرى. ولما توفي أخوه طلحة سنة ٢١٣هـ عينه المأمون لولاية خراسان سنة ٢١٤هـ[٨]. فأدى ذلك إلى تثبيت حكم العائلة الطاهرية فيها ونشوء أول إمارة فارسية شبه مستقلة في إيران.

الاضطرابات في الجزيرة والشام ومصر

ثار نصر بن شبث النصري بالجزيرة بعد مقتل الأمين، وتوسعت ثورته وقد يكون ذلك ناتجاً عن قلة اهتمام طاهر بمحاربته لأن طاهراً لم يعجبه إسناد تلك المهمة إليه[٦]. ولم تكن ثورة نصر ضد الحكم العباسي بل كانت ثورة العرب ضد النفوذ الفارسي. وخير دليل على ذلك أن بعض الطالبيين ذهب إلى نصر وطلب منه البيعة لعلوي فرفض وقال «إنما هو أي مع بني العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم[٧]». وكان أتباع نصر من العرب فقط، فلما اشترط عليه المأمون أن يطأ بساطه ليعفو عنه غضب وقال «ويلي عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعني الزط) **يقوى على حلبة العرب!**»[٨] وربما كان في ثورة نصر شيء من النزعة البدوية التي تمثلت من قبل في ثورات الخوارج في الجزيرة.

ولما ولى المأمون عبدالله بن طاهر الولايات الغربية، جد هذا في محاربة نصر وضيق عليه الخناق وكان يحاول أثناء ذلك إقناعه بقبول الصلح. وأخيراً إضطر نصر لطلب الصلح

---

(١) أنظر في هذا ـ ابن طيفور ص ١٢٨ ـ ١٣١، اليعقوبي ج ٣ ص ١٨٤ ـ ٥، الفخري ١٦٨ ـ ٩، الطبري ج ١٠ ص ٢٦٥ ـ ٦، ابن خلكان ج ١ ص ٢٣٧.

(٢) ابن طيفور ص ١٣١ ـ ٢.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٢٦٤.

(٤) اليعقوبي ج ٣ ص ١٨٤ ـ ٥.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٢٧٦، ابن طيفور ص ٢٣١ ـ ٢.

(٦) أنظر اليعقوبي ج ٣ ص ١٨٣، ابن طيفور، ص ٣٢.

(٧) عصر المأمون ج ١ ص ٣٧٣ ـ ٤.

(٨) ابن طيفور ص ١٤٢ ـ ٣، الطبري ج ١٠ ص ٢٦٧، ابن الأثير ج ٦ ص ١٣٢.

سنة ٢٠٩هـ. فأجاز المأمون ذلك لقائده وكتب إلى نصر كتاب أمان جاء فيه «وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله.. وضمانه لك في دينه وذمته الصفح عن سوالف جرائمك ومتقدمات جرائرك وإنزالك ما تستأهل من منازل العز والرفعة أن أتيت إن شاء الله»(١). فسلم نصر وجيء به إلى بغداد سنة ٢١٠هـ.

ثم حاول عبدالله بعد ذلك تهدئة الشام بالقوة والاستصلاح، فيذكر اليعقوبي أنه سار «ليستقريء الشام بلداً بلداً لا يمر ببلد إلا أخذ رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقيل، وهدم الحصون وحيطان الدور وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمهم جميعاً وحط عن بعضها الخراج فلم يبق مخارق ولا خالع إلا خرج من قلعته وحصنه»(٢).

أما في مصر فقد كانت الحالة مضطربة منذ بدء الخلاف، وكانت القبائل منقسمة أثناء ذلك إلى حزبين، فاليمانية وقفوا بجانب المأمون، بينما أيد القيسية الأمين واستمر النزاع حتى مقتل الأمين(٣). وبعد سكون قليل رجعت الفتنة بثورة عبدالله بن السري (بعد سنة ٢٠٥هـ) وتمكن إبن طاهر بعد جهد أن يضطره إلى التسليم في صفر سنة ٢١١هـ - ٨٢٦م(٤). ويبين المقريزي أنه كان لظلم عامل المأمون أثر في تحريك هذه الثورة إذ يذكر أن العباس بن موسى الذي ولي مصر سنة ١٩٨هـ «تحامل على الرعية وعسفها وتهدد الجميع فثاروا»(٥).

وكان بعض الاندلسيين الذين نفاهم الحكم بن هشام، بعد وقعة الربض بقرطبة، قد جاءوا الى الإسكندرية أثناء فتنة إبن السري (وكان عددهم حوالي ثلاثة آلاف) وتغلبوا عليها ونزلوها فحاصرهم عبدالله وفاوضهم في الخروج منها، فتركوها سنة ٢١٢هـ وساروا ألى أقريطش ونزلوا بها واستوطنوها(٦).

ثم ثارت القبائل العربية من اليمانية والقيسية بناحية الحوف (أسفل مصر) سنة ٢١٤هـ - ٨٢٩م وكانت ولاية مصر آنئذٍ لأبي إسحاق (المعتصم)، فهزموا نائبه وقتلوا الثاني. ويظهر أن الثورة كانت خطرة فأمر المأمون أبا إسحق أن يذهب للقضاء عليها، فذهب إلى مصر ودعا الثوار إلى الامان فلم يجيبوا فنكل بهم «وأسر رئيس القيسية ورئيس اليمانية فضرب أعناقهما»(٧). وقد كان لسياسة الولاة المالية الأثر الأكبر في قيام هذه

---

(١) ابن طيفور ص ١٤٠، الطبري ج ١٠ ص ٢٦٨.

(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩١.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة «مأمون»..

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٢٧٣ - ٤، ابن الأثير ج ٦ ص ١٣٤.

(٥) المقريزي الخطط ج ٢ ص ٩٩.

(٦) ابن الأثير ج ٦ ص ١٠١ وص ٢٣٥، الطبري ج ١٠ ص ٢٧٥ - ٦، اليعقوبي ج ٣ ص ١٨٨، ابن خلدون ج ٣ ص ٢٥٣.

(٧) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩١.

الثورة، إذ أن نائب أبي إسحق على الخراج (سنة ٢١٣هـ) وهو صالح بن شيرزاد «ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فانتقض أهل أسفل الأرض وعسكروا»(١).

وعندما رجع أبو إسحق تجدد الإضطراب فأرسل المأمون الأفشين سنة ٢١٥هـ فقضى على الفتنة.

ولكن مصر لم تهدأ فقد قامت ثورة عظمى سنة ٢١٦هـ ٨٣١م وكانت عنيفة في المناطق الزراعية المكتظة بالسكان في مصر السفلى، واشتركت جماهير القبط مع العرب فيها محتجة على سياسة العباسيين المالية وعسف جباتهم. فيروي المقريزي «فانتقضت أسفل الأرض (مصر السفلى) عربها وقبطها في جمادى الأولى (٢١٦هـ) وأخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة»(٢). فاضطر المأمون إلى القدوم بنفسه لضخامة هذه الثورة وخطورتها، وكان على جيشه الأفشين فتغلب على الثوار وسبى قسماً كبيراً من القبط. ويروي اليعقوبي خبراً طريفاً يلقي ضوءاً على سياسة المأمون، فيذكر أن الخليفة استفتى فقيهاً مالكياً في معاملة الثوار، فقال الفقيه «إن كانوا خرجوا لظلم نالهم فلا يحل دماؤهم وأموالهم» فقال المأمون «أنت تيس ومالك أتيس منك! هؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظلموا تظلّوا إلى الإمام وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم»(٣). وهكذا يعترف المأمون بوقوع الظلم إلا أنه لا يرى مسوغاً للثورة. ثم أخذ المأمون رؤساء الثورة إلى بغداد، وعزل عامل الخراج «ونسب الحدث إليه وإلى عماله»(٤) مما يبين أن أساس هذه الثورة مالي.

المأمون والبيزنطيون

شغل المأمون بمشاكله الداخلية عن متابعة الحرب مع البيزنطيين، فلما كان المحرم سنة ٢١٥هـ مارت ٨٣٠م غزا الصائفة بنفسه وفتح حصن قرة وحصن شمال (صملة) وأخضع سندس وحصن سنان وحصن ماجدة(٥). ثم رجع إلى دمشق ومنها إلى مصر.

ولكن الروم استغلوا انشغال المأمون بمصر فأغاروا بقيادة تيوفيل بن ميخائيل على طرسوس والمصيصة «وأثخنوا فيهم القتل»(٦). فسار المأمون إليهم في جمادى الأولى

---

(١) المقريزي ج ٢ ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) المقريزي ـ الخطط ج ٢ ص ١٠٠.

(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٢ ـ ٣.

(٤) المقريزي ج ٢ ص ١٠٠.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٢٨٠ الذهبي ج ١ ص ١٠١ المعارف لابن قتيبة ص ١٧١.

(٦) ابن خلدون ج ٣ ص ٢٥٦.

وأخضع هرقلة وافتتح حسب رواية اليعقوبي إثني عشر حصناً وعدة مطامير[1] بينما يجعلها الطبري ثلاثين حصناً ومطمورة (نقطة محصنة)[2]. فأرسل تيوفيل رسالة «سأل أن يقبل (المأمون) منه مائة ألف دينار والاسرى الذين عنده وهم سبعة آلاف أسير وأن يدع لهم ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم ويكف عن الحرب خمس سنين فلم يجبه إلى ذلك وانصرف»[3].

وفي السنة التالية (٢١٧هـ) إفتتح المأمون حصن لؤلؤة وأمر ببناء الطونة. وأرسل إليه تيوفيل رسالة يطلب الصلح جاء فيها «وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة. فإن أبيت.. فإني لخائض إليك غمارها». فأجاب المأمون بالتهديد خاتماً رسالته بالعبارات الآتية «غير أني رأيت إن أتقدم اليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفة فإن أبيت ففدية توجب ذمة.. وإن تركت ففي تعيين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ».[4].

وفي سنة ٢١٨هـ حصن المأمون مدينة الطونة «وجعل سورها على ثلاثة فراسخ» وأتى بالقوات إلى العواصم من العراق وسورية ومصر. ويظهر انه فكر بخطة جبارة لفتح بلاد الروم، فيروي اليعقوبي إنه «استعد لحصار عمورية وقال أوجه إلى العرب فآتي بهم من البوادي ثم أنزلهم كل مدينة أفتحها حتى أضرب القسطنطينية» وأنه رفض طلب إمبراطور الروم للصلح. ولكنه توفي عاجلاً على نهر البدندون podandus (قرب طوسوس)[5]. ومن هذا يتضح أن المأمون انتبه لغدر الروم المتواصل وإلى محاولاتهم إثارة الفتن ضد العباسيين خاصة في منطقة أرمينية وإلى اتصالهم ببابك ففكر بخطة واسعة المدى تقتضي فتح المدن وتأهيلها بالعرب لتثبت الفتوح، ثم ينقض بعدها على القسطنطينية ويقضي على البيزنطيين!.

عهد المأمون ووصيته

خلع المأمون أخاه القاسم من العهد بعد انتصاره على الأمين وكتب منشوراً بذلك في ربيع الأول سنة ١٩٨هـ[6]. وفي مرضه الأخير تجاوز ابنه العباس وعهد لأخيه أبي إسحاق

---

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٢.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٢٨١.

(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٢.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٢٨٣ ـ ٤ وكتاب المعارف ص ١٧١.

(٥) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٦، انظر دائرة المعارف الاسلامية، مادة «المأمون».

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٢٠٨ ـ ٩.

المعتصم، وأوصاه بعدة أمور في وصية طويلة مجملها:

(١) تعضيد القول بخلق القرآن (٢) الإهتمام بشؤون جمهور الرعية إذ يقول «ولا تغفل أمر الرعية، الرعية الرعية، العوام العوام فإن الملك بهم» وتقديم مصلحة المسلمين على كل شيء والترفيه عنهم وإنصاف القوي من الضعيف (٣) والتعجيل بالرجوع إلى العراق (لعل ذلك تلافياً للفتنة). (٤) والإهتمام بالثغور والعواصم وبمن فيها من المقاتلة (٥) والجد في محاربة الخرمية فيقول «والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد وأكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجال فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك» (٦) وأن لا يستوزر أحداً، وهذا نتيجة لتجارب المأمون المرة مع وزرائه (٧) الرفق بالعلويين «فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل عن محسنهم، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها»[١].

وأهمية هذه الوصية أنها تعطي خلاصة تجارب المأمون، ونظرته للسياسة الرشيدة التي تحل بها المشاكل التي كانت تواجه الدولة في أواخر أيام حياته.

تقرير

ويمكن الآن تقدير شخصية المأمون وأثره، فقد كان منصورياً (أو مكيافلياً) في سياسة، بارعاً بأساليب الدعاية ويهتم كثيراً لها. وأبدى جداً وعزيمة في محاربة البيزنطيين وخطته الأخيرة تدل على بعد نظر واستقلال فكر. ولكن حكمه أدى إلى اختلال التوازن بين العرب والفرس من جديد، وساعد على انهيار التعاون بين العنصرين. ثم نرى ظاهرة جديدة وهي تدخل الخليفة في الجدل الديني وفرضه القول بخلق القرآن على الناس، وهذا هو بدء تدخل الخلفاء في قضايا العقائد العامة. ولا يخفى أثر المأمون في تشجيع الترجمة وتعزيزها. وفي عهده زاد تفسخ الدولة العباسية بتولية الطاهريين على خراسان واستقلالهم عملياً فيها.

نهاية العصر العباسي الأول:

يمكن اعتبار حكم المأمون نهاية العصر العباسي الأول سياسياً وذلك للإعتبارات الآتية:

١ ـ كان حكم المأمون نهاية فترة النفوذ الإداري والسياسي للفرس في جسم الدولة العباسية. وقد خلفتها فترة تفوق العنصر التركي.

٢ ـ وبعد وفاة المأمون بدأت سيادة العناصر العسكرية وأخذها الدور الرئيسي في

---

(١) شرحه ج ١٠ ص ٢١٤ ـ ٥.

تسيير دفة الدولة وتقرير سياستها بعد أن كانت تلك العناصر ثانوية أو مسيرة من قبل الوزراء والكتاب.

٣ ـ وبعد المأمون انتهى ذلك التعاون الوثيق بين الخراسانيين وبين العباسيين وبدأ دور نشوء الإمارات المستقلة في إيران، كالطاهرية والصفارية والسامانية، وهي تمثل تعاون الارستقراطية الفارسية مع الجماهير ضد العباسيين. وقد وصلت هذه الحركة الإنفصالية أوجها في ظهور البويهيين ثم دخولهم بغداد سنة ٣٣٤هـ. ولا شك أن استخدام العباسيين للفرس والتنكيل بأرستقراطيتهم كلما خشي نفوذهم وخيبة أمال الجماهير المتكررة كان له أثر في تقرب الأرستقراطية من الجماهير وظهور الإمارات.

٤ ـ وشهد حكم المأمون نهاية تلك الثورات العنيفة المسلحة للعلويين، وبدء دعاية سرية باسمهم وتوسعها التدريجي الذي أدى إلى قيام الدولة الفاطمية.

٥ ـ ثم إن نقل العاصمة إلى سامراء كان رمزاً لسياسة جديدة، وخرقاً للتقاليد العباسية التي كانت ترى في بغداد معقل السلطان العباسي.

ويمكن اعتبار خلافة المعتصم دور انتقال إلى العصر العباسي الثاني ولذا فهي تستحق البحث بتفصيل.

الفصل التاسع

المعتصم بالله (أبو إسحاق محمد)

١٨ رجب ٢١٨ ـ ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧[١]

مقدمة

إختلف المؤرخون في أمر البيعة للمعتصم. والثابت أنه كان مع أخيه بطرسوس وأن الجند شغبوا وأرادوا مبايعة العباس بن المأمون، إذ يظهر إنه كان محبوباً لدى الجيش وخاصة العرب منه[٢].

وتتفق المصادر (عدا الدينوري) على أن العباس كان مع أبيه في الحملة، ولكنه لم يكن مع المعتصم في معسكر واحد[٣]، ولعله كان في طونه (Tyana)[٤].

وتقول بعض الروايات أن العباس أسرع إلى مبايعة عمه حسماً للفتنة. فيذكر الطبري وصاحب العيون والحدائق أنه عندما شغب الجند (أرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضره فبايعه، ثم خرج إلى الجند فقال: ما هذا الحب البارد وقد بايعت عمي وسلمت الخلافة إليه! فسكن الجند»[٥]. ويقول اليعقوبي: «وامتنع بعض القواد من البيعة لمكان العباس من المأمون، فخرج إليهم العباس من مضربه، فكلمهم بكلام استحمقوه وشتموه وبايعوا لأبي إسحق»[٦].

ولكن المسعودي يبين أن العباس بايع بعد تردد، فيقول: «وكان بينه (المعتصم) وبين العباس بن المأمون في ذلك الوقت تنازع في المجلس، ثم إنقاد العباس إلى بيعته»[٧].

---

(١) انظر الاختلافات في التواريخ في المسعودي ج ٤ ص ١، الطبري ج ١٠ ص ٣٠٤، اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٧ وص ٢٠٤، الدينوري ص ٣٩٧ وص ٤١٠، التنبيه والاشراف ص ٣٠٦، ابن العبري ص ٢٤٢.

(٢) العيون والحدائق ص ١، الطبري ج ١٠ ص ٣٠٤، ابن العبري ص ٢٤٠، الاربلي ص ١٦١،

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٤، العيون ص ١.

(٤) انظر ميور ص ٥١٣.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٤ العيون ص ١.

(٦) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٧.

(٧) المسعودي ج ٤ ص ٢.

وينفرد الدينوري برواية غريبة مؤداها أن المأمون «بايع لابنه العباس.. بولاية العهد من بعده، وخلفه بالعراق» وأن المعتصم دعا وجوه الأجناد والقواد بطرسوس إلى بيعته فبايعوه، «فسار من طرسوس حتى وافى مدينة السلام فدخلها وخلع العباس بن المأمون عنها وغلبه عليها فبايعه الناس»(١). ولكن الدينوري مؤرخ ضعيف، هذا بالإضافة إلى انفراده بهذه الرواية وإلى أن مضمونها لا يتفق وروح العلاقة بين العباس وبين عمه كما سنرى.

وكل ما نستنتجه هو أن العباس كان لديه بعض الطموح، وأن الجيش ظهرت منه بادرة التدخل في أمر البيعة لأول مرة وكان قسم منه يميل للعباس، ولكن المعتصم أخمد المقاومة وتمت له البيعة..

٢ ـ كان المعتصم «أصهب أبيض، حسن الجسم، جميل الوجه، مربوعاً مشرباً حمرة عريض الصدر، شديد البدن، طويل اللحية لم يشب»(٢) حسن العينين(٣).

ويوصف بقوته الجسمية وبشجاعته. فيقول صاحب العيون «وكان.. غزير القوة يحمل ألف رطل ويمشي به خطوات»(٤). ويقول المسعودي «وكان الرجل الذي لا يقاس به الرجال قوة بدن وشدة بأس وشجاعة قلب وكرم أخلاق»(٥). ويقول الأربلي «وكان يلوي العمود الحديد حتى يعيده طوقاً، ويشتد على الدينار بإصبعه فيمحو كتابته»(٦). ويبين الفخري أنه كان «موصوفاً بالشجاعة»(٧).

ويمدح كرجل حرب قدير، فيقول الأربلي «وكان من العظماء الموصوفين بالحزم ذوي المناقب الوافرة والفتوح الظاهرة والفضائل الجمة والهمة العالية جداً في إعزاز الدين. قيل أنه لم يكن في بني العباس قبله أشجع منه ولا أتم تيقظاً في الحروب ولا أشد قوة»(٨) ويذكر الفخري إنه كان «شديد الرأي».

ويظهر أنه كان قليل الثقافة، فيبين صاحب العيون أنه «كان أمياً لا يكتب»(٩) بينما يذكر ابن خلكان أنه «كان.. ضعيف الكتابة»(١٠). ويظهر لي أن تأييده للمعتزلة كان تقليداً لسياسة أخيه لا نتيجة لثقافة عالية، ولذلك كان أقل تسامحاً في معاملته لأهل السنة حتى أنه

---

(١) الدينوري ص ٣٩٦.

(٢) التنبيه والاشراف ص ٣٠٦.

(٣) الطبري ج ١١ ص ٧.

(٤) العيون ص ٧٣.

(٥) التنبيه ص ٣٠٦ ـ ٧.

(٦) الاربلي ص ١٦٢.

(٧) الفخري ص ٢٠٩.

(٨) الاربلي ص ١٦١ ـ ٢.

(٩) العيون ص ٧٣.

(١٠) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٥.

أمر بضرب أحمد بن حنبل بالسياط وسجنه لأنه «امتنع أن يقول أن القرآن مخلوق»[١].

ولعله كان عسكرياً بطبعه، فمع أن أحمد بن أبي داوود «أطنب في فضله وذكر من سعة أخلاقه ولين جانبه وجميل عشرته» إلا أن ابن أبي داوود كان من أقرب مقربيه، ولعل غيره كان أصدق منه حين قال «إنه (المعتصم) إذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل»[٢].

ومما ذكر يتضح أن المعتصم كان جندياً شجاعاً مدرباً في الحرب، يعتز بقوته الجسمية إلا أن ثقافته كانت محدودة. ولعله لم يكن سياسياً بارعاً.

المعتصم والأتراك

ويتميز المعتصم عن أسلافه بأنه استخدم الأتراك في الجيش وجعل جل إعتماده عليهم. فيبين المسعودي أنه «آثر من استحدث من غلمان الأتراك على المتقدمين من أوليائه ونصحائه»[٣]. نعم إننا نجد إشارات إلى وجود أتراك في الجيش قبل المعتصم. فيذكر الطبري في حوادث سنة ١٧٠هـ أن طرسوس عمرت على يد أبي سليم فرج الخادم التركي[٤]، ولكن عددهم كان ضئيلاً واستخدامهم كان بطريق الصدفة لا عن سياسة مدبرة.

ويظهر أن المعتصم استخدمهم قبل الخلافة كما يبين اليعقوبي[٥]. ويذكر الطبري خروج مهدي بن حلوان الحروري سنة ٢٠٢هـ ويقول «فوجه إليه إبراهيم بن المهدي أبا إسحق بن الرشيد.. ومع أبي إسحاق غلمان له أتراك»[٦] ولكنه بعد مجيئه إلى الحكم جد في جمعهم وقرر تكوين جيش يعتمد عليه منهم. يقول المسعودي إن المعتصم كان «يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم... (وأنه) ألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية والحلية وابانهم بالزي عن سائر جنوده»[٧].

ولعل كون أم المعتصم تركية ساعده على التعرف بالأتراك، ولكني أرى أن الذي دفعه إلى هذه السياسة هو اختلال التوازن بين عناصر الدولة العباسية، فلقد ساءت العلاقة بين الخراسانيين وبين العباسيين بعد انتقال المأمون من مروٍ وبعد نكبة بني سهل وظهرت استحالة التوفيق بين آمال الخراسانيين وبين مصالح العباسيين، فالتجأ المعتصم إلى عنصر جديد ليجعل منه الركن العسكري للدولة.

وكان الإستكثار من الترك وجعلهم تحت قواد منهم وتقريبهم ضربة عنيفة للقواد

---

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٨.

(٢) الطبري ج ١١ ص ٧.

(٣) التنبيه والاشراف ص ٣٠٧.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٥٠.

(٥) اليعقوبي كتاب البلدان ص ٢٣.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٢٤٥.

(٧) المسعودي ج ٤ ص ٩.

وللجند العرب، على سياسة المنصور التقليدية التي كانت تستهدف حفظ التوازن في الجيش بين الفرق الأعجمية والفرق العربية، وقد ظهر سخط الجند العربي واضحاً في مؤامرة العباس بن المأمون كما سنرى.

ولتقدير معنى الإتجاه الجديد يجب أن نلاحظ الفرق بين وضع الأتراك والفرس. فقد كان الفرس أمة متحضرة لها أنظمة وتقاليد ساعدت على تقدم العباسيين في الحضارة، بينما كان الأتراك خلواً في ذلك، فيسميهم الجاحظ «بدو العجم» ويبين أنهم لا يميلون للزراعة أو الصناعة أو الثقافة(١). ويقول براون أن تأثير الأتراك كان «دائماً بربرياً لحد ما، وندر أن شجع البحث الفكري الحر أو الثقافة الحرة»(٢). كما أن تسلطهم على الخلافة كان ضربة لمؤسساتها ولهيبتها فيما بعد. ويجب ملاحظة فرق آخر هام وهو أن تعاون الفرس مع العباسيين كان نتيجة لدعاية طويلة كان الترك بعيدين عن تأثيرها، فلم يكن يربطهم بالخلفاء ولاء روحي أو تفاهم عقلي.

ولهذا فنحن نقر فيليب حِتي على قوله «إن تعاظم سلطان الأتراك كان مبدأ انحلال سلطان الخلافة»(٣). وإذا ناقشنا سياسة المعتصم بنتائجهاالبعيدة فإنها كانت خطأة كبرى. ومنشأ الخطأ هو تقويض الدعائم التي قامت عليها الدولة العباسية وهي الفرس، والعرب، والدعوة، ووضع دعامة ضعيفة محلها وهي عنصر أجنبي جديد. ولقد عبر إسحاق بن إبراهيم عن ذلك حين شكا إليه الخليفة قلة نجابة زعماء الأتراك بالمقارنة برجال المأمون ـ إذ قال «نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها»(٤).

ولكن علينا أن نتذكر أن ضرر تقريب الأتراك لم تظهر آثاره بوضوح في خلافة المعتصم. ومع ذلك فقد شعر الخليفة بشيء من الخيبة في مشروعه(٥).

أما عدد الأتراك في جيش المعتصم فيصعب تقديره بدقة. إذ بدأ يجمعهم وهو أمير فكان يوجه سنوياً بمن يشتري له منهم من جهات سمرقند حتى «اجتمع له في أيام المأمون منهم زهاء ثلاثة آلاف غلام» كما يقول اليعقوبي(٦). ويذكر الكندي أنه لما ذهب إلى مصر سنة ٢١٤هـ كان معه أربعة آلاف غلام تركي(٧). فلما أفضت الخلافة إليه «الح في طلبهم

---

(١) الجاحظ ـ مناقب الترك ص ٤٣.

(٢) براون ج ١ ص ٢٥٤ ـ ٥.

(٣) Hitti - History of the Arabs p. 466-7.

(٤) الطبري ج ١١ ص ٨ ـ ٩.

(٥) شرحه.

(٦) اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٣.

(٧) الكندي ـ الولاة والقضاة ص ١٨٨.

واشترى من كان ببغداد من رقيق الناس»[1]. ولعل المسعودي يخطيء حين يقدر عدد الأتراك في جيش الخليفة المعتصم قبل انتقاله إلى سامراء بأربعة آلاف[2]. وكان عبدالله بن طاهر يرسل إليه سنوياً ألفي غلام تركي كجزء من خراج خراسان[3]. كما أنه كان يشجع الأتراك في آسيا الوسطى على الإنخراط في جيشه فترك قسم منهم بلادهم وانضموا إليه[4]. وهناك رواية تقول إنه اجتمع لديه سبعون ألف تركي، وإلى ذلك أشار علي بن الجهم بقوله:

أمامي من له سبعون ألفاً   من الأتراك مسرعة السهام[5]

ويظهر أن عامتهم كانوا من فرغانه وأشروسنه والصغد والشاش[6].

المشاكل الداخلية

أ ـ حركة بابك الخرّمي (٢٠١هـ ـ ٢٢٢هـ).

وهي أخطر حركة دينية في المظهر سياسية في الغاية عرفتها إيران منذ قيام الدولة العباسية وتتميز عن الحركات السابقة بسعتها وبتنظيم دعايتها وببراعة القيادة فيها وبتوحيد خططها وباتصالها السياسي بغير الفرس على نطاق أوسع. ولكنها في أسسها تشبه الحركات السابقة. ولفهم هذه الحركة يلزم معرفة مبادئها وغاياتها والوسط الذي انتشرت فيه، وحلفائها وأسباب فشلها.

١ ـ كانت حركة بابك حركة خرمية. فيبين ابن النديم وابن الجوزي ان البابكية هم طائفة من الخرمية تبعوا بابك الخرمي[7] ويتحدث الطبري عن انتشار دعوة بابك سنة ٢١٨هـ قائلاً «وفيها دخل جماعة كثيرة.. دين الخرمية»[8]. ويعتبر البغدادي البابكية من الخرمية[9]. وقالت زوجة جاويدان (سلف بابك) إن بابك سوف يرد المزدكية»[10] ويفهم من الدينوري إن بابك خرمي حين يشير إلى الغموض في نسبه ويقول «الذي صح عندنا وثبت

---

(١) اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٣.

(٢) المسعودي ج ٤ ص ٩.

(٣) ابن خرداذبة ص ٣٩.

(٤) بارتولد ـ تركستان ص ٢١٢.

(٥) الاربلي ص ١٦٢، ياقوت ـ معجم البلدان، مادة سامراء.

(٦) بارتولد ـ تركستان ص ٢١٢ والمسعودي ج ٤ ص ٩.

(٧) المنتظم ج ٥ ص ١١٣، الفهرست ص ٤٨٢.

(٨) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٥.

(٩) الفرق بين الفرق ص ٢٥١.

(١٠) الفهرست ص ٤٨٢.

أنه كان من ولد مطهر إبن فاطمة بنت أبي مسلم (الخراساني) هذه ينتسب إليها الفاطمية من الخرمية»[١].

ويظهر أن بابك خلف جاويدان في زعامة إحدى فرقتي الخرمية في منطقة الجبال، إذ أن زوجة جاويدان قالت لهم إن زوجها قال «أريد أن أموت هذه الليلة وإن روحي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك وتشترك مع روحه» فصدق الاتباع قولها ورضوا ببابك رئيساً لهم[٢].

ومن هذا يتضح أن حركة بابك هي استمرار للحركة الخرمية فقد نجح ذلك الرجل في أن يتزعم جماعة من أتباعها، ثم وفق بمقدرته إلى توحيدها وتنظيمها. ولم يضف إلى الحركة شيئاً غير عبقريته العسكرية ودهائه السياسي ومقدرته على التنظيم. وأما قول ابن النديم بأن بابك «أحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ولم تكن الخرمية تعرف ذلك»[٣]، ففيه نظر لأننا نعرف بوجود زعيمين للخرمية في منطقة الجبال قبل بابك وإنهما كانا في حروب مستمرة وهما جاويدان وأبو عمران وأن الأول مات من جراحه بينما قتل الثاني في المعركة[٤]. والمقدسي أدق من ابن النديم حين يقول إن الخرمية «يتجنبون الدماء جداً إلا عند عقد راية الخلاف»[٥]. وكان الخرمية أتباع بابك يدعون «المحمرة»[٦] وذلك لأنهم «صبغوا الثياب بالحمرة أيام بابك وكانت شعارهم»[٧].

ولنذكر الآن بعض المبادىء التي عرفت عن الخرمية أتباع بابك. فمنها الحلول إذ أن بابك «كان يقول لمن استغواه إنه إله»[٨]. ومنها الإعتقاد بالتناسخ والرجعة كما يفهم من الوصية المنسوبة إلى جاويدان[٩].

وكانوا يدعون إلى «الإشتراكية»، فيذكر البغدادي ان دعوة بابك كانت ترمي إلى الإباحة المزدكية[١٠]. ويقول المقدسي إنه رأى بنفسه «بين الخرمية في ديارهم ماسبذان ومهرجان قذق (مراكز بابكية)... من يقول بإباحة النساء على الرضا منهن وإباحة كل ما يلذ النفس وينزع إليه الطبع ما لم يعد على أحد بضرر»[١١]. وكان الخرمية على الأغلب

(١) الدينوري ص ٣٩٧.
(٢) الفهرست ص٤٨٢.
(٣) الفهرست ص ٤٨٠.
(٤) أنظر الفهرست والمسعودي.
(٥) المقدسي ـ البدء ج ٤ ص ٢٤.
(٦) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٧.
(٧) المنتظم ج ٥ ص ١١٤.
(٨) الفهرست ص ٤٨٠.
(٩) شرحه ص ٤٨٢.
(١٠) البغدادي ص ٢٥١.
(١١) المقدسي ـ البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٤.

فلاحين[١]، ولذا حاولوا حل مشكلة الاراضي بنزعها من الملاكين الكبار وتوزيعها على الفلاحين. فمازيار الذي «أظهر دين المحمرة بجرجان»[٢] والذي كان على صلة قوية ببابك «أمراً أكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب أموالهم[٣]».

وللبابكية غاية سياسية رئيسية وهي ضرب السلطان العربي والدين الإسلامي إذ جاء في الوصية المنسوبة إلى جاويدان ان بابك «سيبلغ بنفسه وبكم (الخرمية) حداً لم يبلغه أحد ولا يبلغه أحد بعده، وأنه يملك الأرض ويقتل الجبابرة ويرد المزدكية، ويعز بـه ذليلكم ويرتفع به وضيعكم»[٤]. وجاء في محاكمة الأفشين أن أخاه كتب إلى أخي مازيار «أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك» ثم يبين كيفية القضاء على العرب حتى «يعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم»[٥]. ويرى إبن الجوزي أن غاية البابكية هي «إبطال الدين الإسلامي»[٦] ويرى المقريزي أن حركة بابك ـ كالثورات الدينية السابقة ـ كانت مدفوعة بالحقد على الإسلام وسلطانه وأنها ترمي «كيد الإسلام بالمحاربة»[٧]. ويقول المسعودي إن رأس بابك طيف به على مدن خراسان «لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره.. وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها»[٨]. ويقول المذهبي «وكان بابك أراد أن يقيم ملة المجوس»[٩]. ويبين المسعودي انه ناظر الخرمية ولاحظ أنهم ينتظرون «في المستقبل من الزمان الآتي عود الملك فيهم»[١٠].

وكان عداء الخرمية للإسلام عداء سياسياً لأنه الدين الذي أذهب سلطانهم ونقل الملك إلى العرب. أما نظرتهم الدينية لغيرهم ففيها كثير من التسامح. فيذكر البغدادي وجود مساجد للمسلمين في جبالهم[١١]. ويقول المقدسي الذي زارهم وناقشهم «ويزعمون أن

---

(١) انظر البغدادي ص ٢٥٢.

(٢) شرحه.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٣٤٩، العيون ص ٥٠.

(٤) الفهرست ص ٤٨٢.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٧.

(٦) المنتظم ج ٥ ص ١١٠.

(٧) المقريزي ـ الخطط ج ١ ص ١٩٠ ـ ١.

(٨) المسعودي ج ٤ ص ١٣.

(٩) الذهبي ج ١ ص ١٠٤.

(١٠) التنبيه والاشراف ص ٣٠٦ وفيما ذكرنا رد على خطأ بندلي جوزي حين يقول (ص ٦٨) أن الغرض لم يكن مقاومة الاسلام وذويه ولا مقاومة العرب كأمة فاتحة مغتصبة كما كانت الحال في اكثر الثورات السابقة في بلاد العجم، بل محاربة ذلك النظام الاجتماعي الذي كانت تئن تحته الطبقات السفلى من جميع الأمم التي كانت تتألف منها وقتئذ دولة بني العباس حتى الأمة العربية.

(١١) البغدادي ص ٢٥٢.

الرسل كلهم على اختلاف أديانهم وشرائعهم يحصلون على روح واحد وأن الوحي لا ينقطع أبداً وكل ذي دين مصيب عندهم إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب، ولا يرون تهجّيه والتخطي إليه بالمكروه ما لم يرد كيد ملتهم وخسف مذهبهم»(١).

٣ ـ ولننظر الآن في أتباع بابك وحلفائه والظروف التي ساعدته.

كانت جبال أذربيجان وأرّان مهد الحركة البابكية، ومركزها البذ(٢). ويبين ياقوت أنها كانت مهد الحركات الاباحية منذ محنة مزدك إذ لجأ إليها بعض أصحابه واستمروا على دعاياتهم(٣). وقد بدأ بابك بضم كافة أجزاء أذربيجان إلى دعوته(٤). ثم أخذ ينشر الدعوة في المقاطعات المجاورة، فلاقت دعوته نجاحاً باهراً في منطقة الجبال. يذكر الطبري أنه في سنة ٢١٨هـ «دخل جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذق في دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا في عمل همذان»(٥). ويذكر البغدادي أنه دخل في الخرمية «جماعة من أكراد الجبل مع أكراد الجبل المعروف بالبدّين (البذ)»(٦).

وانتشرت الدعوة في طبرستان وجرجان حيث كان المازيارية «أتباع مازيار الذي أظهر دين المحمرة بجرجان»(٧). ودخل فيها قسم كبير من الديلم(٨).

ويبين المسعودي أن الخرمية انتشرت في الجبال وفي أذربيجان وأرمينية وحتى «في خراسان وسائر أرض الأعاجم»(٩).

ومما يميز هذه الحركة عما سبقها اشتراك بعض الدهاقين والأمراء الفرس مع السواد في الثورة ضد العباسيين. فالمازيار أصبهبذ طبرستان دخل في الدعوة وكان «يكاتب بابك ويحرضه ويعرض عليه النصرة»(١٠). ومنكجور الفرغاني خال ولد الأفشين وخليفته على أذربيجان خلع هناك «وجمع إليه أصحاب بابك»(١١) والأفشين نفسه اتهم بممالأة بابك وبأنه كان يرى رأيه(١٢). وهذه خطوة هامة في تطور الوعي الإيراني.

وحاول بابك تقوية مركزه بالوسائل السياسية فيبين اليعقوبي أن «عصمة الكردي

---

(١) المقدسي ج ٤ ص ٢٤.

(٢) البذ كورة من أذربيجان وآران.

(٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٥٦٩.

(٤) الدينوري ص ٣٩٧.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٥، العيون ص ٢، ابن العبري ص ٢٤١.

(٦) البغدادي ص ٢٦٦.

(٧) شرحه ص ٢٥٢.

(٨) شرحه ص ٢٦٨.

(٩) التنبيه ص ٣٠٦.

(١٠) الطبري ج ١٠ ص ٣٤٩.

(١١) اليعقوبي ج ٣ ص ٢٠٣.

(١٢) البغدادي ص ٢٦٨، المنتظم ج ٥ ص ١١١ وانظر الطبري ج ١٠ ص ٣٦٧.

صاحب مرند» (وهي شمال بحيرة أرمية) وأمير بعض القبائل الكردية في أذربيجان دخل في طاعة بابك[1]. وسعى لاستمالة الأرمن، فلم ينجح إلا مع فئة صغيرة منهم في مقاطعة سيونيا انضمت إليه ووثقت الروابط معه بزواجه من إبنة أميرهم[2].

وتشير المصادر البيزنطية إلى مفاوضات سرية بين بابك وبين البيزنطيين ويظهر أنها كانت لضمان المساعدة وقت الضرورة. وفي سنة ٢١٦هـ حاربت فئة كبيرة من أصحاب بابك مع البيزنطيين[3]. ولما هزمت فرقة من أتباع بابك سنة ٢١٨هـ، هرب الناجون إلى بلاد الروم[4]. ولما ضاق الحال ببابك في سنيه الأخيرة أقنع إمبراطور البيزنطيين بالهجوم على الحدود الإسلامية ليخفف عنه الضغط. ولما مزقت جيوشه وهرب، أراد أن يذهب إلى بلاد الروم[5]. كما أن قسماً من جيشه التجأ إلى الأراضي البيزنطية بعد هزيمته. كل هذا يدل على وجود علاقة قوية بين بابك والبيزنطيين.

ولدينا إشارات تعطينا فكرة عن ضخامة جيش بابك. فلما انتصر إسحاق بن إبراهيم على البابكية سنة ٢١٨هـ قتل منهم ستين ألفاً[6]. وكان عدد الفرسان في جيش بابك، حسب رواية ابن العبري، عشرين ألفاً[7]. ويقول البغدادي إنه «اجتمع مع بابك من أهل (البدين) وممن انضم إليهم من الديلم مقدار ثلثمائة ألف رجل»[8]. ويقدر المسعودي المحمرة من الخرمية بمائتي ألف[9] ولعله أدق من البغدادي. وعلينا أن نلاحظ أن بعض قطاع الطرق والميالين للنهب انضموا إلى بابك طمعاً في الفوائد المادية[10].

٤ ـ **فشل الحركة**: بدأ بابك حركته سنة ٢٠١هـ[11] واستمر في نجاح مطرد حتى سنة ٢١٨هـ، وتمكن في هذه الفترة أن يرد جيوش المأمون وأن يهزم أربعة من قواده[12]. وبث الرعب في قلوب الناس والجند حتى قال أحد قواد المأمون: «ليس لنا في قتال هؤلاء (أي البابكية) بخت، إنما نخشى في قتال المسلمين»[13].

---

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٩.

(٢) بندلي جوزي ص ٦١

(٣) شرحه ص ٦٠، C. M. H. IV p. 129-30.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٥، ابن العبري ص ٢٤١.

(٥) العيون ص ٩، كذلك الطبري.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٣٤٩، ابن العبري ص ٢٤١، العيون.

(٧) ابن العبري ص ٢٤١.

(٨) البغدادي ص ٢٦٨.

(٩) التنبيه ص ٣٠٧.

(١٠) ابن العبري ص ٢٤١.

(١١) ورواية أخرى أضعف تجعلها سنة ٢٠٠ هـ أنظر التنبيه ص ٣٠٦.

(١٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٠.

(١٣) شرحه ج ٣ ص ١٨٩.

وكانت الظروف مؤاتية لبابك في تلك الفترة. فقد أنهكت قوات العباسيين بالحرب الأهلية، وكانوا مشغولين بالثورات في مصر وسورية والعراق وبالحرب مع البيزنطيين، فكانت هذه الأوضاع عاملاً أساسياً في نجاح البابكية العسكري. ثم أن اضطراب الوضع في أذربيجان وعدم ولاء الولاة هناك ساعد البابكية فقد خالف حاتم بن هرثمة بأذربيجان عندما سمع بموت أبيه (هرثمة بن أعين) «وكاتب بابك والخرمية وهوّن أمر المسلمين عندهم»، فشجع بابك على الإسراع في حركته(١).

وكان أصحاب بابك أدرى بمسالك الجبال وأعرف بالخطط اللازمة لها، فكانوا يحصرون أعداءهم في المضايق وينقضون عليهم(٢). كما ركز بابك جهوده على قطع خطوط تموين العدو ونهب قوافل ميرته حتى أنه أقحط عسكر الأفشين سنة ٢٢٠هـ عندما نهب قافلتين كبيرتين للميرة أرسلتا إليه. وفوق ذلك خرب بابك حصون أذربيجان التابعة للعباسيين فأضعف بذلك دفاعهم. وأخيراً نفهم من اليعقوبي أن بعض قواد المأمون لم يكونوا مخلصين له(٣).

وبمجيء المعتصم دخل النزاع مع البابكية مرحلة جديدة. إذ هدأت البلاد، وركز الخليفة الجديد، وهو قائد محنك، جهوده على حرب بابك وأرسل الفرقة تلو الأخرى ضده. كما أن العباسيين اكتسبوا بعض الخبرة بأساليب بابك. فلا غرابة أن انعكست الآية. ففي سنة ٢١٨هـ تمكن إسحاق بن إبراهيم والي الجبال من تمزيق شمل الخرمية في همذان (مركزهم في تلك المنطقة)، فقتل قسماً منهم وهرب الباقون(٤). فانحصرت ساحة القتال في أذربيجان معقل البابكية الأصلي.

ثم أرسل المعتصم سنة ٢٢٠هـ أعظم قواده، الأفشين حيدر بن كلوس ضد بابك واهتم بتقويته وبإرسال المؤن بانتظام إليه حتى أنه أرسل إليه سنة ٢٢٢هـ ثلاثين مليون درهم عطاء للجند وللنفقات. ويمكننا أخذ فكرة عن ضخامة النفقات التي كان ينفقها الخليفة على حرب بابك من أنه «كان يجزي الأفشين في مقامه بإزاء بابك سوى الأرزاق والإنزال والمعاون في كل يوم يركب فيه عشرة الآف درهم وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة الآف درهم»(٥). ويروي صاحب العيون «تذاكر الكتاب ما أخرج المعتصم في حرب بابك الخرمي إلى أن قتله فقالوا لا يتهيأ لنا حصره عداً بل ربما كان خمسمائة وقر من الدراهم

---

(١) شرحه.

(٢) شرحه.ص ١٨٩ ـ ١٩١.

(٣) المسعودي ج ٤ ص ٩.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٥.

(٥) شرحه ج ١٠ ص ٢٣٢.

أو أكثر»[1]. ويبين الذهبي أنه أنفق سنة ٢٢٢هـ مليون درهم في حرب بابك[3].

ورتب المعتصم البريد وزاد في كفايته ليتجنب فساد الطريق بالثلج حتى صارت الرسائل تصل من عسكر الأفشين إلى سامراء في أربعة أيام أو أقل[3]. واستعمل الحمام لنقل الأخبار لأول مرة في هذه الحرب.

ويظهر من قراءة الطبري أن الخليفة كان يشرف على سير المعارك من سامراء ويضع بعض الخطط بنفسه.

إتخذ الأفشين مقره الأول في برزند (من نواحي تفليس) و«ورمّم الحصون فيما بين برزند وأردبيل.. ووضع الحاميات فيها»[4]. ولكن الطبري ينسب ذلك إلى المعتصم نفسه، إذ وجه أبا سعيد محمد بن يوسف إلى أردبيل «وأمره أن يبني الحصون التي خربها بابك بين زنجان وأردبيل ففعل»[5]. وبذلك صار للعباسيين سلسلة من الحصون أمام قوات الخرمية. ثم اهتم قواد الخليفة بتأمين المواصلات لإيصال الميرة بسلام إلى جيش الأفشين[6] فنجحوا في ذلك إلى حد كبير. وحاول الأفشين أن يضعف جاسوسية خصمه ويقوي جاسوسيته فأخذ يكرم من يظفر به من جواسيس بابك يضاعف لهم عطاءهم ويسخرهم في التجسس له[7].

وفي سنة ٢٢٠هـ إضطر الأفشين خصمه بعد معركة (أرشق) إلى التراجع إلى (البذّ) والتحصن بها. ولم يتسرع في تقدمه على البذ بل «جعل يزحف قليلاً قليلاً على خلاف زحفه قبل ذلك إلى المنازل التي كان ينزلها». وهذا دليل على فهم الأفشين لجغرافية منطقة الحرب وعلى إدراكه خطر التسرع، فصار يتأنى في كل حركة يقوم بها. ثم جعل مركزه الجديد في «روذ الروذ»، في محل حصين إذ خندق في ثلاثة جبال مطلة على البذ[8]، وبنى سوراً حول معسكره، وكمن الكمناء[9].

وبأمر من المعتصم جعل الأفشين الجيش نوائب، البعض معسكرون والبعض على ظهور الخيل ليكون على استعداد دائم وذلك مخافة البيات[10]. ومن هذا تظهر عبقرية

---

(١) شرحه ج ١١ ص ٢٧.

(٢) الذهبي ج ١ ص ١٠٤.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٢٣٤.

(٤) العيون ص ١٠.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٢٠٨.

(٦) يفصل الطبري ذلك ج ١٠ ص ٢٠٧ ـ ٨.

(٧) شرحه ج ١١ ص ١٠، العيون ص ٣٨ ـ ٩.

(٨) الطبري ج ١٠ ص ٢٢٧ ـ ٩.

(٩) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٩.

(١٠) الطبري ج ١٠ ص ٢١٨.

المعتصم الحربية وفهمه لمقتضيات حرب الجبال. وبقي الأفشين راكداً أمام البذ مدة طويلة حتى ضج الناس(١).

وأخيراً كان الزحف العام على البذ يوم الخميس ٩ رمضان سنة ٢٢٢هـ(٢). وفتحت المدينة ودخلها المسلمون لعشر بقين من رمضان(٣).

وقد جرت في الأيام الأخيرة مفاوضات بين الأفشين وبابك ولكنها لم تفلح. وبعد سقوط البذ هرب بابك إلى أرمينية. فكتب الأفشين إلى بطارقتها بسد الطرق عليه، وتقول المصادر أن البطريق سهل بن سنباط آمن بابك وغدر به، بينما يذكر الدينوري(٤) أنه أسره وسلمه إلى الأفشين، وكوفيء سهل بمليون درهم ومنطقة ذهب مرصعة بالجواهر وبتاج البطرقة(٥).

وجيء ببابك إلى سامراء سنة ٢٢٢ هـ وأنزل قصر الأفشين بالمطيرة. وفي جوف الليل «ذهب إليه أحمد بن أبي داوود متنكراً فرآه وكلمه، ثم رجع إلى المعتصم فوصفه له، فلم يصبر المعتصم حتى ركب إليه.. فدخل إليه متنكراً ونظر إليه وتأمله وبابك لا يعرفه»(٦). وفي اليوم التالي قتل بابك وصلب.

وتختلف الروايات في بيان عدد ضحايا حرب بابك. فيقدر الطبري عدد من قتله بابك في عشرين سنة بمائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان(٧)، ويبين بأن عدد الأسيرات المسلمات اللواتي استنقذن من يده بلغ سبعة الآف وستمائة(٨). ويقول المسعودي إن «من أدركه الإحصاء ممن قتله بابك في إثنين وعشرين سنة من جيوش المأمون والمعتصم من الأمراء والقواد وغيرهم من سائر طبقات الناس في القول المقلل خمسمائة ألف وقيل أكثر من ذلك وأن الإحصاء لا يحيط به كثرة»(٩). ولعل تقدير الطبري أقرب إلى الصحة لأنه كان يطلع على التقارير الرسمية.

ب ـ ثورة الزط

وهؤلاء يكتنفهم بعض الغموض. فيبين البلاذري أن موطنهم الأصلي هو منطقة السند

---

(١) شرحه ج ١٠ ص ٣٢٨.
(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.
(٣) الطبري ج ١٠ ص ٣١٨.
(٤) الدينوري ص ٤٠٠.
(٥) العيون ص ٢٥.
(٦) الطبري ج ١٠ ص ٣٣٢.
(٧) الطبري ج ١٠ ص ٣٣٣.
(٨) شرحه ج ١٠ ص ٣٣٤.
(٩) التنبيه ص ٣٠٥.

من بلاد الهند، وأنهم كانوا يربون الجواميس، فأتى بهم الحجاج وأسكنهم في جنوب العراق بأسافل كسكر ليحفظوا الأمن في منطقة البطيحة خاصة وأن الأسود تخاف من الجواميس(١).

أما المسعودي فيروي بأنه وقع غلاء في ناحية الهند التي يقطنها الزط، فهربوا من المجاعة وتنقلوا في بلاد كرمان وفارس وكور الأهواز وأخيراً جاءوا إلى البطيحة(٢).

ولعلنا نستنتج من هذا أن الزط من سكان السند، وأنهم كانوا يربون الجواميس في أهوارها، ثم تركوا بلادهم وهاجروا غرباً لحدوث مجاعة في بلادهم. فسمح لهم الحجاج بإستيطان منطقة الأهوار جنوب العراق ليستفيد منهم في استغلال تلك المنطقة(٣).

ويظهر ان وضعهم المعاشي كان واطئاً جداً. فأخذوا يقومون ببعض أعمال اللصوصية الصغيرة «بأن يسألوا الشيء الطفيف، ويصيبوا غرة من أهل السفينة فيتناولوا منها ما يمكنهم اختلاسه»(٤). ولكنهم زاد عبثهم في أيام المأمون حتى صاروا خطراً على المواصلات والأمن. ويفسر البلاذري ذلك «بأنه ضوى إليهم قوم من أباق العبيد، وموالي بأهله.. وغيرهم فشجعوهم على قطع الطريق ومبارزة السلطان بالمعصية»(٥). وهذا يدعو إلى الظن بأنهم كانوا يشاركون العبيد الهاربين (الآباق) في التذمر من سوء الوضع المعاشي، وأن ذلك التذمر كان سبب ثورتهم ولذلك نجدهم «احتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة» بعد ثورتهم(٦).

وعاث الزط في جنوب العراق وغلبوا على الطريق بين واسط والبصرة وقطعوا طريق البصرة ـ بغداد «وانقطع عن بغداد ما كان يحمل إليها من البصرة في السفن»(٧).

فلما ولي المعتصم أرسل إليهم قائده عجيف بن عنبسة سنة ٢١٩هـ، فحصرهم في البطيحة بأن سد أفواه الأنهار التي «كانوا يدخلون منها ويخرجون» ثم حاربهم فأسر خمسمائة وقتل ثلاثمائة رجل، واستمر يشدد الخناق عليهم خمسة عشر يوماً حتى طلبوا الأمان في ذي الحجة سنة ٢١٩هـ على دمائهم وأموالهم، فأجابهم إلى ذلك(٨). ويبين الطبري أن عددهم كان فيما ذكر سبعة وعشرين ألفاً، المقاتلة منهم إثنا عشر ألفاً.

---

(١) البلاذري ص ٣٨٣، Duri-Studies p. 22.

(٢) التنبيه ص ٣٠٧

(٣) يشير البلاذري الى وجود جماعة من الزط (جاء بهم الساسانيون من السند) في منطقة البصرة بعد الفتح، انظر ص ٣٨١ ـ ٢.

(٤) البلاذري ص ٣٨٣

(٥) شرحه

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٦.

(٧) البلاذري ص ٣٨٣.

(٨) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٦.

ثورة المازيار

المازيار أو ماه يزديار[1] بن قارن بن ونداهرز هو آخر الأمراء القارنيين بطبرستان. أخرجه شهريار بن شيرويه من طبرستان فالتجأ إلى المأمون وأسلم وتسمى بمحمد. وفي سنة ٢١٠هـ مات شهريار فرجع مازيار إلى طبرستان و استرجع الجبل، ثم ولاه المأمون على طبرستان ورويان ودنباوند ولقبه الأصبهبذ[2].

وكان المازيار طموحاً، فوطد حكمه في طبرستان، ويظهر إنه أراد أن ينفصل. ويفهم من الطبري وصاحب العيون أنه كان تابعاً لولاية خراسان التي كانت لبني طاهر، وإنه كان يكره آل طاهر. فاستغل الخصومة بين الطاهريين وبين الأفشين ليرفع راية الخلاف. إذ أن الأفشين كان يطمع بولاية خراسان، «وكان.. يسمع من المعتصم أحياناً كلاماً يدل على أنه كان يريد عزل آل طاهر من خراسان» فكاتب المازيار سراً وشجعه على الخلاف آملاً أن لا يستطيع آل طاهر إخضاعه فيرسله المعتصم ضده وعندئذ يتخذ ذلك ذريعة لانتزاع خراسان من الطاهريين[3].

ولكن لدينا ما يدل على أن الثورة لم تكن بهذه البساطة، وأن لحركة المازيار ولصلته بالأفشين معنى بعيداً.

فيفهم من الطبري أن المازيار كان يكاتب بابك ويعرض عليه النصرة[3]. ويقول المسعودي أن المازيار «أقر على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس»[5].

ويظهر أن المازيار كان من الخرمية ذلك المذهب الذي صار يمثل ثورة الوعي الإيراني ضد سلطان العباسيين وضد المجتمع الذي أقاموه. أما سلامه فكان سطحياً، إذ يقول البلاذري عنه إنه «كفر وغدر»[6]. ويبين ابن إسفنديار أن المازيار كان يمجد مزدك وبابك والمجوس الآخرين الذين أرادوا محو الإسلام[7]. ويصرح البغدادي بأن المازيار كان خرمياً من المحمرة[8].

وتدل تدابير المازيار بعد ثورته على نزعة الخرمية الإشتراكية إذ أراد أخذ الأراضي

---

(١) البلاذري ص ٣٤٧.

(٢) مينورسكي، دائرة المعارف الاسلامية ج ٣ ص ٤٢٥ مادة «مازيار».

(٣) انظر الطبري ج ١٠ ص ٣٤٨ ـ ٩، العيون ص ٤٨ ـ ٥٠.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٣٤٩.

(٥) المسعودي ج ٤ ص ١٦.

(٦) البلاذري ص ٣٤٧.

(٧) مينورسكي دائرة المعارف ج ٣ ص ٤٢٦.

(٨) الفرق بين الفرق ص ٢٥٢.

من الملاكين الكبار وتوزيعها على الفلاحين(1). وكان لنـزع الأراضي من الملاكين الكبـار معنى سياسي بالإضافة إلى المعنى الإقتصادي. فقد كان المازيار يعرف بأن قسماً كبيـراً من الملاكين كانوا من العرب ومواليهم(2) وإن «هواهم مع العرب والمسودة»(3). ولذلك نرى سرخستان عامله على ساري وعضده الأيمن يجمع مائتين وستين من أبناء القواد ويسلمهم إلى الفلاحين كأناس خطرين فيقتلونهم حسب اقتراحه. وأغـرى المازيـار الفلاحين بقتـل أرباب الضياع قائلاً لهم «إني قد أبحتكم منازل أرباب الضياع وحرمهم... فاقتلوا أرباب الضياع جميعهم قبل ذلك ثم حوزوا ما وهبت لكم من المنازل والحرم»(4).

ومن هذا يتضح أن ثورة المازيار كانت حركة فارسية سياسية ترمي إلى التخلص من سلطان العرب، وإنها اتخذت المذهب الخرمي الثوري شعارها لتضم قوى الطبقات العامة ضد بني العباس. وقد انتبه الخليفة إلى مغزاهـا حين ضبط عبـدالله بن طاهر رسـالة من الأفشين الى المازيار وبعد أن حصل هو على الرسائل الأخرى من المازيار نفسه(5).

وتعاون عبدالله بن طاهر مع المعتصم للقضاء على هذه الثورة. فأرسل عمه حسن بن حسين ضد المازيار ليهاجم من جهة جرجان، وحيان بن جبلة مع أربعة آلاف فارس من جهة قـومس على جبل شـروين. وبنفس الوقت أرسل المعتصم قـوات كبيرة بقيـادة محمد بن إبراهيم الذي دخل رويان (غرب طبرستان) ومنصور بن حسن والي دنباوند من جهة الري، وأبو السباج من جهة لازر ودنباوند. ثم استغل المهاجمون الخصـومة الداخليـة لمازيـار، فذهب قارن بن شهريار إلى حيان الذي عبر على ساري وبدأ يفاوض (أخا المازيار). وبنفس الوقت تفرق جيش سرخستان وأفسح المجال لحسن بن حسين للتقدم. وخضع قوهيار الذي وعد بمحل مازيار لحسن. أما المازيار، فقد فقد شجاعته لما رأى جيوش العباسيين تحيط به وأتباعه خانوه، ووثق بأمان قوهيار الذي سلمه إلى حسن بن حسين. فأرسل إلى سامـراء حيث ضرب أربعمائة سوط فمات منها وصلب بجنب بابك سنة ٢٢٤هـ(6).

نكبة الأفشين:

وهذه قضية سياسية البست ثوباً دينياً. وهي ترجع إلى تعاظم نفوذ الأفشين وطموحه وعداء بعض رجال الدولة له.

أما تفاصيلها ففيها ارتباك، وخير مصادرنا هو الطبري، ثم صاحب العيون الذي يكاد

---

(١) العيون ص ٥٠، الطبري ج ١٠ ص ٣٤٩.

(٢) مينورسكي ـ دائرة المعارف ج ٣ ص ٤١٦.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٣٥٣.

(٤) شرحه.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٠ ـ ١، العيون ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٦) مينورسكي ـ دائرة المعـارف الاسلاميـة ج ٣ ص ٤٣٦ ـ ٧، الذهبي ج ١ ص ١٠٥، الطبري ج ١٠ ص ٣٦٠، العيون ص ٤٩ ـ ٦٠.

يوافقه حرفياً. وسنورد القصة كما نستخلصها من مجموع الروايات، مع الإشارة إلى نقاط الخلاف.

لم ينكب المعتصم قائده العظيم على أثر تهمة واحدة، بل تأنى كثيراً حتى توافرت لديه بوادر عديدة أقنعته بضرورة التخلص منه.

فقد بدأت شكوك الخليفة حين أخبره عبدالله بن طاهر بأن الأفشين خلال أيامه الأخيرة في حرب بابك كان لا تأتيه هدية ولا تجتمع عنده كمية من الدنانير إلا أرسلها سراً إلى موطنه الأصلي أشروسنة، وعندئذ كتب إلى إبن طاهر «يأمر بتعريف جميع ما يوجه به الأفشين من الهدايا إلى أشروسنة»[1].

ثم اطلع المعتصم على وجود صلة بين الأفشين وبين المازيار الثائر، وحصل على رسائل الأفشين نفسها، فزادت شكوكه[2].

وفي السنة التالية (٢٢٥هـ) ثار منكجور الفرغاني خال ولد الأفشين وخليفته على أذربيجان. وذلك أن صاحب البريد كتب إلى الخليفة يبين أن منكجور إحتجن أموالاً عظيمة في قرية بابك وفي بعض منازله فلم يعترف بذلك مكنجور، ولما أراد المعتصم عزله ثار. وعندئذ طلب من الأفشين إحضار عامله، فوجه الأفشين جيشاً بقيادة أبي الساج لتأديب الثائر[3]. «ثم بلغ المعتصم أن منكجور إنما خلع بأمر الأفشين وإنما وجه بابي الساج مدداً له»[4].

وتغيرت نية المعتصم، وأحس الأفشين بذلك، ففكر بالهرب عن طريق الموصل والزاب إلى أرمينية والخزر إلى بلاد الترك ثم إلى أشروسنة فلم يمكنه تنفيذ الفكرة. ثم فكر بعمل وليمة للمعتصم ولقواده أو لقواده على الأقل لسمهم، والهرب بعدئذ إلى أشروسنة «وثم يستميل الخزر على أهل الإسلام». فاستغرق التحضير وقتاً طويلاً، وانكشفت مؤامرته ونمي الخبر إلى المعتصم، فقبض عليه[5] وسجنه في رابع ذي القعدة سنة ٢٢٥هـ[6].

---

(١) الطبري ١٠ ص ٣٦٣ ـ ٤، العيون ص ٦٢ ـ ٣.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٠ ـ ١، العيون ص ٥٩ ـ ٦٠ ويعزو ابن العبري حبس الأفشين الى هذه المراسلة ص ٢٤٢.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٢.

(٤) اليعقوبي ج ٣ ص ٢٠٣ وهو يرى أن هذا هو السبب المؤدي الى حبس الأفشين.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٤ ـ ٥، العيون ص ٦٣ ـ ٤.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٣ وينفرد الدينوري في أنه يعزو سبب نكبة الأفشين الى خصومته مع أحمد بن أبي داود قاضي القضاة. فأشار احمد على المعتصم! نكاية بالأفشين، بتقسيم الجيش الى قسمين، نصف مع الأفشين ونصف مع أشناس، ففعل المعتصم ذلك «فوجد الأفشين وطال حزنه واشتد حقده». واستمر أحمد يسعى ضد الأفشين، فخوف المعتصم من تعاظم سلطته وذكره بما عمله المنصور مع أبي مسلم، فقبض المعتصم عليه وقتله وبعد ذلك «زعموا انهم كشفوا عنه بوجدوه غير مختون» [ص ٤٠١] ومع أننا نقر وجود عداء بين الافشين وأحمد، وخطر سلطة الأفشين، إلا أن الدينوري يهمل ذكر الأمور التي استغلها أحمد للوشاية بالأفشين.

ثم عقد المعتصم محكمة عليا لمناظرة الأفشين يوم ٥ ذي القعدة وكانت تتألف من الوزير محمد بن عبد الملك الزيات كرئيس ومن أحمد بن أبي داوود وإسحاق ابن إبراهيم. وقد دون الطبري وصاحب العيون محضر الجلسة، وهو خال من كل إشارة إلى المؤامرة الأخيرة، وإنما هي مجموعة تهم أريد بها إثبات أن الأفشين لم يسلم حقيقة، وأنه كان يسعى للقضاء على الإسلام وعلى سلطان العرب. ولعل غرض المعتصم من المحاكمة كان منع تسرب النفرة والشك إلى القواد الآخرين.

وها نحن أولاء نورد مجمل الجلسة.

ت ـ جلد الأفشين مؤذناً وإماماً بنيا مسجدا في أشروسنة. ف ـ لأنهما حولا بيت أصنام إلى مسجد. وهذا ينافي الإتفاق مع ملوك الصغد بترك كل قوم ودينهم.

ت ـ وجد عنده كتاب مزين بالذهب والجوهر والديباج فيه الكفر بالله تعالى. ف ـ هو كتاب ورثته عن أبي فيه آداب الملوك وهو دين القوم الذي هو اليوم كفر، فكنت إستمتع بالأدب وأترك ما سوى ذلك.

ت ـ [الموبذ]: الأفشين يأكل المخنوقة ويحملني على أكلها ويزعم أنها أرطب لحماً من المذبوحة وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء يضرب وسطها بالسيف ثم يمشي بين نصفيها ويأكل لحمها.

وقال لي يوماً: إني دخلت لهؤلاء القوم في كل شيءأكرههحتى أكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست النعل. غير أني إلى هذه الغاية لم تسقط عني شعرة (يعني إنه لم يختتن).

ف ـ يونج الموبذ على قلة وفائه إذ «كنت أدخلك إليّ وأبثك سري **وأخبرك بالأعجمية وميلي إليها وإلى أهلها**».

ت ـ [المزبان بن تركش أحد ملوك الصغد] إن أهل أشروسنة يكتبون إلى الأفشين «إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان». ف ـ يعترف بذلك ويقول «كانت هذه عادة القوم لأبي وجدي ولي قبل أن أدخل الإسلام، فكرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد عليّ طاعتهم».

ت ـ [المازيار] ـ كتب أخو الأفشين إلى قوهيار أخي المازيار «أنه لم يكن ينصر **هذا الدين الأبيض** (أي المجوسية) غيري وغيرك وغير بابك، فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه. فإن خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيره، ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس. فإن وجهت إليك لم **يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب والمغاربة والأتراك**. والعربي بمنزلة الكلب أطرح له كسرة ثم أضرب رأسه بالدبوس. وهؤلاء الذباب يعني المغاربة إنما هم أكلة رأس. وأولاد الشياطين يعني الأتراك فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم **ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم**».

ت ـ إنه غير مختتن.

وبعد إيراد هذه التهم قال أحمد بن أبي داوود «الآن قد بان لكم أمره» وبذلك ختمت الجلسة، وأرجع الأفشين إلى السجن(١).

وسجن الأفشين في حبس بني خصيصاً له داخل الجوسق، وكان «مرتفعاً شبيهاً بالمنارة، وجعل في وسطها قدر مجلسه، وكان الرجال ينوبون تحتها كما يدور»(٢). ثم أماته المعتصم جوعاً إذ «أمر بمنع الطعام منه إلا القليل فكان يدفع إليه في كل يوم رغيف خبز حتى مات» سنة ٢٢٦(٣).

يظهر من محاكمة الأفشين إنه كان شديد الكره للعرب. ويؤكد بعض المؤرخين ذلك(٤). ويذكر إبن خلكان شدة حسده لأبي دلف العجلي «للعربية والشجاعة»(٥). وكان الأفشين إيرانياً ينتسب إلى ملوك الفرس القدماء(٦). وتتضح فارسيته من رسالته إلى المازيار وفيها يعتبر العرب والأتراك أعداءه.

وتدل المحاكمة أيضاً على أن إسلامه كان سطحياً وإنه كان يتعصب للدين الأبيض أو المجوسية وأنه أراد مجد فارس والقضاء على سلطان الإسلام والعرب. وأنا أرجح إنه كان يميل للخرمية(٧).

ثورات أخرى

وفي سنة ٢١٩هـ ثار محمد بن القاسم بن علي. وكان ورعاً زاهدا يقطن الكوفة، ثم خاف على نفسه من المعتصم فهرب إلى خراسان(٨) وكان «يذهب للقول بالعدل والتوحيد ويرى رأي الزيدية الجارودية»(٩) أي أنه يرى أن الخلافة «شورى في ولد الحسن وولد الحسين، فمن خرج منهم يدعو إلى سبيل ربه وكان عالماً فاضلاً فهو الإمام»(١٠).

---

(١) انظر نص الجلسة في الطبري ج ١٠ ص ٣٦٥ ـ ٧، العيون ص ٦٣ ـ ٧ وقد اخذ الطبري المحضر من شاهد عيان وهو هارون بن عيسى بن المنصور انظر ج ١٠ ص ٣٦٥.

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٥.

(٣) شرحه ج ١١ ص ٤.

(٤) انظر براون ج ١ ص ٣٣١.

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢.

(٦) براون ج ١ ص ٣٣١.

(٧) انظر المسعودي ج ٤ ص ١٦. ويظهر لي انه كان بوذياً او متأثراً بالبوذية في صباه لانه وجد في داره «تمثال انسان من خشب عليه حلية كثيرة من جوهر» انظر الطبري ج ١١ ص ٤، المسعودي ج ٤ ص ١٦، ابن العبري ص ٢٤٢.

(٨) المسعودي ج ٤ ص ٨ .

(٩) الأصبهاني ص ٣٧٦.

(١٠) الأشعري ج ١ ص ٦٧.

وتنقل محمد في عدة كور من خراسان كمرو وسرخس والطالقان أبيورد وكان يدعو إلى الرضا من آل محمد فتبعه «خلق كثير». ولكن حركته لم تكن منظمة ولا خطرة، فتمكن عبدالله بن طاهر أن يقبض عليه وأرسله إلى سامراء حيث سجن. ولا ندري تماماً كيف كانت خاتمة حياته[1].

وقد تكونت فرقة زيدية خاصة تعتقد بإمامته، كانت موجودة سنة ٣٣٢هـ «ومنهم خلق كثير يزعمون أن محمداً لم يمت وإنه حي يرزق وإنه يخرج فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً»[2].

وثار جعفر بن مهرجيش الكردي بين الموصل وأذربيجان وأرمينية، ويظهر أن ثورته كانت واسعة، ولكنها أخمدت[3].

وفي سنة ٢٢٧هـ ثار أبو حرب المبرقع اليماني في فلسطين لأسباب شخصية. وألبس وجهه برقعاً لئلا يعرف، وأخذ يحرض الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «ويذكر السلطان فيعيبه». وبث دعوته فاستجاب له «قوم من الحراثين وأهل القرى وقال الذين استجابوا له هذا هو السفياني»[4] ولما كثر أتباعه من العامة دعا أهل البيوتات «فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية» قوم من أهل دمشق[5]. وبلغ عدد أتباعه ما بين خمسين ومائة ألف رجل[6]. وأرسل إليه المعتصم أحد قواده فطاوله حتى وقت الحصاد فتفرق أصحابه إلى مزارعهم وبقي في ألفين فهاجمه قائد المعتصم وأسره وجاء به إلى سامراء وكان المعتصم في مرضه الأخير فسجن في المطبق[7].

وفي نفس السنة ثارت دمشق وطردت واليها الجديد، ولكنه أخمد الثورة بعد أن جاءته نجدة من العراق. وقد ذهب حوالي الألف من أهل دمشق ضحية الثورة[8].

المعتصم والبيزنطيون

أمر المأمون سنة ٢١٧هـ ـ ٨٣٢م بتحصين مدينة طوانة Tyana لوضع حامية فيها وأرسل إبنه العباس في مايو سنة ٨٣٣م للإشراف على البناء، ثم توفي المأمون، فتوقفت الحرب مع البيزنطيين لانشغال المعتصم بمشاكله الداخلية، ولعله أخطأ حين أمر بهدم «ما كان أمر المأمون ببنائه بطوانة» وحمل ما قدر عليه من الأسلحة والمؤن منها وأحرق

---

(١) انظر المسعودي ج ٤ ص ٨ ـ ٩، مقاتل الطالبيين ص ٣٨٢ ـ ٤.

(٢) المسعودي ج ٤ ص ٨، انظر الأشعري ج ١ ص ٦٧.

(٣) التنبيه والاشراف ص ٣٠٨.

(٤) السفياني هو الرجل المنتظر حسب اساطير بني أمية.

(٥) العيون ص ٧٠ ـ ١.

(٦) الطبري ج ١١ ص ٦.

(٧) شرحه ج ١١ ص ٥ ـ ٦، العيون ص ٧٢.

(٨) الذهبي ج ١ ص ١٠٦.

الباقي. «وأمر بصرف من كان المأمون أسكن ذلك من الناس إلى بلادهم»[١]. وبذلك أفسد خطة حكيمة وضعها سلفه لضرب البيزنطيين.

وفي سنة ٨٣٥هـ هجم عمر أمير ملطية على الأراضي البيزنطية فقابله تيوفيل وانتصر عليه. وفي السنة التالية تقوت جيوش البيزنطيين بانضمام جماعة من الخرمية بقيادة نصر الكردي، وكانت الجيوش العربية منشغلة في حرب بابك، فهاجم تيوفيل أرمينية وقتل كثيراً من سكانها ثم رجع يجر وراءه كثيراً من العوائل الأرمنية.

وفي سنة ٨٣٧م عبر تيوفيل الحدود مرة ثانية نتيجة لإلحاح بابك الخرمي الذي ضايقته جيوش الخليفة فكتب إلى تيوفيل «يعلمه ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته إليه.. حتى لم يبق على بابه أحد. فإن أردت الخروج فاعلم أن ليس في وجهك أحد يمنعك» آملاً أن يحول الخليفة بعض جيوشه لمقاومة الخطر الجديد فيخف الضغط عنه[٢].

ويبين المسعودي أنه كان مع تيوفيل «ملوك برجان والبرغر (البلغار) والصقالبة وغيرهم ممن جاورهم»[٣]. وسمع الطبري أن عدد جيش تيوفيل كان مائة ألف، وأنه كان «معه من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، جماعة رئيسهم بارسيس[٤]. وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أموره إليه»[٥].

ونزّل تيوفيل على زبطرة Dozopetra فارتكب الفظائع فيها إذ قتل رجالها وأحرقها وسبى الذراري والنساء التي فيها. وكانت المذبحة عامة شملت اليهود والمسيحيين والمسلمين[٦]. ثم حاصر شمشاط Arsamosata وبعد أن هزم نجدة أتت لانقاذها، فتحها وأحرقها، وأعمل الخراب في أرمينية الصغرى وسبى كثيراً من أهلها. ثم تقدم على ملطية ولكنه لم يدخلها بل اكتفى بأخذ الرهائن والأموال وتراجع لأنه كان يتوقع هجوم العباسيين[٧]. وعلى كل فإن المصادر العربية تكثر من وصف فظائع تيوفل من قتل وتحريق وسبي وتمثيل في هذه الحملة[٨].

---

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٤ ـ ٥.

(٢) شرحه ج ١٠ ص ٣٠٤، العيون ص ٢٨ ـ ٩.

(٣) مروج الذهب ج ٤ ص ١٤.

(٤) C.M.H.IVp.129 يذكر اكراد نصر. كل الفقرات التي لا أرقام عليها تستند إلى هذا الكتاب إذا استفاد كاتب الفصل الخاص بهذه الغزوات من مصادر بيزنطية لا استطيع الحصول عليها.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ٣٣٤.

(٦) انظر الطبري ج ١٠ ص ٣٣٥، العيون ص ٢٨، C.M.H. Vol IV p.130، اليعقوبي ج ٣ ص ١٢٩.

(٧) C. M. H. Vol p. 129.

(٨) انظر العيون ص ٢٩، ابن العبري ص ٢٤٢، الطبري ج ١٠ ص ٣٣٥، المسعودي ج ٤ ص ١٤، الفخري يشير الى قصة الهاشمية في السبي ص ٢٠٩ بينما يذكر العيون امراة صاحت وامعتصماه.

ووصلت أخبار مآسي زبطرة للمعتصم، فهالته، ودخل إبراهيم بن المهدي عليه وذكره بما نزل وحثه بقصيدة على الجهاد[1]. وضج الناس في الأمصار، فأسرع الخليفة بإرسال عجيف بن عنبسة وجماعة من القواد إلى زبطرة «إعانة لأهلها»[2]. فلما سمع تيوفيل بقدوم عجيف، ترك ملطية واصطدم بالعباسيين، ومزق قوتهم الصغيرة[3].

ويظهر أن خبر زبطرة وصل بعيد أسر بابك[4] فأسرع الخليفة بإرسال عجيف ليستعد هو لحملة كبرى. ونادى بالنفير العام (٢ جمادى الأول ٢٢٣هـ) «وتعمم بعمامة الغزاة» وعسكر غربي دجلة ونصبت الاعلام على الجسر «ونودي الأمصار بالنفير.. فسارت إليه العساكر المتطوعة من سائر (بلاد) الاسلام»[5]. ويبين الطبري أنه «خرج أهل ثغور الشام.. وأهل الجزيرة إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح»[6]. وكانت استعدادات المعتصم كبيرة فيقول الطبري «وتجهز جهازاً لم يتجهز مثله خليفة قط من السلاح والعدد والعدد والآلات وحياض الأدم والروايا والقرب والبغال والدروع والجواشن والزرديات وآلة النار والنفط»[7].

ثم تحرك المعتصم من سامراء، يوم الخميس ٦ جمادى الأولى ٢٢٣هـ نيسان ٨٣٨م وجعل أشناس على مقدمته[8]. وكان جيشه ضخماً «فالمكثر يقول خمسمائة ألف والمقلل مائتي الف»[9].

ويقترح بعض المؤرخين أن المعتصم قرر قصد عمورية وهو في سامراء [10].الا إن الأرجح ان ذلك تم خلاله الحملة[11]. ولما وصل المعتصم الى سروج Batnae أرسل الأفشين أمامه من (درب الحدث) وسار عامة جيشه الى طرسوس. وهناك قسم الجيش من جديد، فأرسل أشناس من الدرب Cilician Gates ثم تبعه بعد يومين.أو كان غاية الفرق

(١) المسعودي.

(٢) العيون ص ٣٠ الطبري ج ١٠ ص ٣٣٥.

(٣) C.M.H.IV p.129 بينما يذكر الطبري ان عجيفاً «وجد ملك الروم قد انصر الى بلاد» ج ١٠ ص ٣٣٥.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٣٣٥، العيون ص ٣٠ يقول: واتفق من لطف الله تعالى ان المعتصم ظفر ببابك الخرمي عند ورود الخبر بخروج ملك الروم ص ٣٠ ولا ادري كيف استنتج Brooks في C.M.H. بان خبر زبطرة وصل قبيل اسر بابك فهذا خطأ بين.

(٥) المسعودي ج ٤ ص ١٤.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٣٣٥.

(٧) شرحه، العيون ص ٣٠ ـ ١.

(٨) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٧٩.

(٩) المسعودي ج ٤ ص ١٤ ـ ١٥.

(١٠) يقول صاحب العيون ص ٣٠، والطبري ج١٠ ص٣٣٥ ان المعتصم سأل «اي بلاد الروم امنع واحصن، فقيل عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الاسلام وهي عين النصرانية.. وهي أشرف عندهم من القسطنطينية» فقصدها المعتصم.

(١١) انظر الفخري ص ٢١٠.

الثلاث أنقرةAncyra.

واتبع الأفشين طريق سيواس Sebastea ليجتمع بجيش ملطية. ولما سمع المعتصم أن تيوفيل معسكر على نهر ألس Halys أمر أشناس أن ينتظهر. ولكن الأمبراطور سار لمقابلة الأفشين، فاشتبك الجيشان قرب Dazimon فكان التفوق للأمبراطور في البدء، ولكن المسلمين كروا بعد الظهر، كما أن الضباب والمطر الكثيف ولدا فوضى في الجيش البيزنطي ولم يستطع أكثره معرفة محل الأمبراطور فتفرقوا. أما تيوفيل فقد خاف خيانة أتباعه الفرس فهرب مع بعض أتباعه، بينما أشعل الباقون النيران ليخدعوا العرب وتراجعوا[6].

وأخليت أنقرة عند ورود خبر المعركة، وأمر تيوفيل بتركيز القوات كافة في عمورية Amorium تحت قيادة ياطس Aetius خال تيوفيل وحاكم ولاية Theme أناطوليا، بينما ذهب هو الى القسطنطينية لسماعه بخبر مؤامرة عسكرية ضده. وفي هذه الأثناء احتل أشناس قرة Corum، وبعد أن خرب Nyssa وسمع من اللاجئين بانكسار الأمبراطور دخل انقرة وهناك وافته جيوش المعتصم والأفشين.

وبعد تدمير انقرة تقدمت القوات العربية الى عمورية (وهي المدينة الرئيسية في ولاية أناطوليا ومسقط رأس والد تيوفيل) في ٢ آب. وكانت مقاومة البيزنطيين عنيفة فطال الحصار حتى دل أسير عربي كان قد تنصر (باسم Manicophagus واستوطن عمورية، على نقطة ضعيفة في السور فركز الهجوم عليها. وأخيراً وجد قائد تلك الجهة وندو[1] Boiditzes ان المقاومة لا تجدي فسلم للعرب، فدخلوا المدينة يوم ١٣ آب وانتقموا منها انتقاماً مروعاً[2]. وكانت الغنائم كبيرة لدرجة ان المعتصم «أمر.. لكثرة السبي والغنائم ان لا ينادى على السبي أكثر من ثلاثة أصوات، وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة وعلى المتاع جملة واحدة»[3].

وكان تيوفيل قد أرسل قبل سقوط عمورية هدايا للمعتصم ورسالة يعتذر فيها عن مذابح زبطرة ويؤكد إنها حصلت ضد رغبته ويعد أن يبنيها ويرجع من سبي من أهلها وأن يطلق جميع الأسرى على أن يعقد الصلح، ولكن المعتصم رفض مقابلة رسوله حتى سقطت عمورية ولم تثمر المفاوضة شيئاً.

ويبين المسعودي أن المعتصم «أراد السير الى القسطنطينية والنزول على خليجها

---

(١) C. M. H. Vol IV p. 129-30، العيون ص ٣٢ ـ ٣، المسعودي ج ٤ ص ١٤ ـ ٥ يتحدث عن انتصار الأفشين ومقتل اكثر البطارقة وهزيمة الأمبراطور.

(٢) أنظر اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٧.

(٣) أنظر التفاصيل في اليعقوبي، والمسعودي، والعيون ص ٣٩، وابن العبري ص ٢٤٢.

(٤) العيون ص ٤٠.

(٥) المسعودي ج ٤ ص ١٤ ـ ٥

في فتحها براً وبحراً»[٤]. كما اضطرب تيوفيل على عاصمته لدرجة إنه أرسل الى البندقية والى ملك الأفرنج والى البلاط الأندلسي يطلب النجدة[١]. ولكن الخليفة اطلع على مؤامرة في الجيش لقتله، ولمبايعة العباس بن المأمون؛ فأثناه ذلك عن عزيمته. وكان الباعث على تلك المؤامرة القائد العربي عجيف بن عنبسة الذي أغضبه سوء تصرف القواد الترك تجاهه، فسخط على المعتصم تقريبه لهم، وأقنع العباس بالسعي للخلافة[٢]، وبث الدعاية له سراً في الجيش ودبر مؤامرة اشترك فيها قواد عرب آخرون وحتى بعض الأتراك وأجل التنفيذ الى ما بعد فتح عمورية وعند توزيع الغنائم. ولكن المؤامرة اكتشفت، فنكل المعتصم بالمتآمرين أشد تنكيل[٣]. ولعل أسوأ أثر للمؤامرة أنها زادت في حذر المعتصم من العرب في الجيش وزادت في تقريبه للأتراك واعتماده عليهم[٤].

واستمرت المناوشات بين العرب والبيزنطيين حتى سنة ٨٤١ ـ ٢م حين أرسل الأمبراطور البيزنطي هدايا الى الخليفة واقترح تبادل الأسرى. ولم يرض المعتصم بحصول الفداء رسمياً، ولكنه أرسل هدايا أكثر ووعد بأن يطلق ضعف عدد الأسرى المسلمين الذين يطلقون. وعلى هذا الأساس حصلت الهدنة[٥].

الاداريات

أ ـ الوزارة.

حصل بعض التصادم بين سلطة الوزير وبين قوة الخليفة، كما في حالة الفضل بن مروان أول وزراء المعتصم. كان الفضل كاتب المعتصم قبل الخلافة «وغلب عليه كثيراً» آنئذ، ولما توفي المأمون أخذ لسيده البيعة ببغداد فحفظها له، واستوزره «ورد أموره كلها إليه»[٦]. وأصبحت منزلته عالية جداً حتى يقول الطبري «وحل من قلبه (المعتصم) المحل الذي لم يكن أحد يطمع في ملاحظته، فضلاً عن منازعته ولا في الإعتراض في أمره ونهيه وإرادته وحكمه»[٧]. ويقول صاحب العيون «فلما أفضت الخلافة الى المعتصم صار الفضل هذا صاحب الخلافة والأمر والنهي والدواوين بحكمه»[٨]. ولكن الخليفة كان على الرغم من هذا التفويض يعتبره وزيره ومشاوره والمنفذ لأوامره ولذا كان التصادم حتمياً بين وزير

---

(١) فيليب حتي ص ٣٠١.

(٢) ويتهم المسعودي العباس بن المأمون بأنه «كاتب طاغية الروم» ج ٤ ص ١٥.

(٣) الطبري ج ١٠ ص ٢٤٢ وما بعدها، اليعقوبي ج ٢ ص ٢٠١ ـ ٢، العيون ص ٤١ ـ ٦.

(٤) فيليب حتي ص ٣٠١، ميور ٥١٧.

(٥) C. M. H., IV p. 130-I.

(٦) ابن خلكان ج ١ ص ٤١٤.

(٧) الطبري ج ١٠ ص ٣١٢.

(٨)) العيون ص ١٣.

قوي وخليفة حازم. إذ تطرف الفضل وأظهر استقـلالاً في تصرفاته [1]. وكـان يجرؤ على مناقشة آراء خليفته ومعارضتها فكان ذلك يسوء المعتصم[2]، وحاول تقييد سيده في نفقاته، فيقول الطبري «حملته الدالة وحركته الحرمة على خلافـة (المعتصم) في بعض ما كان يأمر به، ومنعه ما كان يحتاج إليه من الأموال في مهم أموره»[3] ويظهر ان الخليفة لم يرتح لكثرة الأموال التي جمعها وزيره حتى قال بعد أن نكبه «مـا كنت أعلم أن في الدنيا من له هـذا المال»[4]. واستغل اعداء الوزير هذه الأوضاع للوشاية به[5]. فعزله المعتصم في رجب أو صفر سنة ٢٢٠هـ وحبسه خمسة أشهر ثم أطلقه[6].

ومن ناحية أخرى نلاحظ في استيزار الفضل بعض التدهور في تقاليد الوزارة لأنه لم يكن من الكتاب، بل كان على حد قول الفخري «عامياً لا علم عنده ولا معرفـة، وكان رديء السيرة جهولاً بالأمور»[7]. ويصفـه ابن خلكان بـأنه «كـان.. قليل المعـرفة بـالعلم، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء»[8].

أما الوزير الثاني، أحمد بن عمار فكان يتميز بثرائه وبقلة ثقافته، وبأمانته. وكانت قلة ثقافته سبب عزله[9].

وكان الوزير الثالث محمد بن عبد الملك الزيات الذي لقب بذلك اللقب لأن جده كـان زياتاً. وكان من أبرع الكتاب ولذلك استوزر. ويطنب المؤرخون في تمجيد ثقـافته، فيقـول الفخري «نشأ محمد فتأدب وقرأ وفهم، وكان ذكياً فبرع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاء وكتابة وشعراً وأدباً وخبرة بآداب الرئاسة وقواعد الملوك»[10]، ويقول ابن خلكان «وكان من أهل الأدب الظاهر والفضل الباهر أديباً فاضلاً بليغاً عالماً بالنحو واللغة»[11].

وكان الزيات وزيراً قديراً أعاد هيبـة الوزارة مرة ثـانية فيـذكر الفخـرى أنه «نهض

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤١٤ «واستقل بالأمور».
(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣١٣.
(٣) شرحه.
(٤) العيون ص ١٣.
(٥) أنظر الطبري ج ١٠ ص ٣١٢ ـ ٣، والفخري ص ٢١٢.
(٦) ابن خلكان ج١ ص ٤١٥، واظهر المعتصم أنه عزله حفظاً لمصالح الرعية، إذ قال «عصى الله في طاعتي فسلطني عليه» ابن خلكان.
(٧) الفخري ص ٢١٢.
(٨) ابن خلكان ج ١ ص ٤١٥.
(٩) شرحه ج ٢ ص ٥٤، الفخري ص ٢١٢ ـ ٢١٣.
(١٠) الفخري ص ٢١٢.
(١١) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٤.

بالوزارة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من أضرابه، وكان جباراً متكبراً فظاً غليظ القلب خشن الجانب مبغضاً إلى الخلق»[1]. ويمكننا إعتباره خاتمة تلك السلسلة الذهبية من وزراء العصر العباسي الأول الذين ندر أن انتجت العصور المتأخرة مثلهم.

ب ـ الجيش

أدخل المعتصم عناصر جديدة في الجيش أهمها الأتراك، وكان أكثرهم من مقاطعتي أشروسنة وفرغانة[2]. ويقول البلاذري «فكان جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السند (هكذا) والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاش وغيرهم، وحط ملوكهم بابه»[3]. وحاول أن يفصلهم عن بقية جنده لئلا يتأثروا بهم. فلما بنى سامراء «أفرد قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولدين ولا يجاورهم إلا الفراغنة وجعل محلاتهم بعيدة عن الأسواق والزحام»[6] ويقول المسعودي «فجعل للأتراك قطائع متميزة وجاورهم بالفراغنة والأشروسنية وغيرهم من مدن خراسان (لعله يقصد ما وراء النهر) على كل قدر قربهم منهم في بلادهم»[5]. ولم يكتف بذلك بل ذهب في سياسته هذه إلى حد أنه «اشترى لهم (الأتراك) الجواري فأزوجهم منهن ومنعهم من أن يتزوجوا ويصاهروا إلى أحد من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم إلى بعض، وأجرى لجواري الأتراك أرزاقاً قائمة وأثبت أسماءهن في الدواوين فلم يكن أحد منهم يقدر أن يطلق امرأته ولا يفارقها»[6].

وقد ألبس المعتصم أتراكه زياً خاصاً[7]. ويصفهم الطبري بأنهم كانوا «عُجماً جفاة»[8].

وكوّن المعتصم فرقاً من المصريين، فيذكر المسعودي إنه اصطنع «قوماً من حوفي مصر، من حوف اليمن وحوف قيس فسماهم المغاربة»[9]. ويظهر أنه كان في جشيه فرقة أو فرقاً من الخزر[10].

ولم يهمل المعتصم الفرس، بل كان في جيشه فرق خراسانية تحوي بالإضافة إلى

---

(1) الفخري ص ٢١٤.

(2) انظر اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٦، المسعودي ج ٤ ص ٩.

(3) البلاذري ص ٤٧٣.

(٤) اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٦.

(٥) المسعودي ج ٤ ص ١٠.

(٦) اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٦.

(٧) المسعودي ج ٤ ص ٩.

(٨) الطبري ج ١٠ ص ٣١١.

(٩) المسعودي ج ٤ ص ٩، وهؤلاء كان أكثرهم عرباً.

(١٠) اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٩.

الخراسانيين، فرساً من أقسام أخرى من إيران[1]. وكذلك كان في جيشه فرق عربية. وهذه كما يظهر هي الفرق القديمة.

وهناك جماعات من المتطوعة كانت تنضم إلى جيوش المعتصم مدفوعة بالدرجة الأولى بدافع الحماس الديني وراغبة في الثواب، فيروي الطبري أن بعضهم قال للأفشين وهو أمام بابك« أيها الأمير لا تحرمنا شهادة إن كانت قد حضرت وإنما قصدنا وطلبنا ثواب الله ووجهه»[2]. وقد ساهموا بصورة قوية في حرب بابك وفي الحرب مع البيزنطيين، ولكنهم لم يكونوا جنداً نظامياً[3].

ج ـ العاصمة:

كان سبب نقل العاصمة اصطناع المعتصم للأتراك. فمن جهة ضاقت بغداد بالجند الجدد. فيقول صاحب العيون «إن المساكن والطرق ضاقت على الناس ببغداد لكثرة العساكر التي تجمعت مع المعتصم»[4] . ويقول الفخري «قيل إن المعتصم استكثر من المماليك فضاقت بهم بغداد»[5]. ومما زاد في حراجة الوضع سوء تصرف الأتراك إذ أنهم كانوا «عجماً جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة يطأون الصبي»[6]. فلم يرضخ البغداديون لمنكرات الأتراك بل كان «يثب عليهم (على الأتراك) الغوغاء فيقتلون بعضاً ويضربون بعضاً وتذهب دماؤهم هدراً لا يعدون على من فعل ذلك[7]. وثقل وجود الأتراك على أهل بغداد فتذمروا منه بشدة، كما عز على المعتصم فقد رجاله فقرر الإنتقال[8].

ويظهر أن المعتصم كان يخشى الفتنة وثورة أهل بغداد وبعض العساكر بها لسخطهم على تقريب الأتراك. فيروي الطبري أن المعتصم قال لأحمد بن أبي خالد إني أتخوف أن يصيح بي هؤلاء الحربية[9] فيقلوا غلماني حتى أكون فوقهم فإن رابني منهم ريب أتيتهم في البر والبحر حتى آتي عليهم»[10]. ويبين الفخري أن المعتصم خاف من ببغداد من الجند ولم

---

(١) شرحه ص ٢٧، وص ٢٨، «ثم قطائع قواد خراسان واسبابهم من العرب ومن اهل قم واصبهان وقزوين والجبل واذربيجان».

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٢٤.

(٣) أنظر الطبري في حرب بابك وج ١٠ ص ٣٣٥، المسعودي ج ٤ ص ١٤.

(٤) العيون ص ٥.

(٥) الفخري ص ٢١٠.

(٦) الطبري ج ١٠ ص ٣١١.

(٧) اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٤.

(٨) أنظر المسعودي ج ٤ ص ٩، الطبري ج ١٠ ص ٣١١ ـ ٢، الفخري ص ٢١٠، البلدان ص ٢٤.

(٩) أهل محلة الحربية. وهي القسم الشمالي الغربي من بغداد الغربية.

(١٠) الطبري ج ١٠ ص ٣١١.

يثق بهم فقال «أطلبوا لي موضعاً اخرج إليه وابني فيه مدينة وأعسكر به فإن رابني من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة وكنت قادراً على أن آتيهم في البر وفي الماء»[1]. وهكذا كان عدم اطمئنان المعتصم للجند القدماء ببغداد وشكه بنوايا أهل تلك المدينة عاملاً هاماً في الإنتقال.

وراح الخليفة يفتش عن موضع لبناء عاصمته الجديدة. وأراد أول الأمر البناء بالشماسية (طرف بغداد الشرقية الشمالي) فتركها لضيق المحل، «وكره أيضاً قربها من بغداد»[2]. ثم اقترح الفضل بن مروان أن يبني بالبردان، فلم يستحسنها المعتصم، ثم خرج في ١٥ ذي القعدة سنة ٢٢٠هـ[3] وقرر أن يبني على القاطول «فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البناء على دجلة والقاطول». وفعلاً بدأت أعمال البناء حتى ارتفعت الجدران واختطت الأسواق، ثم لاحظ الخليفة عبث الإستمرار في البناء لصعوبة الأرض ولضيق المساحة، فترك القاطول وخرج يتقرى المواضع حتى وصل محل سامراء فوجد فيه ديراً للمسيحيين. وأقام يتصيد ثلاثة أيام ليتأكد من ملاءمة المحل، فاستحسنه واستطاب هواءه، وأمر بشراء أرض الدير بأربعة آلاف دينار، ثم بنى مدينة سر من رأى[4].

وفي بناء سر من رأى نلاحظ التأكيد على الأسوار أو على بناء مدينة محصنة وذلك لثبوت أركان الدولة العباسية، بل كان التأكيد على العمارة. فكتب المعتصم «في أشخاص الفعلة والبنائين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات»[5]. واهتم بأن تكون عاصمته مجمعاً للصناعات المعروفة، فأقدم «من كل بلد من يعمل عملاً من الأعمال أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغرس وهندسة المياه ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها، وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر، وحمل من الكوفة من يعمل الأدهان ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة»[6].

واعتنى بالناحية التجارية، فوسع «صفوف الأسواق»[7] وعمل شارعاً على دجلة جعله رصيفاً مرسى لسفن التجارة «التي ترد من بغداد وواسط وكسكر وسائر السواد والبصرة والإبلة والأهواز وما يتصل بذلك ومن الموصل وبعربايا وديار ربيعة وما إتصل بذلك»[8].

---

(١) الفخري ص ٢١٠

(٢) اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٤.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٩.

(٤) انظر المسعودي ج ٤ ص ٩ ـ ١٠، البلدان ص ٢٤ ـ ٥.

(٥) اليعقوبي ـ البلدان ص ٢٥.

(٦) شرحه ص ٣١.

(٧) شرحه ص ٢٥.

(٨) اليعقوبي ـ البلدان ص ٣٠

وبينما بنى مدينته على الجانب الشرقي لدجلة، إهتم بزراعة القسم الغربي، تحفر الترع فيه «وحمل إليه الغروس من كافة البلدان» وشجع قواده ورجاله على المساهمة في الزرع (١).

وكان اهتمامه شديداً في فصل الجيش والدواوين عن السكان وفي إنزال الأهلين في أحياء خاصة حسب مهنهم. فأسكن كل صنف من جيشه في جهة حسب جنسياتهم، ثم وضع كل فرقة تحت قائدها وفي محلة خاصة. وجعل «كل تجارة منفردة وكل قوم على حدتهم على مثل ما رسمت عليه أسواق بغداد»(٢). فكان تقسيم المدينة تقسيماً إجتماعياً عسكرياً يتناسب وكونها معسكراً أولاً، ومركزاً حضرياً ثانياً.

تقرير

قضى المعتصم على الثورات التي كانت تهدد الأمبراطورية، وأخطرها ثورة بابك، ووضع حداً لفوضى الزط، وصدم الروم صدمة قوية.

وبنى عاصمة جديدة، ولكن جل سكانها كانوا جنداً، فأصبح الخليفة شبه سجين بينهم فكان لذلك نتائج فظيعة في عهد أخلافه.

وعجز عن إخضاع الطاهريين، فتركهم شبه مستقلين في خراسان.

ولعله أراد تقوية ركن الدولة المتصدع بتقريب الترك فأهمل الفرس والعرب، وقرب أناساً لا ولاء لهم ولا ثقافة ولا يهمهم إلا الكسب، وبذلك زاد في ضعف الرابطة بين الخلافة وإيران وبينها وبين العرب لدرجة خطرة. فكانت سياسته هذه إعلاناً لبدء انحلال مؤسسات الدولة وقوتها.

والمتفحص لأعماله يرى فيه قائداً عبقرياً إلا أنه ليس بسياسي قدير. ونحن لا نحمّله كل مسؤولية الأخطاء التي نجمت عن حكمه، فبعضها ناتج عن سياسة أسلافه ولكننا نحكم بخطأ سياسته إستناداً إلى نتائجها المريعة فيما بعد.

---

(١) شرحه ص ٣١.

(٢) شرحه ص ٢٥.

الفصل العاشر

نظام الضرائب

١ ـ لما انتقل مركز الخلافة إلى العراق زاد اهتمام الخلفاء به وخاصة بقسمه الجنوبي المعرف بالسواد[١]. فأحيوا نظام الري القديم ونظموه، وكروا الترع وحفروا قنوات جديدة وخاصة في منطقة بغداد[٢].

فمن أعمال الري الجديدة نهر أبي الأسد عند البطيحة، وقد حفره أو وسع فوهته أبو الأسد قائد المنصور[٣]. ونهر الصلة الذي أمر المهدي بحفره في أعمال واسط «وأحيا ما كان عليه من الأرضين وجعلت غلاته لصلات أهل الحرمين والنفقات هناك»[٤]. ونهر الريان الذي حفرته الخيزران[٥]. ونهر القاطول المدعو بـ «أبي الجند» حفره الرشيد «لقيام ما يسقى من الأرضين بأرزاق جنده» وأنفق عليه عشرين ألف ألف درهم[٦]. ونهر الميمون الذي «حفره وكيل لأم جعفر زبيدة»[٧].

واهتم الخلفاء بالمحافظة على نظام الري، حتى نجد أبا يوسف يفصل في واجبات الدولة في هذا المضمار فيقول «وإذا احتاج أهل السواد إلى كري أنهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج»[٨]. ويقول أيضاً «فأما البثوق والمسنيات التي تكون في دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام، فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحل على أهل الخراج من ذلك شيء لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين»[٩]. وكانوا يوجهون عناية خاصة لحفظ

---

(١) اتضح لي من مقارنة المصادر العربية أن السواد يمتد بين حربي والعلث شمالاً الى الخليج العربي جنوباً ومن حلوان شرقاً الى القادسية غرباً Duri-Studies p. I.

(٢) في تفصيل انهار هذه المنطقة انظر ابن سرابيون ص ١٢٩ ـ ١٣٥ من طبعة مزيك و ص ٢٠ ـ ٢٨ من H. R. A. S. 1895.

(٣) البلاذري ص ٢٩٣ ـ ٤.

(٤) قدامة ـ الخراج ص ٢٤١ ـ ٢.

(٥) البلاذري ص ٢٧٤.

(٦) الجهشياري ص ١٧٧، البلاذري ص ٢٩٧.

(٧) البلاذري ص ٢٩١

(٨) الخراج ص ١٣١، في هذا الفصل استندت الى طبعة القاهرة ١٣٥٢هـ.

(٩) شرحه ص ١٣٣.

السدود من الإنفجار ومنع خطر الفيضان.

فلا عجب في أن أصبح السواد مغطى بشبكة واسعة من القنوات، مكتسياً بالمزارع والقرى[١]. ومن هذا ندرك أهمية الخراج أو ضريبة الأرض التي كانت المورد الرئيسي لبيت المال.

٢ ـ ولننظر الآن في الضرائب المختلفة في هذا العصر.

الخراج

وقد كان يؤخذ من الجزء الأكبر من أراضي السواد، ولذلك اهتم العباسيون بجبايته وبتنظيمه. وبأن اهتمامهم به لأول مرة في خراسان فإن خالداً بن برمك «كان.. في عسكر قحطبة يتقلد خراج كل ما افتتحه قحطبة من الكور.. فكان يقال إنه ما من أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه يد ومنّة لأنه **قسط الخراج** فأحسن فيه إلى أهله»[٢]. ومن هذا يظهر أنهم حاولوا تنظيم جباية الخراج وتخفيفه في خراسان عند مجيئهم إلى الحكم.

أما في السواد، فكان الخراج يؤخذ نقداً وعلى المساحة زرعت الأرض أم لم تزرع حسب الأسس التي وضعها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)[٣]. واستمر ذلك حتى أبدله المهدي بنظام المقاسمة على الحقول، وهو أخذ نسبة معينة من الحاصل [النصف على ما يسقى سيحاً والثلث على ما يسقى بالدوالي (الكرود) والربع على ما يسقى بالدواليب (النواعير)] مراعياً في ذلك تكاليف السقي بنسبة عكسية[٤]. ولكنه غير هذه النسب في حالات خاصة، فعندما حفر نهر الصلة «جلب المزارعين وأغراهم أن يقاسموا على الخمسين [لمدة] خمسين سنة فإذا انقضت الخمسين لم يجروا على الشرط المشترط لهم»[٥].

ولم يشمل نظام المقاسمة النخل والشجر والكرم، إذ بقى على «خراج الوظيفة» وروعي في تقدير ضريبته «قربه من الأسواق»[٦].

لكن ضريبة الخراج لم تكن ثابتة بل تغيرت تبعاً للظروف. فعندما ولي خالد البرمكي فارس زمن المهدي «وضع عنهم خراج الشجر، وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلاً»[٧]. كما أن نسبة المقاسمة تغيرت، إذ أضيف العشر إلى النصف، فصارت الضريبة ٦٠٪ من الغلة[٨]،

---

(١) أنظر ابن حوقل ج ١ ص ٢٤٣، والاصطخري ص ٨٤.

(٢) الجهشياري ص ١٨٦.

(٣) لقد بحثت نظام عمر بن الخطاب بتفصيل في مجلة القضاء سنة ١٩٤٤، عدد ٥ ص ٥٥١ ـ ٦٨ وسنة ١٩٤٥، العدد الأول، فليراجع هناك. ويدعى هذا النوع من الخراج «خراج الوظيفة».

(٤) أنظر ص ٨٠ ـ ٣. و ٩٦ ـ ٩٧ من هذا الكتاب.

(٥) قدامة ـ الخراج ص ٢٤١ ـ ٢.

(٦) الماوردي ص ١٦٨.

(٧) الجهشياري ص ١٥١.

(٨) الفخري ص ١٦٢.

والراجح أن هذا حصل في أواخر أيام المهدي لكثرة نفقاته وإفلاس خزائنه[١].

ويظهر ان هذه النسبة (٦٠٪) كانت باهظة على الزراع، كما أن إبقاء ضريبة النخل والشجر والكرم على «خراج الوظيفة» كان أكثر من طاقتهم. وقد أكد أبو يوسف ذلك مبيناً إن «ما كان حصل على أرضهم من الخراج يصعب عليهم، ورأينا أرضهم غير محتملة له ورأينا أخذهم بذلك داعياً إلى جلائهم عن أرضهم وتركهم لها»[٢].

وكان العمال والجباة يأخذون علاوة على حصة المقاسمة، رسوماً إضافية يشير إليها أبو يوسف «كرزق عامل» و «أجرمدي» و «نزولة وحمولة طعام للسلطان» و «ثمن صحف وقراطيس» و «أجور الكيالين» والإدعاء «عليهم بنقيصة فتؤخذ منهم» و «ما قد يسمونه رواجاً لدراهم يؤدونها في الخراج.. إن الرجل منهم يأتي بالدراهم ليؤديها في خراجه فيقتطع منها طائفة، فيقال هذا رواجها وصرفها»[٣]. وبالإضافة إلى كل هذا، كان يطلب إلى المزارعين أحياناً كري القنوات على نفقتهم[٤]، مع العلم بأن «الأنهار التي يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة وليس على بيت المال من ذلك شيء»[٥].

وفي زمان المنصور كان إذا أصاب الزرع خراب أو حيف، لم يسقط عنه الخراج وإنما يؤجل إلى السنة المقبلة. فعندما توسط عمارة بن حمزة إلى كاتب المهدي (أبي عبيدالله ـ وكان المهدي آنئذ ينوب عن المنصور ببغداد) في أمر رجل «ضياعه تحيفت فخربت.. وسأله إسقاط خراجه وهو مئتا ألف درهم (قال له أبو عبيدالله).. هذا لا يمكنني ولكن أؤخره بخراجه إلى العام المقبل»[٦]. ولكن إسقاط الخراج عن المقربين أصبح من أعمال العمال المعروفة، حتى نبه أبو يوسف إلى ذلك ومنع فعله[٧]. ولم تفد نصيحة أبي يوسف، فلما ولي عيسى بن فرخانشاه خراج مصر، زار محمداً بن يزيد الأموي وأسقط «عنه جميع خراجه في تلك السنة»[٨].

وكان الولاة أحياناً يهبون الخراج أو شيئاً منه لمقربيهم، فوهب الفضل بن يحيى البرمكي (عامل خراسان آنئذ) لعامله على سجستان خراج مقاطعته لسنة كاملة وقدره أربعة ملايين درهم[٩].

---

(١) المسعودي، مروج، ج ٣ ص ٢٩٦.

(٢) ابو يوسف ص ١٠١.

(٣) شرحه ص ١٣٠.

(٤) شرحه ص ١٣١.

(٥) شرحه ص ١٣٣.

(٦) الجهشياري ص ٩١ ـ ٢.

(٧) ابو يوسف ص ١٠٢.

(٨) التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٧٩.

(٩) الطبري ج ١٠ ص ٦٤.

ولما جاء الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ) إهتم بقضية الخراج وطلب إلى الفقيه أبي يوسف أن «أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جبايته الخراج والعشور والصدقات والجوالي وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم»(١). فكتب أبو يوسف كتابه العظيم «الخراج» موضحاً فيه الأسس الصحيحة لكمية الضرائب المذكورة وكيفية جبايتها ، وكانت إقتراحاته بشأن الخراج هي:

١ ـ «ان يقاسم عمل الحنطة والشعير من أهل السواد جميعاً على خمسين للسيح منه، وأما الدوالي فعلى خمس ونصف (٣٠٪).. وأما غلال الصيف فعلى الربع» مراعياً في ذلك مشاكل السقي وتكاليفه وطاقة أهل الخراج.

٢ ـ «أن يقاسم أهل الخراج.. ما أثمر النخل والشجر والكرم» أي تطبيق نظام المقاسمة على الأشجار المثمرة بدل خراج الوظيفة. وحدد كمية الضريبة «وأما النخل والكرم والرطاب والبساتين فعلى الثلث»(٢). وقد دافع أبو يوسف عن اقتراح هذه التعديلات في نظام عمر بن الخطاب قائلاً «وقد كان عمر وهو الذي جعل الخراج عليهم يسأل عنهم: أيطيقون ذلك أم لا، وتقدم في أن لا يكلفوا فوق طاقتهم»(٣).

٣ ـ وأقترح إلغاء الرسوم الإضافية، ومساعدة الحكومة للزراع في كري القنوات الرئيسية(٤).

على أنه ليس هناك ما يدل على أن الرشيد طبق نصائح أبي يوسف خارج السواد، لأنه وإن كان يميل إلى العدل، إلا أن قلة مراقبته للعمال أفسحت لهم المجال لجمع الأموال والإثراء على حساب الرعية كما فعل علي بن عيسى بن ماهان الذي بلغت مصادرته بعد توليته خراسان لعشر سنين ثمانون مليوناً من الدراهم(٥) ولكنه متى تأكد من ظلم الولاة عزلهم كما فعل بعلي بن عيسى وبوالي مصر موسى بن عيسى الهاشمي بعد أن «كثر التظلم منه واتصلت السعايات به»(٦). أما في السواد، فقد انقص الرشيد مقدار الخراج سنة ١٧٢هـ بحذف «العشر الذي كان يؤخذ، بعد النصف»(٧).

وإستمرت جباية الخراج في السواد على النصف حتى سنة ٢٠٤هـ حين جعل

---

(١) ابو يوسف ص ١.

(٢) شرحه ص ١٠٠.

(٣) شرحه ص ١٠١.

(٤) شرحه ص ١٢١.

(٥) الطبري ج ١٠ ص ١٠٠ ويقول (ج ١٠ ص ٩٥ ـ ٦) انه ظلم الناس وعسر عليهم ـ وانه «وتر اشرافها واخذ اموالهم واستخف برجالهم».

(٦) الجهشياري ص ٢١٧.

(٧) الطبري ج ١٠ ص ٥١.

المأمون «مقاسمة أهل السواد بالخمسين بدل النصف»[1]. ويظهر أن المأمون إهتم بتخفيف وطأة الخراج (وإن كانت دوافعه سياسية)، إذ أنه «حط عن خراسان ربع الخراج»[2]. كما أن عامله عبدالله بن طاهر في محاولته لتهدئة الحالة في الشام «حط عن بعضها الخراج» حوالي سنة ٢١٠هـ[3]. وفي سنة ٢١٤هـ، أقام المأمون بدمشق لمسح أراضي الشام، وجاء بالمساح من العراق والأهواز والري «فعدل أرضها (دمشق والأردن) الخراجية وحمّل كل أرض ما تستحقه». وفي سنة ٢١٨ أوصى عماله في الشام «بحسن السيرة وتخفيف المؤنة وكف الأذى»[4].

أما المساوىء المتعلقة بطرق الجباية فكانت فظيعة، وقد أكثر أبو يوسف من التنبيه على عسف الجباة. فمن المساوىء «حزر» ما في البيادر فتقدر بأكثر من محتوياتها الحقيقية وعندئذ «يؤخذوا بنقائص الحزر». ونبه أبو يوسف إلى أن «في هذا إهلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد. وكان العامل أحياناً يدعي على أهل الخراج ضياع غلة فيأخذ بذلك السبب أكثر من الشرط». وكان العامل أحياناً يكيل الحاصل بعد الدوس «ثم يدعه في البيادر الشهر والشهرين، ثم يقاسمهم (أهل الخراج) فيكيله ثانية فإن نقص عن الكيل الأول قال أوفوني وأخذ منهم ما ليس له»[5]. ويشير أبو يوسف إلى سوء تصرف أعوان جباة الخراج الذين قد يكونون «ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم (العامل) ويوجههم في أعماله، يقتضي بذلك الذمامات، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه، ولا ينصفون من يعاملون، إنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان أو من أموال الرعية، ثم إنهم يأخذون ذلك.. بالعسف والظلم والتعدي»[6]. وكان أعوان العمال أحياناً يطالبون بأجور خاصة «فإن لم يعطه (الزراع) ضربه وعسفه وساق البقر والغنم ومن أمكنه من ضعفاء المزارعين حتى يأخذ ذلك ظلماً وعدواناً»[7].

ومن مساوىء وضع الخراج، جباية الضريبة قبل نضوج الزرع. يروي المقريزي نقلاً عن كتاب ضائع وهو «أخبار أمير المؤمنين المعتضد بالله، لأبي الحسين عبدالله بن أحمد بن أبي طاهر ـ رواية عن أحد جلساء المتوكل، أن هذا الخليفة «مر بزرع فرآه أخضر فقال (لجليسه): يا علي إن الزرع أخضر بعدما أدرك، وقد استأذنني عبيدالله بن يحيى في

---

(١) الفخري ص ١٦٢.

(٢) الجهشياري ص ٢٧٩.

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ١٩١ (تجف).

(٤) محاضرات المجمع العلمي ج ١ ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٥) أبو يوسف ص ١٣٠.

(٦) شرحه ص ١٢٨.

(٧) شرحه ص ١٢٩.

استفتاح الخراج، فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج في النوروز والزرع لم يدرك بعد؟ قال فقلت له: ليس يجري الأمر اليوم على ما كان يجري عليه أيام الفرس.. لأنها كانت تكبس في كل مائة وعشرين سنة شهراً، وكان النوروز إذا تقدم شهراً وصار في خمس من حزيران كبست ذلك الشهر فصار في خمس من أيار وأسقطت شهراً وردته إلى خمس من حزيران فكان لا يتجاوز هذا. فلما تقلد العراق خالد بن عبدالله القسري وحضر الوقت الذي كبس فيه الفرس منعها من ذلك وقال هذا هو الشيء الذي نهى الله عنه.. وأنا لا أطلقه حتى استأذن فيه أمير المؤمنين، فبذلوا على ذلك مالاً جليلاً فامتنع عليهم من قبوله وكتب إلى هشام بن عبد الملك يعرفه ذلك.. فأمر بمنعهم من ذلك، فلما امتنعوا من الكبس تقدم النوروز تقدماً شديداً حتى صار يقع في نيسان والزرع كله أخضر»[1]. ويضيف البيروني: «فلما كان أيام الرشيد إجتمعوا إلى يحيى بن خالد بن برمك وسألوه أن يؤخر النوروز نحو الشهرين، فعزم على ذلك فتكلم أعداؤه فيه وقالوا إنه يتعصب للمجوسية فأضرب عن ذلك» وبقي الحال حتى زمن المتوكل، حين أخبر «أن هذا قد أضر بالناس فهم يقترضون ويتسلفون وينجلون عن أوطانهم وكثرت شكاياتهم وظلمهم». عندئذ أمر المتوكل جليسه (أو أحد الموابذة على قول البيروني) «فاعمل لهذا.. عملاً ترد النوروز فيه إلى وقته الذي كان فيه في أيام الفرس وعرّف بذلك عبيدالله بن يحيى وادّ إليه رسالة مني في أنه يجعل استفتاح الخراج فيه..» وعندما أخبر الجليس الوزير بالأمر، فقال الوزير «يا أبا الحسن، قد والله فرجت عني وعن الناس وعملت عملاً كثيراً يعظم ثوابك عليه وكسبت لأمير المؤمنين أجراً وشكراً» فعمل إحصاء لمقدار الكبس، فأخرّ وقت جباية الخراج من نيسان إلى «خمس من حزيران» (المقريزي) أو «سبعة عشر» منه (البيروني)، وأنشىء كتاب إلى النواحي بالأمر بذلك في محرم سنة ٢٤٣هـ. فقال البحتري في ذلك قصيدة يمدح فيها المتوكل ويقول:

إن يوم النوروز قد عاد للعهـ ... ـد الذي كان سنه أردشير
أنت حولته إلى الحالة الأو ... لى وقد كان حائراً يستدير
فافتتحت الخراج فيه فللأ ... مة في ذاك مرفق مذكور
منهم الحمد والثناء ومنك العد ... ل فيهم والنائل المشكور

ولكن المتوكل قتل «ولم يتم ما دبر حتى قام المعتضد» (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ)[2].

أما في مصر فقد اتبع نظام كبس السنوات طوال العصر العباسي الأول[3].

وكان أهل الخراج يعاملون معاملة قاسية، إذ أنهم حتى مجيء المهدي إلى الخلافة كانوا «يعذبون بصنوف من العذاب من السباع والزنابير والسنانير.. فلما تقلد (المهدي) الخلافة شاور محمداً بن مسلم فيهم فقال له محمد: يا أمير المؤمنين هذا موقف له ما بعده،

---

(١) المقريزي ـ الخطط ج ٢ ص ٣٩ ـ ٤١.

(٢) أنظر البيروني: الآثار الباقية ص ٣١ ـ ٢: المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٣٩ ـ ٤١.

(٣) شرحه ج ٢ ص ٤١ ـ ٢.

وهم غرماء المسلمين فالواجب أن يطالبوا مطالبة الغرماء» وعندئذ أمر الخليفة وزيره «بالكتاب إلى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج»[١]. ولكن يظهر أن هذا لم يدم طويلاً إذ قال أبو يوسف يخاطب الرشيد: «فإنه بلغني أنهم (الجباة) يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار، ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام»[٢].

ومن النوادر التي يذكرها المقريزي أنه ولي خراج مصر سنة ١٧٨هـ عامل ضمن جباية الخراج كله «بلا سوط ولا عصا»[٣]. واستمر تعذيب دافعي الخراج بصنوف العذاب في عهد الرشيد حتى سنة ١٨٤هـ حين أمر الخليفة برفع العذاب عنهم[٤]. ولكن أثر هذا كان وقتياً، إذ رجع الجباة إلى طرقهم، واستمر التعذيب في زمن المأمون. إذ يصف ديونيسيوس المهري جباة الخراج في العراق حوالي عام ٢٠٠هـ/ ٨١٥م بأنهم «قوم من العراق والبصرة والعاقولاء وهم عتاة ليس في قلوبهم رحمة ولا إيمان، شر من الأفاعي، يضربون الناس ويحبسونهم ويعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يكاد يموت»[٥].

ومن المساوىء، ضمان الخراج في منطقة ما، من قبل أفراد يدفعون قدراً معيناً من المال وتطلق أيديهم في الجباية. يروي الفضل بن يحيى البرمكي أن أباه «كان تضمن فارس من المهدي فحل عليه ألف ألف درهم»[٦]. وقد حذر أبو يوسف من هذا وشرح أثره، قائلاً «ورأيت أن لا تقبّل (تضمن) شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد فإن المتقبل إن كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه، وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية، والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالته، ولعله أن يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً. وليس يمكن ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامة لهم في الشمس وتعليق الحجارة في الأعناق، وعذاب عظيم ينال أهل الخراج»[٧].

وكان الضمان متبعاً بصورة خاصة خارج العراق، فبعد اضطرابات سنة ١٨٣هـ في مصر «خرج ليث (والي مصر) إلى الرشيد وسأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الأحواف إلا بجيش، فرفع محفوظ بن سليمان أنه يضمن خراج

---

(١) الجهشياري ص ١٤٢ ـ ٣.
(٢) ابو يوسف ص ١٣٢.
(٣) المقريزي ـ الخطط ج ٢ ص ٩٧.
(٤) اليعقوبي ج ٣ ص ١٤٦.
(٥) نقله متز ـ الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٢٢٢.
(٦) الجهشياري ص ١٩٧.
(٧) أبو يوسف ص ١٢٥ ـ ٦.

مصر عن آخره بغير سوط ولا عصا، فولاه الرشيد الخراج»(١). ويظهر أن نظام الضمان كان شائعاً بصورة خاصة في مصر. يقول المقريزي «ان متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأراضي، وقد اجتمع الناس في القرى والمدن فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات، وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما انتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس. وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ أو الإستجار وغير ذلك، فإذا إنقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضاً وضمنها إلى ناحيته، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك، ويحمل ما عليه من الخراج أبّانة على أقساط ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرّابة مقدرة في ديوان الخراج، ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة من جهات الضمان والمتقبلين»(٢). ولم ينتشر نظام الضمان في العراق إلا في أواخر القرن الثالث الهجري وفي القرن الرابع(٣).

وهناك نوع ثان من الضمان، وهو أن يضمن رجل موسر عن أهل المنطقة خراجها، برضى منهم. فذلك يستحسنه أبو يوسف، على أن يعين الخليفة مع الضامن «أمين من قبل بيت المال يوثق بدينه وأمانته ويجري عليه من بيت المال»(٤). وهذا الضمان يطلق عليه لفظ الايغار(٥).

ولما كان العراق مركز الخلافة، فإن مساوىء الجباية فيه كانت أقل منها في الولايات. ولنأخذ مصر كمثل لذلك خاصة وأن المقريزي يعطي أمثلة عديدة من عسف الولاة العباسيين فيها. ففي سنة ١٧٧هـ ولي إسحاق بن سليمان بن علي الصلات والخراج «فكشف أمر الخراج وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم فخرج عليه أهل الحوف فحاربهم»(٦). وفي سنة ١٨٢هـ، ثار أهل الحوف «ومنعوا الخراج»(٧). وفي سنة ١٩٠هـ «خرج أهل الحوف وامتنعوا عن اداء الخراج»(٨). وفي سنة ١٩٨هـ ولي العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد من قبل المأمون على الصلات والخراج «وتحامل على

---

(١) المقريزي الخطط ج ٢ ص ٩٧.
(٢) المقريزي ج ١ ص ١٣٢.
(٣) أنظر الصابي ـ الوزراء ص ١٠ ـ ١١.
(٤) ابو يوسف ص ١٢٥ ـ ٦.
(٥) ابن الجوزي المنتظم ج ٥ ص ٥٣، الخوارزمي ـ مفاتح العلوم ص ٦٠.
(٦) المقريزي ـ خطط ج ٢ ص ٩٦.
(٧) شرحه ج ٢ ص ٩٧.
(٨) شرحه ج ٢ ص ٩٨.

الرعية وعسفها وتهدد الجميع فثاروا»[1]. وفي سنة ٢١٣هـ ولي الأمير أبو إسحق المعتصم على مصر «وجعل على الخراج صالح بن شيرزاد فظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم، فانتفض أهل أسفل الصعيد»، واستمرت الثورة حتى بلغت أوجها سنة ٢١٦هـ حين ولي عيسى بن منصور (من قبل أبي إسحق) على الصلات «فانتقضت أسفل الأرض عربها وقبطها في جمادى الأولى وأخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة» واضطر المأمون الى المجيء بنفسه (١٠ محرم سنة ٢١٧هـ) «فسخط على عيسى وحل لواءه.. ونسب الحدث إلى عماله، وأوقع بأهل الفساد وسبي القبط وقتل مقاتلتهم»[2]. وتتضح نظرته إلى الثوار من قوله «هؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظلموا تظلموا وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم»[3] وهكذا صارت مصر بؤرة للثورات لسوء تصرف العمال وظلمهم في الجباية.

وفي ولاية فارس كان الخراج ثقيلاً. يقول المقدسي «قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة «أهل فارس أنجع الناس بطاعة السلطان وأصبرهم على الظلم وأثقلهم خراجاً، وأذلهم نفوساً. وفيه: أهل فارس لم يعرفوا عدلاً قط»[4]. ويقول في معرض الحديث عن فارس «ولا تسأل عن ثقل الضرائب وكثرتها»[5]. وكان فيها عدد واسع من النبلاء الإقطاعيين ممن يمتلكون أراضٍ واسعة إذ يقول المقدسي «وأكثر الضياع (بها) مقتطعة»[6]. فاجتمع عسف النبلاء إلى ظلم الجباة. وكان مقدار الخراج فيها يعتمد على طريقة السقي، فخراج ما يسقى بآلة يبلغ ثلثي خراج ما يسقى سيحاً، «والبخوس خراجه ثلث السيح»[7].

٦ ـ وقد دفع ظلم الجباة بعض المزراعين إلى الإحتماء باسم أحد كبار رجال الدولة كالوزير على أن يدفع له مقابل ذلك مقداراً من المال في السنة، وهذا ما يدعى بـ «الألجاء». جاء في الجهشياري (على لسان أردشير بن سابور) وفي إبن أبي الحديد: «إن من أهل الخراج من يلجيء أرضه وضياعه إلى خاصة الملك وبطانته لأحد أمرين: **إما لامتناع من جور العمال وظلم الولاة** فتلك منزلة يظهر بها سوء أثر العمال.. **وأما لدفع ما يلزمهم من الحق** والكسر له»[8]. ويعطي الجهشياري مثلاً واضحاً للإلجاء إذ يقول: جاء رجل من أهل الأهواز إلى أبي أيوب (المورياني) وهو وزير (المنصور) فقال له: **إن ضيعتي بالأهواز قد حمل علي فيها العمال، فإن رأي الوزير أن يعيرني إسمه أجعله عليها وأحمل إليه كل**

(١) شرحه ج ٢ ص ٩٩.

(٢) شرحه ج ٢ ص ١٠٠.

(٣) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٢ ـ ٣.

(٤) المقدسي ـ احسن التقاسيم ص ٤٤٨.

(٥) شرحه ص ٤٥١.

(٦) شرحه ص ٤٢١.

(٧) الاصطخري ص ١٥٧ ـ ٦، متز ج ١ ص ٢٠٦.

(٨) الجهشياري ص ٧، محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ج ١ ص ٥٦.

سنة مائة ألف درهم! فقال قد وهبت لك إسمي فافعل ما بدا لك». وفي العام التالي «أحضر الرجل المال ودخل على أبي أيوب.. وأعلمه انه قد انتفع باسمه، وأنه قد حمل المال..» فسر أبو أيوب كثيراً[١].

ويذكر الأصطخري «وبفارس ضياع قد ألجأها أربابها إلى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق فهي تجري بأسمائهم، وخفف عنهم الربع فهي بأيدي أهلها بأسماء يتوارثونها ويتبايعونها»[٢].

ولا بد من الإشارة إلى صنف خاص من الأراضي كانت تدفع ضرائب خاصة، وهي أراضي بعض كبار أهل الضياع والدهاقين الذين عقد أجدادهم عقوداً خاصة مع العرب عند الفتح يدفعون بموجبها مقداراً معيناً من الخراج لا يتغير. وكان ذلك بصورة خاصة في فارس وخراسان[٣].

٧ ـ وهناك «الضياع السلطانية» أو «ضياع الخلافة»[٤] وهي واسعة ومتفرقة في مختلف أراضي الخلافة كالعراق[٥] والشام ومصر[٦] وطبرستان واليمامة[٧] وخراسان وفارس[٨]. وأنشىء لها ديوان الضياع[٩].

وكانت هذه الضياع تعطى بالمزارعة حسب إتفاق يعقد بين الزارع والديوان. ذكر الأصطخري في حديثه عن فارس أن «الضياع السلطانية خارجة عن المساحة وإنما تؤخذ من السلطان بالمقاسمة أو المقاطعة»[١٠].

وأصل ضياع الخلافة، أراضي الأمويين التي صادرها بنو العباس عند مجيئهم إلى الحكم[١١]، ثم توسعت تدريجياً بطرق مختلفة، نذكر أمثلة منها. يقول البلاذري «أحب المنصور أن يستخرج ضيعة في البطيحة، «فأمر باستخراج السبيطية (أي تجفيف المياه التي تغمرها)فاستخرجت له»[١٢]. ويقول في محل آخر «حدثني بعض أهل العلم بضياع البصرة قال: كان أهل الشعيبية من الفرات جعلوها لعلي بن الرشيد.. في خلافة الرشيد

---

(١) الجهشياري ص ١١٨.

(٢) الاصطخري ص ١٥٨.

(٣) بارتولد ـ الحضارة الاسلامية ص ٦٥ ـ ٦.

(٤) البلاذري ص ٢٩٤.

(٥) قدامة ص ٢٤١.

(٦) الجهشياري ص ٩٠، التنوخي ـ الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٥٢.

(٧) الطبري ج ١١ ص ٩٠، ص ٩٨.

(٨) ابن الجوزي ـ المنتظم ج ٦ ص ٢٥.

(٩) التنوخي ـ الفرج ج ١ ص ٥٢.

(١٠) الاصطخري ص ١٥٨.

(١١) قدامة ص ٢٤١، البلاذري ص ٣٦٨.

(١٢) شرحه. ص ٣٧١.

على أن يكونوا مزارعين له ويخفف مقاسمتهم فيها، فجعلت عشرية من الصدقة، وقاسم أهلها على مارضوا به»(١).

وأخذ العباسيون ضياع السيبين من أولاد مسلمة بن عبد الملك وأقطعوها لداود بن علي ثم «إبتيع ذلك من ورثته فيما بعد فصار في عداد الضياع السلطانية»(٢). ومثل آخر الضياع المسماة بإيغار يقطين وقصتها «ان يقطين صاحب الدعوة أوغرت له ضياع من عدة طساسيج ثم صار إلى السلطان فنسب إلى إيغار يقطين»(٣).

وكان بعض هذه الضياع يجعل أحياناً وقف ذرية، فقد «وقف المعتصم على ولده بعض ضياع اليمامة»(٤).

٨ ـ كانت بعض الأراضي تدفع العشر فقط. فالأراضي المحيطة بالبصرة كانت عشرية لأن «ضياع البصرة أحياء موات في الإسلام»(٥). ويشير إبن خرداذبة إلى أراضي «السيبين» وأراضي الوقف في السواد كأراضٍ عشرية(٦). وكانت أراضي القطائع أو الإقطاعات عشرية، تدفع «عشر ما يكال» في مناطق المقاسمة، والعشر النقدي في مناطق خراج الوظيفة(٧). وهذه الأراضي من الصوافي(٨). ويقول أبو يوسف «وإنما يؤخذ العشر لما يلزم صاحب الإقطاع من المؤنة في حفر الأنهار والبيوت وعمل الأرض»(٩). وقد قدر أبو يوسف وارد هذه الإقطاعات في السواد بأربعة ملايين درهم سنوياً(١٠). وذكر قدامة أن «صدقات البصرة (أي أعشار منتوجات أراضيها) ترتفع في السنة ستة آلاف ألف درهم» حسب معدل سنة ٢٠٤هـ(١٠).

---

(١) شرحه ص ٢٧١.

(٢) قدامة ص ٢٤١، البلاذري ص ٣٦٨. وكان شراء أراضي السيبين قبل خلافة المأمون. أنظر الجهشياري ص ٣٠٦.

(٣) قدامة ص ٢٤١.

(٤) الطبري ج ١٠ ص ٩٨.

(٥) الاصطخري ص ٨٢، ابن حوقل ج ١ ص ٢٣٩.

(٦) ابن خرداذبة ص ١٢.

(٧) أنظر البلاذري ص ٢٧٢.

(٨) أما الصوافي في السواد فأصلها أراضي كسرى والبيت الساساني المالك، وأوقاف البريد وأوقاف بيوت النار، والآجام، وأراضي قتلى الحرب عند الفتح الاسلامي ومغايض الماء والمستنقعات «البطيحة» وأراضي من هرب من اهل البلاد أثناء الفتح الاسلامي، الطبري ج ٤ ص ١٤٦، البلاذري ص ٢٧٢ ـ ٣،يحيى بن آدم رقم ١٩٩، ابن الأثير ج ٢ ص ٤٠٧، أبو يوسف ص ٦٨.

(٩) أبو يوسف ص ٦٩.

(١٠) شرحه ص ٦٨.

(١١) قدامة ص ٢٥١.

وهناك أراضٍ نقلت من الخراج إلى العشر، فيذكر البلاذري «وبالفرات أرضون أسلم عليها أهلها حين دخلها المسلمون، وأرضون خرجت من أيدي أهلها إلى قوم مسلمين بهبات وغير ذلك من أسباب الملك فصيرت عشرية وكانت خراجية، فردها الحجاج إلى الخراج، ثم ردها عمر بن عبد العزيز إلى الصدقة» ثم أرجعت بعده إلى الخراج حتى جاء المهدي وجعلها كلها من أراضي الصدقة(١).

ويروي الطبري في حوادث سنة ٢٤١هـ أن المتوكل «جعل كورة شمشاط عشراً ونقلهم من الخراج إلى العشر وأخرج بذلك كتاباً»(٢).

الجزية

سارت جباية الجزية في السواد على سنة عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م). وتتفق أكثر الروايات على أنه جبى ٤٨ درهماً من الأغنياء، و٢٤ درهماً من متوسطي الحال و١٤ درهماً من الفقراء في السنة(٣). وقد سار العباسيون عليها، فيذكر ديونيسيوس (حوالي ٢٠٠هـ) «أنه بحسب قانون العراق.. يدفع الغني ٤٨ درهماً والمتوسط ٢٤ درهماً والفقير ١٢ درهماً»(٤).

كما أن شروط الجزية التي يعطيها الفقهاء كانت متبعة (نظرياً) لدى الخلفاء. فجاء في عهد الخليفة الطائع بتاريخ ٣٦٦هـ «وإلى جباة جماجم أهل الذمة أن يأخذوا منهم الجزية.. بحسب منازلهم في الأموال وذات أيديهم في الأعمال، وعلى الطبقات المطبقة فيها والحدود المحدودة المعهودة لها، ولا يأخذوها من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال ولا من ذي سن عالية ولا ذي عاهة بادية ولا فقير معدم ولا مترهب متبتل»(٥) وجاء في عهد آخر «وأن يراعيهم حتى يمتثلوا ويمنعهم حتى يغيّروا»(٦). وهذه العهود وإن كانت متأخرة إلا أنها تنطبق على نظرة الخلفاء في العصر العباسي الأول.

ولكن جباية الجزية كانت تترك غالباً إلى العمال فيسيئون التصرف ويعسفون. نصح أبو يوسف الرشيد «أن لا يضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره ولكن يرفق بهم ويحبسون

---

(١) البلاذري ص ٣١٨.
(٢) الطبري ج ١١ ص ٥٢.
(٣) ابن سلام: الأموال ص ٣٩ ـ ٤١ أبو يوسف ص ١٢٢ ـ ٤.
(٤) ديونيسيوس ص ٦١ ج ١ نقله متز ج ١ ص ٧٦.
(٥) رسائل الصابي ج ١ ص ١١٢.
(٦) شرحه ص ١٣٩ ـ ١٤١.

حتى يؤدوا ما عليهم، ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية»[٢]. وفوق هذا التعذيب، كان الجباة أحياناً يأخذون من أهل الذمة «شيئاً من أموالهم» دون حق «ويكلفوا فوق طاقتهم»[٢]. ومن أمثلة الظلم والتفريط في الجزية ما يرويه ديونيسيوس الذي زار مصر حوالي عام ٢٠٠هـ عن مدينة تنيس المشهورة بصناعة النسيج، إذ يقول «ومع أن مدينة تنيس عامرة بالسكان كثيرة الكنائس، فإني لم أر من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلها، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني: إن مدينتنا محاطة بالماء فلا نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية والماء الذي نشربه يجلب لنا من بعيد، ونشتري الجرة منه بأربعة دراهم، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه، ونعطي على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة ومع أن أجرتنا لا تكفي لإطعام كلابنا، فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير، وفي ذلك نضرب ونسجن ونلزم بإعطاء أبنائنا وبناتنا رهائن فيلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار، ولو ولدت عندهم امرأة أو بنت طفلاً فإنهم يأخذون قسمنا بألا نطالب به، وقد يحدث أن تحل ضرائب جديدة قبل إطلاق هؤلاء النساء» [٣].

ثم إن المتوكل الذي كان شديداً على أهل الذمة «أمر.. بأخذ العشر من منازل أهل الذمة» علاوة على الجزية في سنة ٢٣٥هـ[٤].

وكانت جزية القرية أو المنطقة تضمن أحياناً من قبل أحد مثريها أو رؤسائها، بأن يدفع مقداراً معيناً للخزينة وله أن يجبي الجزية بعد ذلك[٥].

ويذكر قدامة أن جزية أهل الذمة في بغداد بعبرة سنة ٢٠٤هـ بلغت ٢٠٠,٠٠٠ درهم سنوياً[٦].

لم يكن التقويم المراعى في جباية الجزية أو الجوالي واحداً «لأن الجوالي (بسر من راى) ومدينة السلام وقصب المدن المشهورة كانت تجبى على شهور الأهلّة، وما كان من جماجم أهل القرى.. كان يجبى على شهور الشمس». وإستمر هذا حتى زمن المتوكل حين «نقل سنة ٢٤١هـ إلى سنة ٢٤٢هـ» وعندئذ جبيت «الجوالي والصدقات لسنة ٢٤١ وسنة ٢٤٢ في وقت واحد» ومعنى ذلك دفع جوالي سنة إضافية «ولذا جددت الكتب إلى العمال بأن تكون حساباتهم الجوالي على شهور الأهلة فجرى الأمر على ذلك»[٧].

---

(١) ابو يوسف ص ١٢٣.

(٢) ص ١٤٩.

(٣) نقله متز ج ١ ص ٧٦.

(٤) الطبري ج ١١ ص ١٥.

(٥) ابو يوسف ص ١٤٨.

(٦) قدامة ص ٢٥١.

(٧) المقريزي ج ٢ ص ٤٤.

الصدقات

بالإضافة إلى عشور الزروع كانت الصدقات تجبى على المواشي حسب الأسس التي شرحها الفقهاء(1). وكانت جباية الصدقات تترك عادة إلى عمال الخراج(2)، الذين لم يكونوا يحسنون التصرف دائماً. قال أبو يوسف: «وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالاً من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ولا يسع». ولذا إقترح أبو يوسف على الخليفة تعيين موظف خاص للصدقات «في جميع البلدان، ومره فليوجه فيها أقواماً يرتضيهم ويسأل عن مذاهبهم وطرائقهم وأماناتهم يجمعون إليه صدقات البلدان»(3). وقد كان لجباية الصدقات أحياناً عمال خاصون(4).

ضرائب أخرى

ومن موارد بيت المال أخماس المعادن، كمعادن الذهب على حدود الحبشة فإنها كانت تستثمر ويدفع عنها الخمس إلى بيت المال حتى زمن المتوكل حين طرد البجة أصحاب المناجم وأرهبوهم «فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر الذي يستخرج من المعادن»، ولكن المتوكل دحر البجة فرجع المسلمون إلى إستثمار هذه المناجم(5). ومنها الركاز والمال المدفون من دفائن الجاهلية، وخمس سيب البحر مما يقذف به ويستخرج منه مثل العنبر، ومنها أثمان الأباق من العبيد، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة إذا لم يأت لذلك طالب يستحقه، ومنها ما يؤخذ من مواريث من يموت ولا وارث له(6).

وكذلك كانت تؤخذ ضرائب على الصادرات. ونص الفقهاء على ضرورة وجود مسالح للإمام على المواضع التي تنفذ إلى بلاد الشرك يدققون أمتعة التجار، ويمنعون احتمال إرسال رسائل تضر بمصلحة الإسلام(7).

---

(1) لا محل لذكرها هنا. انظر الصولي ـ ادب الكتاب ص ١٩٩ ـ ٢٠٠، الماوردي ص ١١٦، ص ١١٢ ـ ٥، ص ١٢٣ ـ ٤، ص ١٠٩، ص ١٤٦، يحيى بن آدم (طبعة اوروبا) ص ٨١ ص ٨٤ ص ١٢٦، ابو عبيد ص ٤٦٣ ـ ٥٢٣، ابو يوسف ص ١٣٢ وما بعدها، و Aghnides-Muhammadan Theoris of Finance p 244 FF. Duri-Studies p. 203-5. ورسائل أبي إسحاق الصابي ج ١ ص ١١١ و ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(2) رسائل العرب ج ٣ ص ١٥٢.

(3) ابو يوسف ص ٩٥.

(4) رسائل العرب ج ٣ ص ١٦٢.

(5) الطبري ج ١١ ص ٥٢.

(6) متز ج ١ ص ١٨٩ عن مخطوط لقدامة.

(7) ابو يوسف (بولاق) ص ١١٧.

وهناك ضرائب أخرى جديدة ليس لها ذكر عند الفقهاء، لكن هذه الضرائب لم تكن كثيرة في العصر العباسي الأول، بل زادت بعد قتل المتوكل بتأثير زيادة الترف، وكثرة النفقات، وقلة الجباية وصغر المملكة، وضعف السلطة المركزية. ومن هذه الضرائب ضريبة الأسواق، «ولم يضع المنصور على الأسواق غلة حتى مات، فلما استخلف المهدي أشار عليه أبو عبيدالله بذلك، فأمر فوضع على الحوانيت الخراج وكان ذلك سنة ١٦٧هـ (٨٧٣م)»(١). وضريبة الأسواق هي جزء من المستغلات، هي «تربة أسواق وغير أسواق أبنيتها للناس ويؤدون أجرة الأرض والطواحين للسلطان»(٢). يقول اليعقوبي: «وبلغ أجرة الأسواق ببغداد جميعاً مع رحا البطريق وما اتصل بها في كل سنة (توفي اليعقوبي ٢٦٤هـ) إثني عشر ألف ألف درهم»(٣). ويقول إنه «بلغت غلات ومستغلات سر من رأى وأسواقها عشرة آلاف ألف درهم في السنة»(٤). وهذا يدل على أن المستغلات أصبحت مورداً لا بأس به للخزينة. وفي فارس كانت الطواحين إحتكاراً للسلطان، وكذلك أجرة الدور التي يعمل فيها ماء الورد(٥). وفي مدن فارس كانت أراضي الأسواق وشوارعها ملكاً للحكومة تأخذ عنها أجراً(٦).

ثم **المكس**، وهي ضريبة كانت تؤخذ على السفن الواردة في البحر إلى البصرة، حيث انشئت محلات خاصة (المراصد) لجباية هذه الضريبة(٧). وكان التجار القادمون من الهند والصين يدفعون ضريبة قدرها العشر(٨)، وهذا ما يسمى بأعشار السفن. وأسقطت هذه الضريبة زمن الواثق. يقول الطبري إنه في سنة ٢٣٢هـ «أمر الواثق بترك جباية أعشار سفن البحر»(٩) ويؤيده اليعقوبي(١٠). ولم تكن هذه الضريبة مهمة في العصر العباسي الأول، ولكن أهميتها زادت في العصر العباسي الثاني فبلغ واردها في قائمة علي بن عيسى لسنة ٣٠٦هـ ٢٢٥٧٥ ديناراً في السنة(١١).

ومن الموارد الإضافية **الأحداث**، وهي الغرامات التي تأخذها الشرطة عن

---

(١) ابن الجوزي ـ مناقب بغداد ص ١٣ ـ ١٤.
(٢) زيدان ـ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٨٤، الاصطخري ص ١٥٨.
(٣) اليعقوبي: البلدان ص ٢٢.
(٤) شرحه ص ٣٠.
(٥) الاصطخري ص ١٥٨.
(٦) متز ج ١ ص ٢٠٦.
(٧) الخوارزمي ص ٥٩.
(٨) اليعقوبي ج ٣ ص ٢٠٨.
(٩) الطبري ج ١١ ص ٢٤.
(١٠) اليعقوبي ج ٣ ص ٢٠٨. «واسقط ما كان يؤخذ ممن يرد في بحر الصين من العشر».
(١١) زيدان ـ التمدن ج ٢ ص ٨١.

الجنايات[1]. يقول الجهشياري «قلد المهدي عمارة بن حمزة الخراج بالبصرة فكتب إليه أن يضم الأحداث إلى الخراج ففعل ذلك»[2].

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى مصادرة الكتاب والوزراء في سبيل الحصول على الأموال فبعد أن كان العمال والوزراء يصادرون عقوبة لهم على خيانة، أصبحت المصادرة مورداً للخزينة بعد زمن الواثق. فكان الواثق أول خليفة صادر كتابه بغية الحصول على الأموال. يقول الطبري في حوادث ٢٢٧هـ «فمن ذلك ما كان من حبس الواثق بالله الكتاب وإلزامهم أموالاً». فأخذ من إسحاق بن يحيى بن معاذ ٨٠٠٠٠ دينار: من سليمان بن وهب (كاتب إيتاخ) ٤٠٠٠٠٠ دينار: الحسن بن وهب ١٤٠٠٠ دينار أحمد بن الخصيب وكتابه ١٠٠٠٠٠٠ إبراهيم بن رياح وكتابه ١٠٠٠٠٠، من نجاح ٦٠٠٠٠ دينار، ومن أبي الوزير صلحاً ١٤٠٠٠٠ دينار «وذلك سوى ما أخذه من العمال بسبب عمالاتهم»[3].

وزاد عدد المصادرات زمن المتوكل وصارت مورداً هاماً. وخير مثل لدوافع المتوكل في هذه المصادرات ما يذكره الطبري: «فلما عزم المتوكل على بناء الجعفري، قال له نجاح وكان في الندماء.. يا أمير المؤمنين **أسمي لك قوماً تدفعهم إلي حتى أستخرج لك منهم أموالاً تبني بها مدينتك فإنه يلزمك من الأموال ما يعظم قدره**.. فقال له سمهم، فرفع رقعة يذكر فيها موسى بن عبد الملك (على ديوان الخراج) والحسن بن مخلد (على ديوان الضياع).. وجعفر المعلوف مستخرج ديوان الخراج وغيرهم نحواً من عشرين رجلاً.. فوقع ذلك من المتوكل موقعاً أعجبه..» ولم ينجُ هؤلاء من النكبة إلا عداء الوزير (عبيدالله بن يحيى) لنجاح، ودسيسته بأن «أحضر موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد فقال لهما: إنه إن دخل إلى أمير المؤمنين دفعكما إليه وقتلكما وأخذ ما تملكان، ولكن إكتبا إلى أمير المؤمنين رقعة تقبلان به فيها بألفي ألف دينار» فاتبعا هذه النصيحة وعذّبا نجاحاً حتى الموت سنة ٢٤٥هـ[4]. وفي سنة ٢٣٣ أخذ من إبراهيم بن الجنيد النصراني ٧٠٠٠٠ دينار وصادر كاتبه أبا الوزير على «ستين ألف دينار وحمل بدور دراهم وحلياً، وأخذ له من متاع مصر إثنين وستين سفطاً وإثنين وثلاثين غلاماً وفرشاً كثيراً»، وصادر أحد كتابه «سعدون بن علي.. على ٤٠٠٠٠ دينار» وإثنين آخرين على «نيف وثلاثين ألف دينار وأخذت ضياعهم بذلك»[5].

وفي سنة ٢٣٧هـ غضب على أحمد بن داوود فأخذ من إبنه ١٢٠٠٠٠ دينار وجواهر بقيمة ٢٠٠٠٠ دينار «وصولح بعد ذلك على ١٦ ألف ألف درهم وشهد عليهم جميعاً (الأخوة

---

(١) قاموس دوزي ج ١ ص ٢٥٨.
(٢) الجهشياري ص ١٤٩.
(٣) الطبري ج ١١ ص ١٠ ـ ١٢.
(٤) الطبري ج ١١ ص ٥٨ ـ ٩ واليعقوبي ج ٣ ص ٢١٦.
(٥) الطبري ج ١١ ص ٣١.

أيضاً) ببيع كل ضيعة لهم»[١].

وفي سنة ٢٣٣هـ صادر عمر بن فرج على عشرة آلاف الف درهم[٢].

وهذه الأمثلة تبين أهمية المصادرة في أواخر العصر العباسي الأول كمورد للخزينة وكثرة اللجوء إليها حتى صارت شبه ضريبة على كبار الكتاب.

---

(١) شرحه ج ١١ ص ـ ٤٥ ـ ٦ والمسعودي ج ٤ ص ٤٧.

(٢) الطبري ج ١١ ص ٣٠. انظر ايضا اليعقوبي ج ٣ ص ٢٠٩، وابن الأثير ج ٧ ص ٢٦ ـ ٧.

المراجع

أولاً ـ المصادر الأولية

الأتليدي ـ إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس. القاهرة
الأثير، إبن ـ الكامل في التاريخ. إثنا عشر جزء. القاهرة ١٣٠٣هـ
الأربلي ـ خلاصة الذهب المسبوك. مطبعة الروم الأرثوذكس (القدس) ١٨٨٥م
الأشعري ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. جزآن. باعتناء ريتر إستانبول ١٩٢٩.
الاصطخري ـ المسالك والممالك. باعتناء دي خوية (المكتبة الجغرافية العربية ـ المجلد الأول) ليدن ١٨٧٠م.
الأصبهاني، أبو الفرج ـ الأغاني. القاهرة طبعة الساسي.
الأصبهاني، أبو الفرج ـ مقاتل الطالبيين. النجف ١٣٥٣هـ
البغدادي، عبد القادر ـ الفرق بين الفرق. القاهرة ١٩١٠م.
البلاذري ـ فتوح البلدان. القاهرة ١٩٠١.
البيروني ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية باعتناء سخاو ليبزج ١٨٧٨.
التنوخي ـ الفرج بعد الشدة. جزآن. القاهرة ١٩٣٨م.
الجاحظ ـ البيان والتبيين. ثلاثة أجزاء. باعتناء السندوبي. القاهرة ١٩٣٢م
الجاحظ ـ الحيوان. باعتناء عبد السلام محمد هارون. القاهرة ١٩٣٨.
الجهشياري ـ الوزراء والكتاب. القاهرة ١٩٣٨م.
الجوزي، إبن ـ المنتظم في التاريخ (ج ٥ ـ ج ١٠). حيدر آباد الدكن. ١٣٥٧ ـ ٩هـ.
الجوزي، إبن ـ مناقب بغداد. باعتناءالأثري. بغداد ١٣٢٤هـ.
الذهبي ـ مختصر دول الإسلام. جزآن. حيدر آباد الدكن ١٣٢٧هـ.
الرازي، فخرالدين ـ إعتقادات فرق المسلمين والمشركين. القاهرة ١٩٣٨م.
رسائل البلغاء ـ باعتناء محمد كرد علي. القاهرة ١٩١٣م.
رسائل العرب ـ ثلاثة أجزاء. جمعها أحمد زكي صفوت. القاهرة ١٩٣٧.
الساعي، إبن ـ مختصر أخبار الخلفاء. بولاق ١٣٠٢.

سهراب ـ عجائب الأقاليم السبعة باعتناء مزبك فينا ١٩٢٩م.
السيوطي ـ تاريخ الخلفاء. القاهرة ١٢٥٧هـ
السيوطي ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. جزآن القاهرة ١٣٢٧هـ.
الشهرستاني ـ نهاية الإقدام في علم الكلام. باعتناء جيوم اكسفورد ١٩٣٤م
الشهرستاني ـ الملل والنحل. طبعة حجر، وطبعة أخرى على هامش إبن حزم (خمسة أجزاء). القاهر ١٣١٧ ـ ١٣٢١هـ.

حوقل، إبن ـ صورة الأرض. جزآن باعتناء كرامرز. الطبعة الثانية. ليدن ١٩٣٩م.
خرداذبة، إبن ـ المسالك والممالك. باعتناء دي خوية (المكتبة الجغرافية العربية ـ المجلد السادس) ليدن ١٨٨٩م

الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد. الجزء الأول باعتناء سالمون. باريس ١٩٠٤م.
الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد. أربعة عشر جزء. القاهرة ١٩٣١م.
خلدون، إبن ـ المقدمة، والتاريخ سبعة أجزاء. بولاق ١٢٨٤هـ
خلكان، إبن ـ وفيات الأعيان. جزآن. القاهرة ١٣١٠هـ
الخوارزمي ـ مفاتيح العلوم. باعتناء فان فلوتن. ليدن ١٨٩٥.
الدميري ـ حياة الحيوان الكبرى. جزآن. بولاق.
الدينوري ـ الأخبار الطوال. باعتناء جرجاس ليدن ١٨٨٨م
الصابي، أبو إسحاق ـ رسائل الجزء الأول باعتناء شكيب أرسلان. بعبدا لبنان ١٨٩٨م.
الصولي ـ أدب الكتاب. باعتناء الأثري. القاهرة ١٣٤١هـ
الطبري ـ إختلاف الفقهاء. باعتناء شاخت. ليدن ١٩٣٣م.
الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك. إثنا عشر جزءاً. القاهرة. المطبعة الحسينية.
الطقطقي، إبن ـ الفخري في الآداب السلطانية. القاهرة طبعة ١٩٢٧م وطبعة ١٣١٧هـ.
طيفور، إبن ـ تاريخ بغداد. الجزء السادس. باعتناء كيلر. ليبزج ١٩٠٨.
عبد ربه، إبن ـ العقد الفريد. أربعة أجزاء. القاهرة ١٩١٣م.
العبري، إبن ـ مختصر تاريخ الدول. بيروت ١٨٩٠م.
أبو عبيد، القاسم بن سلام ـ الأموال. القاهرة ١٣٥٣هـ.

العيون والحدائق بأخبار الحقائق (المعتصم). باعتناء ماتهيسن. ليدن ١٨٤٩.

عساكر، إبن ـ التاريخ الكبير. سبعة أجزاء دمشق ١٣٢٧هـ.

الفقيه، إبن ـ مختصر كتاب البلدان. باعتناء دي خوية (المكتبة الجغرافية العربية ـ المجلد الخامس) ليدن ١٨٨٥م.

قتيبة، إبن ـ الإمامة والسياسة. جزآن. القاهرة. مطبعة النيل.
قتيبة، إبن ـ المعارف. القاهرة ١٩٣٤م.

قدامة بن جعفر الكاتب ـ الخراج وصنعة الكتابة. باعتناء دي خوية (المكتبة الجغرافية العربية ـ المجلد السادس) ليدن ١٨٨٩م.
القزويني ـ آثار البلاد وأخبار العباد. جزآن باعتناء وستنفلد جو تنجن ١٨٤٨م.
كثير، إبن ـ البداية والنهاية في التاريخ، أربعة عشر جزءاً. القاهرة ١٩٣٢م.
الكليني ـ أصول الكافي. طبع حجر.
الكندي ـ الولاة والقضاة. مجموعة تذكار جب. باعتناء كيست.
المسعودي ـ التنبيه والإشراف. القاهرة ١٩٣٨م.
المسعودي ـ مروج الذهب طبعة دار الرجاء (أربعة أجزاء). القاهرة ١٩٣٨م وطبعة باريس. تسعة مجلدات باعتناء دي مينار. باريس ١٨٦١ ـ ٧٧م.
المقدسي، البشاري ـ أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم. باعتناء دي خوية ليدن ١٨٧٦ ـ ٧م.
المقدسي ـ البدء والتاريخ. ستة أجزاء باعتناء هوار. باريس ١٨٩٩م.
المقريزي ـ المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار. أربعة أجزاء. القاهرة ١٣٢٦هـ.
المقريزي ـ شذور العقود في ذكر النقود. النجف ١٩٣٨م.
الماوردي ـ الأحكام السلطانية. القاهرة ١٩٠٩م.
النديم، إبن ـ الفهرست. القاهرة ١٣٤٨هـ.
الوطواط ـ غرر الخصائص الواضحة. القاهرة ١٢٩٩هـ.
يحيى بن آدم القرشي ـ الخراج. القاهرة ١٣١٧هـ. وطبعة باعتناء جوينبول. ليدن ١٨٩٦.
اليعقوبي ـ كتاب البلدان. النجف ١٩٣٩م.
اليعقوبي ـ التاريخ. ثلاثة أجزاء. النجف ١٩٣٩م.
يعلى، أبو ـ الأحكام السلطانية. القاهرة ١٩٣٨م.
اليافعي ـ مرآة الجنان. أربعة أجزاء. حيدر آباد الدكن ١٣٢٧ ـ ٩هـ.
ياقوت ـ معجم البلدان. ثمانية مجلدات. القاهرة ١٩٠٦م.
يوسف، أبو ـ الخراج. طبعة بولاق ١٣٠٢هـ، وطبعة ١٣٥٢هـ.

ثانياً ـ المراجع الثانوية

١ ـ المراجع العربية:

أحمد أمين ـ ضحى الإسلام. الجزء الأول. القاهرة ١٩٣٤م.
بارتولد ـ الحضارة الإسلامية نقله عن التركية حمزة طاهر. القاهرة ١٩٤٢م
البستاني، فؤاد افرام ـ بغداد. المشرق ١٩٣٤.
بندلي جوزي ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام. القدس ١٩٢٨م.
حسن إبراهيم حسن ـ المأمون وعلي الرضا مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩٣٤م (ص ٨٤ ـ ٩٤).

الخضري ـ الدولة العباسية. القاهرة ١٩٣٨م.
الدوري، عبد العزيز ـ النظام النقدي في العراق في القرن الرابع الهجري ـ مجلة القضاء، بغداد سنة ١٩٤٢ (١٧٦ ـ ٢٠٠)
الدوري، عبد العزيز ـ التنظيمات المالية لعمر بن الخطاب ـ مجلة القضاء، بغداد سنة ١٩٤٤ العدد الخامس، وسنة ١٩٤٥ العدد الأول.
زيدان، جرجي ـ تاريخ التمدن الإسلامي. خمسة أجزاء القاهرة ١٩١١ ـ ١٩١٤م.
الزين، محمد حسن ـ الشيعة في التاريخ. صيدا مطبعة العرفان ١٩٣٨ م.
عنان، عبدالله ـ دولة الإسلام في الأندلس: القاهرة ١٩٤٣م.
فان فلوتن ـ السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات. تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم. القاهرة ١٩٣٤م.
الكيلاني، وجيه فارس ـ الدعاة من المتألهين والمتنبئين والمتمهدين. القاهرة ١٩٢٣.
لسترنج ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية. تعريب بشير فرنسيس. بغداد ١٩٣٦م.
متز ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري تعريب عبد الهادي أبو ريدة. جزآن القاهرة ١٩٤٠ ـ ٤١م.
محمد كرد علي ـ الإدارة الإسلامية في عز العرب. القاهرة ١٩٣٤م.
المدور، جميل نخلة ـ حضارة الإسلام في دار السلام. الطبعة الثانية القاهرة ١٩٠٥م.

٢ ـ المراجع الأجنبية:

Ameer Ali: A Short History of the Saracens. London 1934.
Arnold, T. The Caliphate. Oxford 1929.
Barthold, w.: Turkestan Down to the Mongol Invasion (G.M.S.) 1929.
Barthold, w: Mussulman Culture. Calcutta 1934.
Becker, c. The Expansion of the Saracens. Cambridge Medieval History, Vol. II. p. 329 ff. Cambridge 1936
Bertschneider: Medieval Researches. 2 Vols. London 1937.
Brooks, E. W.: The Strugle with the Saracens. Cambridge Medieval History, Vol. IV. p. 119ff.
Browne, E. G.: A Literary History of Persia, Vol. I Cambrige 1929.
Buckler: Harun al-Rashid and Charles the Great. Massachusetts 1931.
Buskhsh, Khuda: Contributions to the Study of Islamic Civilisation. 2 Vols. Calcutta 1929-30.
Christensen: L'Iran Sous Les Sassanides. Copenhague 1936.
Duri, A. K.: Studies on the Economic Life of Mesopotamia in the 10 th. cent. A. D. Encyclopedia of Islam.
Hitti, Ph. K.: A History of the Arabs. London 1937.
Joranson: The Alleged Frankish Protectorate in Palestine. The American Historical Review 1927.

Lane- Poole: Mohmmadan Dynasties. London 1893.
Minorsky: "Mazyar". E. I. Vol. III.
Muir, W: The Caliphate Ed. by T. H. Weir. Edinburgh 1924.
Noldeke: Sketches From Eastern History. London 1892.
Philby, st. j.: Harun al-Rashid. London 1933.
Sadighi: Les Mouvements Réligieux Iranians Paris 1938.
Van Vloten: Domination Arabe. Amesterdam 1898.
Wellhausen: The Arab Kingdom and its Fall. Trans. by M. Weir. Calcutta 1927.

فهرس مجمل

فهرس المصطلحات والفرق

فهرس الأعلام

(١) الاعلام مرتبة ترتيباً هجائياً، وقد اسقطت (ابن) و(ابو) و(ال التعريف) من الإعتبار.

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

ـ ع ـ

عيسى بن موسى: ٥٢ ـ ٥٩ ـ ٦٠ ـ ٦٥ ـ ٦٦ ـ ٧٩ ـ ٨١ ـ ٩٩ ـ ١٣٨ ـ ١٥٢ ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

تاريخ

الفتنة (طبعة ثالثة)
جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكّر
د. هشام جعيط

الكوفة
نشأة المدينة العربية الإسلامية
د. هشام جعيط

الخوارج في العصر الاموي (طبعة رابعة)
نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، أدبهم
د. نايف معروف

العصر العباسي الاول (طبعة ثانية)
دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي
د. عبد العزيز الدوري

مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي (طبعة خامسة)
د. عبد العزيز الدوري

الجذور التاريخية للشعوبية (طبعة رابعة)
د. عبد العزيز الدوري

الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية (طبعة ثانية)
مقدمة في أصول صناعة التاريخ العربي
د. عزيز العظمة

تطور أنظمة استثمار الارض الزراعية في العصر العباسي
د. أحمد عبد الحليم يونس

المغرب والاندلس في عصر المرابطين
المجتمع ـ الذهنيات ـ الاولياء
د. إبراهيم القادري بوتشيش

تاريخ الغرب الاسلامي
قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة
د. إبراهيم القادري بوتشيش

بلاد الشام:
الاقتصاد والسكان والسياسة
الفرنسية في مطلع القرن العشرين (طبعة ثالثة)
د. وجيه كوثراني

ياقوت الحموي
دراسة في التراث الجغرافي العربي
ـ مع التركيز على العراق في معجم البلدان ـ
د. عباس فاضل السعدي

اشهر حصارات المدن في التاريخ
مي علوش

اسرى الحرب عبر التاريخ
عبد الكريم فرحان

١٨٤٨ : الثورات القومية والديمقراطية والرومانسية في اوروبا
جان سيغمان

الثورة الالمانية: ١٩١٨ ـ ١٩١٩
العفيف الاخضر

مذكرات وسير ذاتية ووثائق

الجمر والرماد (طبعة ثانية)
ذكريات مثقف عربي
د. هشام شرابي

مذكرات طه الهاشمي
الجزء الثاني: ١٩٤٢ ـ ١٩٥٥ العراق ـ سورية ـ القضية الفلسطينية
تحقيق د. خلدون ساطع الحصري

سيرة ذاتية
الامير شكيب ارسلان

٢٠٠٠ /٩٧/ ١٢٣١

العصر العباسي الاول

هذا الكتاب في تاريخ العصر العباسي الاول ، تناول به المؤلف وجهه السياسي والاداري والمالي . عرض فيه وجهات نظر المؤرخين الكبار ثم حلل الاحداث برواياتها المختلفة وفاضل بينها ، ثم ابدى وجهة نظر خاصة بعد عرض الدليل .

كما تناول بالعرض الدعوة العباسية الاولى من شتى نواحيها ومعنى الانتقال من العصر الاموي الى العصر العباسي ، معرفاً عن كبار رجالات هذا العصر : ابو العباس ، ابو جعفر المنصور ، المهدي والهادي ، هارون الرشيد ، الامين والمأمون والمعتصم بالله . وافرد الفصل العاشر لدراسة نظام الضرائب والنظام الاقتصادي وهو قسم مهمل من تاريخ العصر العباسي الاول ، مما يجعل لهذا الكتاب ميزة خاصة بين الكتب التاريخية .

ان هذا الكتاب صدرت طبعته الاولى عام ١٩٤٥ ويعاد نشره كما صدر اول مرة لاهميته بين الكتب الحديثة .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت